كتاب التوحيد
و
قرة عيون الموحدين
في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين

تأليف

الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب النجدي الحنبلي

المتوفى ١٢٨٥ هـ

حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه

بشير محمد عيون

مكتبة المؤيد

ص. ب ١٠ - هاتف ٧٣٢١٨٥١

الطائف - المملكة العربية السعودية

مكتبة دار البيان

ص. ب ٢٨٥٤ - هاتف ٢٢٩٠٤٥

دمشق - الجمهورية العربية السورية

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم

١ - باب [حق الله على العباد وحق العباد على الله]

وقول الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدوا الله وَاجْتَنِبُوا

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن يا كريم

[**بسم الله الرحمن الرحيم**] الكلام على البسملة بيّن مذكور في الشرح ، والبداءة بها سنة ، كما فعل البخاري وغيره من العلماء اتباعاً للسنة في مراسلات النبي ﷺ للملوك وغيرهم ، وفي الأمر بالبداءة بها حديث معروف[١] .

[**كتاب التوحيد**] المراد بالتوحيد توحيد العبادة ، وكل رسول يفتتح دعوته لقومه بهذا التوحيد : ﴿ **أَنِ اعْبُدوا الله ما لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ** ﴾[الأعراف: ٦٥] كما في سورة الأعراف وهود وغيرهما .

وقول الله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦] دلت الآية على أن الله تعالى خلق الخلق لحكمة عظيمة ، وهي القيام بما وجب عليهم من عبادته وحده بترك عبادة ما سواه ، ففعل الأول وهو خلقهم ليفعلوا هم الثاني وهي العبادة .

قال شيخ الاسلام : العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

وقال أيضاً : والعبادة اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته ، وكمال الذل لله ونهايته ،

---

(١) الحديث ضعيف لاضطراب الرواة فيه عن الزهري ، وكل من رواه منه موصولاً ضعيف أو السند إليه ضعيف ، والصحيح عنه مرسلاً . والله أعلم . انظر « الإرواء » رقم (١) و« الأذكار » للنووي طبعتنا رقم (٣٣٩) .

الطَّاغوتَ ﴾ الآيـة [النحل: ٣٦] . وقوله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ

....

فالحب الخليّ عن ذلّ والذل الخليّ عن حب لا يكون عبادة ، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين .

وقال أيضاً : وأما ما خلقوا له من محبة الله تعالى ورضاه فهو إرادته الدينية ، فذلك مذكور في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلجِنَّ وَٱلإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدونِ ﴾[1] .

وقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنا في كلِّ أُمَّةٍ رَسولاً أَنِ ٱعْبُدُوا الله وَٱجْتَنِبوا الطَّاغوتَ ﴾ الآية .

يخبر تعالى أنه بعث في كل قرن وطائفة من الأمم رسولاً يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وينهاهم عن عبادة ما زينه الشيطان لهم وأوقعهم فيه من عبادة ما سواه ، فمنهم من هدي الله ووحدهُ تعالى بالعبادة وأطاع رسله ، ومنهم من حقَّت عليه الضلالة فأشرك مع الله غيره بعبادته ، ولم يقبل هُدَى الله الذي جاءت به الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسولٍ إِلَّا نوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنا فاعْبُدونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وهذا التوحيد الذي خُلقوا له ودعوا إليه هو توحيد الالهية ، توحيد القصد والطلب.

وأما توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وتوحيد الأفعال ، فهو توحيد العلم والاعتقاد ، وأكثر الأمم قد أقروا به لله .

وأما توحيد الالهية فأكثرهم قد جحدوه ، كما قال تعالى عن قوم هود لما قال لهم : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٦٥] ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنا لِنَعْبُدَ الله وَحْدَهُ ﴾ [الأعراف: ٧٠]، وقال مشركو قريش : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هٰذا لَشيءٌ عُجابٌ ﴾ [ص: ٥] ، وهذه الآية وهي قوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنا في كلِّ أُمَّةٍ رَسولاً أَنِ ٱعْبُدوا الله وَٱجْتَنِبُوا الطَّاغوتَ ﴾ ، هذه الآية تبين معنى الآية قبلها وكذلك الآيات بعدها ، وأن المراد بالعبادة التي خلقوا لها هي العبادة الخالصة التي لم يلبسها شرك بعبادة شيء سوى الله كائناً ما كان ، فلا تصح الأعمال إلا بالبراءة من عبادة كل ما يعبد من دون الله ، والله تعالى خلق الثقلين ليعبدوه ، فمنهم من فعل ، ومنهم من أشرك وكفر ، كما قال تعالى في هذه الآية : ﴿ فَمِنْهُم

---

(١) انظر كتاب « العبودية » ص٤٥٤ المطبوع ضمن « مجموعة التوحيد » ص٤٥٤ . طبعتنا .

﴿مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَنْ حقَّتْ عَلَيهِ الضَّلالَةُ﴾[النحل: ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ رَسولٍ إلاَّ لِيُطاعَ بِإذْنِ اللهِ ﴾ [النساء: ٦٤] ، يبين أن حكمة الرب في خلقه للجن والانس لا تقتضي أن كلا يفعل ما خلق له وأرسلت الرسل لأجله ، ولهذه الحكمة أهلك الله من لم يعبده وحده ، ولم يقبل ما جاءت به رسله ، وشرع قتالهم لنبيه ﷺ وأتباعه ، فمنهم من أطاع وهم الأقلون ، ومنهم من عصى وهم الأكثرون.

وهذا التوحيد هو دين الاسلام الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه ، كما قال الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف عليهم السلام : ﴿ إنِ ٱلحُكْمُ إلاَّ لِلهِ أَمَرَ أَنْ لا تعْبُدوا إلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف: ٤٠] ، وهذا هو الدين الذي بعث الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، وأمر الرسل أن يقيموه ، كما قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نوحاً وَٱلَّذي أَوْحَيْنا إلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إبْراهيم وَمُوسى وَعيسى أَنْ أَقيمُوا ٱلدِّينَ وَلا تَتَفرَّقوا فيه ﴾ [الشورى: ١٣] وقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿ قلْ إنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إلَيْهِ أَدْعُو وَإلَيهِ مَآبِ ﴾ ، فأمره أن يعبده وحده وأن يدعو الأمة الى ذلك.

والقرآن كله في هذا التوحيد وبيانه وجزائه والرد على من جحده ، كما قال تعالى : ﴿ قدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نورٌ وَكِتابٌ مُبينٌ * يَهْدي بِهِ اللهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رَضْوانَهُ سُبُلَ السَّلام وَيُخرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بِإذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ ﴾[المائدة: ١٥ - ١٦].

وفي حديث معاذ الذي رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، قال : قُلْتُ يا رَسُولَ اللهِ دُلَّني على عَملٍ يُدْخِلُني ٱلجَنَّةَ وَيُباعِدُني عَنِ النَّارِ ، فقالَ : « سَأَلتَ عَنْ عَظيمٍ ، وَإنَّهُ لَيسيرٌ عَلى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ : تَعْبُدُ اللهَ وَلا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً ، وَتُقيمُ الصَّلاةَ وَتُؤْتي الزَّكاةَ وتصومُ رَمَضانَ ـ وَذَكَرَ ٱلحَجَّ ثُمَّ قال : أَلاَ أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعمودِهِ وذِرْوَةِ سَنامِهِ ؟» قُلْتُ : بَلى يا رَسولَ اللهِ . قالَ : « رَأْسُ الأَمْرِ الإسْلامُ وَعَمودُهُ الصَّلاةُ وَذِرْوَةُ سَنامِهِ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ »[1].

فدل على أن الاسلام هو التوحيد ، والفرائض من حقوقه.

وقد أجمع الفقهاء على أن الاسلام شرط لصحة الصلاة وغيرها من الأعمال ، وهو

---

(١) لم يروه أبو داود، وإنما الترمذي رقم (٢٦١٩) في الإيمان: باب ما جاء في حرمة الصلاة، وأحمد في «المسند» ٢٣١/٥ و٢٣٤ و٢٣٧ و٢٤٥ و٢٤٦، وابن ماجة رقم (٧٣: ٣) في الفتن: باب كف اللسان في الفتنة، وصححه الحاكم ٤١٣/٢ ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وهو كما قالوا، انظر «الإرواء» رقم (٤١٣).

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ الآية [الإسراء: ٢٣] . وقوله : ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾ الآية [النساء: ٢٥] . وقوله : ﴿ قُلْ تَعَالَوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيْكُم أَلَّا

....

مقتضى الشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله .

فمعنى شهادة أن لا إله إلا الله : نفي الشرك والبراءة منه وممن فعله ، واخلاص العبادة لله وحده ، والايمان بالرسول وطاعته وهو معنى الآية الثالثة وهي قوله تعالى : ﴿ وَقضى رَبُّكَ أَنْ لا تَعْبُدوا إلاَّ إيَّاهُ ﴾ أي أمر ووصى فقوله : ﴿ أنْ لا تَعبُدوا ﴾ فيه معنى « لا إله » وقوله : ﴿ إلاَّ إيَّاهُ ﴾ فيه معنى ﴿ إلا الله ﴾ . وهذا معنى كلمة الاخلاص كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يا أَهْلَ الكِتابِ تعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لا نَعْبُد إلاَّ الله وَلا نُشرِكَ بِهِ شَيْئاً ﴾ ، فقوله : ﴿ أَنْ لَا نَعبُدَ ﴾ فيه معنى ﴿ لا آله ﴾ وقوله : ﴿ إلا الله ﴾ هو المستثنى في كلمة الاخلاص فسبحان الله كيف خفي هذا مع بيانه ووضوحه على الأذكياء من متأخري هذه الأمة ؟ .

وقول الله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدوا الله وَلا تُشْرِكوا بِهِ شَيْئاً ﴾ - الآية .

وهذه الآية تبين العبادة التي خُلقوا لها أيضاً ، فإنه تعالى قرن الأمر بالعبادة التي فرضها بالنهي عن الشرك الذي حرمه وهو الشرك في العبادة ، فدلت هذه الآية على أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة ، فلا تصح بدونه أصلاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانوا يَعْمَلونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلى ٱلَّذينَ مِنْ قَبْلِكَ لئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكونَنَّ مِنَ ٱلخاسِرينَ * بَلِ الله فاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرينَ ﴾[الزمر: ٦٥ - ٦٦] فتقديم المعمول يفيد الحصر ، أي بل الله فاعبد وحده لا غير ، كما في فاتحة الكتاب ﴿ إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعينُ ﴾ .

وقرر تعالى هذا التوحيد بقوله : ﴿ قُلْ إِني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ .

والدين هو العبادة بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ، كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :

والأمر والنهي الذي هو دينه   وجزاؤه يوم المعاد الثاني

وتقدم أن أصله وأساسه توحيد العبادة ، فلا تغفل عما تقدم .

قوله : ﴿ قُلْ تعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَينِ

تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾ الآيات [الأنعام : ١٥١ ـ ١٥٣] .

إِحْسَاناً ﴾ أي حرم عليكم الشرك الذي نهاكم عنه بقوله : ﴿ أَنْ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾ .

فالشرك أعظم ذنب عُصِيَ الله به أكبره وأصغره .

وقد وقع الأكثر من متأخري هذه الأمة في هذا الشرك الذي هو أعظم المحرمات ، كما وقع في الجاهلية قبل مبعث النبي ﷺ ، عبدوا القبور والمشاهد والأشجار والأحجار والطواغيت والجن ، كما عبد أولئك اللات والعزى ومناة وهُبل وغيرها من الأصنام والأوثان ، واتخذوا هذا الشرك ديناً ونفروا إذا دُعوا إلى التوحيد أشد نفرة واشتد غضبهم لمعبوداتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥] وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ﴾[الاسراء: ٤٦]، وقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾[الصافات ٣٥-٣٦] .

علموا أن لا إله إلا الله تنفي الشرك الذي وقعوا فيه ، وأنكروا التوحيد الذي دلت عليه ، فصار أولئك المشركون أعلم بمعنى هذه الكلمة : « لا إله إلا الله » من أكثر متأخري هذه الأمة ، لا سيما أهل العلم منهم الذين لهم دراية في بعض الأحكام وعلم الكلام ، فجهلوا توحيد العبادة ، فوقعوا في الشرك المنافي له وزينوه ، وجهلوا توحيد الأسماء والصفات وأنكروه ، فوقعوا في نفيه أيضاً . وصنفوا فيه الكتب لاعتقادهم أن ذلك حق وهو باطل .

وقد اشتدت غربة الاسلام حتى عاد المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، فنشأ على هذا الصغير ، وهرم عليه الكبير ، وقد قال النبي ﷺ : «بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيباً وَسَيَعودُ غَرِيباً كما بَدَأَ »(1) .

---

(١) رواه مسلم رقم (١٤٦) في الإيمان : باب بيان الاسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، وتمامه « وهو يأخذ يأرز بين المسجدين ، كما تأرز الحية في حجرها » ، ورواه أحمد ٣٨٩/٢ ، ومسلم رقم (١٤٥) ، وابن ماجه رقم (٣٩٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وتمامه « فطوبى للغرباء » ، وأحمد ٧٣/٤ من حديث عبد الرحمن بن سنة وتمامه « قيل : يا رسول الله ! من الغرباء ؟ قال : « الذين يصلحون إذا فسد الناس » ، ورواه أحمد ١٨٤/١ من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، ورواه أحمد ٣٩٨/١ ، والدارمي (٢٧٥٨) ،

قال ابن مسعود رضي الله عنه : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرْ إِلَىٰ وَصِيَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عليها خاتمه ، فليقرأ قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالُوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيْكُم ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً . . ﴾ الآية [الأنعام : ١٥١ - ١٥٣](١) .

....

وقد قال ﷺ : « افْتَرَقَتْ اليَهودُ عَلى إِحْدَى وَسَبْعينَ فِرْقَةً وَافْتَرَقَتِ النَّصارىٰ عَلى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعين فِرْقَةً وَسَتَفْتَرِقُ هذِهِ الأُمَّةُ عَلى ثَلاثٍ وَسَبْعينَ فِرْقَةً كُلّها في النَّارِ إلاَّ وَاحِدَةً » ، قالوا : ومن هي يا رَسولَ اللهِ ؟ قَالَ : « مَنْ كانَ عَلى مِثْلِ ما أَنا عَلَيْهِ اليَوْمَ وَأَصحابي »(٢) .

وهذا الحديث قد صح من طرق ، كما ذكره العماد ابن كثير وغيره من الحفاظ ، وهو في « السنن » وغيرها ، ورواه محمد بن نصر في « كتاب الاعتصام » .

وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ بعد القرون الثلاثة ، فلهذا عم الجهل بالتوحيد الذي هو أصل دين الاسلام ، فان أصله أن لا يعبد إلا الله ، وأن لا يعبد إلا بما شرع ، وقد ترك هذا وصارت عبادة الأكثرين مشوبة بالشرك والبدع ، لكن الله تعالى وله الحمد لم يخل الأرض من قائم له بحججه ، وداع إليه على بصيرة لكي لا تبطل حجج الله وبيناته التي أنزلها على أنبيائه ورسله ، فله الحمد والشكر على ذلك .

قوله : (التي عَلَيْها خاتَمُهُ) شبه هذه الوصية بوصية كتبت فختمت ، أي فلم تتغير ولم تتبدل ، أراد أن النبي ﷺ لم يزل يدعو الأمة من حين بعثه الله تعالى الى أن توفاه صلوات الله وسلامه عليه إلى ما تضمنته هذه الآيات المحكمات أمراً ونهياً ، كما قال تعالى عن خليله عليه السلام : ﴿ إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ آالعالمين * وَوَصَّى بِها

= والترمذي رقم (٢٦٣١) ، وابن ماجة رقم (٣٩٨٨) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . وللحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله رسالة في هذه الأحاديث وشرحها سماها « كشف الكربة في وصف أهل الغربة » وقد طبعت أكثر من مرة .

(١) رواه الترمذي رقم (٣٠٧٢) في التفسير : من سورة الأنعام والطبراني في « الأوسط » رقم (١٢٠٨) وقال الترمذي : وهذا حديث حسن غريب .

(٢) قال الألباني في « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٤٩٢) : رواه ابن ماجه رقم (٣٩٩٢) وابن أبي عاصم في « السنة » (٦٣) واللالكائي في « شرح السنة » (١/٢٣/١) من طريقين عن عباد بن يوسف حدثني صفوان بن عمرو عن راشد بن سعد عن عوف بن مالك مرفوعاً قلت : وهذا اسناد جيد ، رجاله ثقات معروفون غير عباد بن يوسف وهو الكندي الحمصي ، وقد ذكره ابن حبان في « الثقات » ووثقه غيره ، وروى عنه جمع . وللحديث شواهد . ا هـ .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت رَدِيفَ النبي ﷺ على حمار فقال لي : « يَا مُعاذُ ! أَتَدْرِي مَـا حَقُّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ ، ومَـا حَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ ؟ » فقلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً » ، فقلت : يا رسول الله أفلا أبشِّر الناس ؟ قال : « لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا » أخرجاه في « الصحيحين »(١) .

ابْراهيمُ بَنيهِ وَيَعْقوبُ يا بَنيَّ إِنَّ اللهَ آصْطَفَى لَكُمُ آلدِّينَ فَلا تَموتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمـون ﴾ الآيات [البقرة : ١٣١ - ١٣٢] .

قوله : (وعن معاذ بن جبل رضي عنه ، قال : كنْتُ رَديفَ النَّبيِّ ﷺ عَلى حمارٍ فَقالَ لي : يَا مُعاذُ أَتَدْري ما حَقُّ الله عَلى العِبادِ ، وما حَقُّ العِبادِ ، عَلى اللهِ) . فساقه المصنف رحمه الله تعالى هنا لتضمنه معنى الآيات التي تقدمت وذلك قوله: «حَقُّ آللهِ عَلى العِبادِ أَنْ يَعْبُدوهُ وَلا يُشْرِكوا به شَيْئاً » .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :

حـق الالـه عـبـادة بـالأمـر لا	بهـوى النفـوس فـذاك للشيـطان
مـن غيـر إشـراك بـه شيئـاً همـا	سبب النجـاة فحبـذا السـبـبـان
لـم ينـج مـن غـضـب الالـه ونـاره	إلا الـذي قـامـت بـه الأصـلان
والنـاس بعـد فـمشـرك بـالـهـه	أو ذو ابـتـداع أو لـه الـوصـفـان

« وَحَقُّ العِبادِ على الله أنْ لا يُعذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيئاً » ، ليس على الله حق واجب

---

(١) البخاري رقم (٢٨٥٦) في الجهاد : باب اسم الفرس والحمار ، ورقم (٥٩٦٧)في اللباس : باب حمل صاحب الدابة غيره بين يديه ، ورقم (٦٢٦٧) في الاستئذان : باب من أجاب بـ لبيك وسعديك ، ورقم (٦٥٠٠) في الرقاق : باب من جاهد نفسه ، ورقم (٧٣٧٣) في التوحيد : باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، ومسلم رقم (٣٠) في الإيمان : باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ، والترمذي رقم (٢٦٤٥) في الإيمان : باب ما جاء في افتراق هذه الأمة ، وأحمد في « المسند » ٣/ ٢٦٠ و٢٦١ ، وابن ماجه رقم (٤٢٩٦) في الزهد : باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة.

فيه مسائل :

الأولى : الحكمة في خلق الجن والإنس .

الثانية : أن العبادة هي التوحيد ، لأن الخصومة فيه .

الثالثة : أن من لم يأت به لم يعبد الله ، ففيه معنى قوله : ﴿ **وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴾ [الكافرون : ٣ و٥] .

الرابعة : الحكمة في إرسال الرسل .

الخامسة : أن الرسالة عمت كل أمة .

السادسة : أن دين الأنبياء واحد .

السابعة : المسألة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت ؛ ففيه معنى قوله : ﴿ **فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ** . . . ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٦] .

الثامنة : أن الطاغوت عام في كل ما عُبد من دون الله .

التاسعة : عظم شأن ثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام [١٥١ ـ ١٥٣] عند السلف ، وفيها عشر مسائل ، أولها النهي عن الشرك .

العاشرة : الآيات المحكمات في سورة الإسراء ، وفيها ثماني عشرة مسألة ، بدأها الله بقوله : ﴿ **لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً** ﴾ [الإسراء: ٢٢] ؛ وختمها بقوله : ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً** ﴾ [الإسراء: ٣٩] ، ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله : ﴿ **ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحِكْمَةِ** ﴾ [الإسراء: ٣٩] .

بالعقل كما تزعم المعتزلة ، لكن هو سبحانه أحقَّ ذلك على نفسه تفضلاً وإحساناً على الموحدين المخلصين الذين لم يلتفتوا في إرادتهم ومهماتهم ورغباتهم ورهباتهم الى أحد سواه ، ولم يتقربوا بما يقولونه ويعملونه من الطاعات إلا إليه وحده ، والله أعلم .

الحادية عشرة : آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة ، بدأها الله تعالى بقول : ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ﴾ [النساء: ٣٦] .

الثانية عشرة : التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته .

الثالثة عشرة : معرفة حق الله تعالى علينا .

الرابعة عشرة : معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه .

الخامسة عشرة : أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة .

السادسة عشرة : جواز كتمان العلم للمصلحة .

السابعة عشرة : استحباب بشارة المسلم بما يسرّه .

الثامنة عشرة : الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله .

التاسعة عشرة : قول المسؤول عما لا يعلم : الله ورسوله أعلم .

العشرون : جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض .

الحادية والعشرون : تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الارداف عليه .

الثانية والعشرون : جوز الارداف على الدابة .

الثالثة والعشرون : فضيلة معاذ بن جبل .

الرابعة والعشرون : عظم شأن هذه المسألة .

* * *

٢ ـ باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

وقول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُوْنَ ﴾ الآية [الأنعام: ٨٢] .

(باب فضل التوحيد) الباب هو المدخل الى الشيء . قوله : « وما يُكفِّرُ مِنَ الذُنوبِ » . (ما) مصدرية أي وتكفيره الذنوب . ويجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف ، أي والذي يكفره من الذنوب ، والمراد بالتوحيد توحيد العبادة ، وهو إفراد الله تعالى بأنواع العبادة الباطنة والظاهرة . كالدعاء والذبح والنذر ونحوه ، كما قال تعالى :

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ، وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ » . أخرجاه(١) .

ولهما في حديث عتبان : « فإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَٰلِكَ وَجْهَ اللهِ »(٢) .

....

﴿ فادْعو الله مُخْلصينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكافِرونَ ﴾ [غافر: ١٤] . وقال تعالى : ﴿ فادْعوهُ مُخْلصينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الأعراف: ٢٩] .

وقول الله تعالى : ﴿ الَّذينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلبِسوا إيمانَهُم بِظُلْمٍ أولئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدونَ ﴾ .

واللبس الخلط . والمراد بالظلم هنا الشرك الأكبر لما ثبت في حديث ابن مسعود وغيره مرفوعاً « إِنَّمَا هوَ الشِّرْكُ أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَىٰ قَـوْلِ العَبْدِ الصَّالِحِ ﴿ إِنَّ الشِّـرْكَ لَظُلْمٌ عَظيمٌ ﴾ »(٣) .

---

(١) البخاري رقم (٣٤٣٥) في الأنبياء : باب قول الله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ﴾ ، ومسلم رقم (٢٨) في الإيمان : باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً . والترمذي رقم (٢٦٤٠) في الإيمان : باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله ، وأحمد في « المسند » ٣١٤/٥.

(٢) البخاري رقم (٤٢٥) في الصلاة : باب المساجد في البيوت ، ورقم (١١٨٦) و(٥٤٠١) و(٦٤٢٣) و(٦٩٣٨) ومسلم رقم (٣٣) (٢٦٣) في المساجد : باب الرخصة في التخلف عن الجماعة ، وأحمد في « المسند » ٤٤/٤ و٤٤٩/٥.

(٣) البخاري رقم (٣٢) في الإيمان : باب ظلم دون ظلم ، ورقم (٣٣٦٠) في الأنبياء : باب قول الله تعالى : ﴿ واتخذ الله ابراهيم خليلاً ﴾ ورقم (٣٤٢٨ و٣٤٢٩) باب : قول الله تعالى : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ ورقم (٤٦٢٩) في التفسير سورة الأنعام : باب ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ ورقم (٤٧٧٦) وفي تفسير سورة لقمان : باب ﴿ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ورقم (٦٩١٨) في استتابة المرتدين : باب إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة ، ورقم (٦٩٣٧) : باب ما جاء في المتأولين ، ومسلم رقم (١٢٤) في الإيمان : باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده ، والترمذي رقم (٣٠٦٩) في التفسير : باب ومن سورة الأنعام ، وأحمد في « المسند » ٤٢٤/١ ، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

أراد أن من لم يجتنب الشرك لم يحصل له أمن ولا اهتداء بالكلية . وأما من سلم منه فيحصل له من الأمن والاهتداء بحسب مقامه في الاسلام والايمان . فلا يحصل الأمن التام والاهتداء التام إلا لمن لم يلق الله بكبيرة مصراً عليها . وأما إن كان للموحد ذنوب لم يتب منها حصل له من الأمن والاهتداء بحسب توحيده . وفاته منه بقدر معصيته ، كما قال : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنا الكِتابَ الَّذينَ آصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالخَيراتِ بِإِذْنِ اللهِ** ﴾ [فاطر: ٣٢] .

فالظالم لنفسه هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً . فهو تحت مشيئة الله إن شاء غفر له وإن شاء أخذه بذنبه ونجاه بتوحيده من الخلود في النار .

وأما المقتصد فهو الذي عمل بما أوجب الله عليه ، وترك ما حرم عليه فقط ، وهذه حال الأبرار .

وأما السابق فهو الذي حصل له كمال الايمان باستفراغه وسعه في طاعة الله علماً وعملاً .

فهذان لهم الأمن التام والاهتداء التام في الدنيا والآخرة ، فالكل للكل والحصة للحصة ، لأن كمال الإيمان يمنع صاحبه من المعاصي وعقوباتها ، فلم يلق ربه بذنب يعاقب به ، كما قال تعالى : ﴿ **مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُم وَآمَنْتُمْ** ﴾ [النساء: ١٤٧] وهذا الذي ذكرته في معنى هذه الآية هو ما قرره شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، وابن القيم رحمه الله في معناها ، وهو الذي دل عليه القرآن ، وهو قول أهل السنة والجماعة ، خلافاً لأهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم .

قوله : « مَنْ شَهِدَ » لا ريب أن الشهادة لا تكون شهادة إلا إذا كانت عن علم ويقين وصدق ، وأما مع الجهل والشك فلا تعتبر ولا تنفع ، فيكون الشاهد والحالة هذه كاذباً لجهله بمعنى الذي شهد به ، وقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة نفياً وإثباتاً ، فنفت الالهية عن كل ما سوى الله بقولك : « لَا إله » ، وأثبتت الالهية لله وحده بقولك : « إلاّ الله » . قال تعالى : ﴿ **شَهِدَ آللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إلا هُوَ وَالملائِكَةُ وَأُولو العِلْمِ قائِماً بِالقِسْطِ لَا إِلَهَ إلاّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ** ﴾ [آل عمران: ١٧] .

فكم ضل بسبب الجهل بمعناها من ضل وهم الأكثرون ، فقلبوا حقيقة المعنى فأثبتوا الالهية المنفية لمن نفيت عنه من المخلوقين أرباب القبور والمشاهد والطواغيت والأشجار والأحجار والجن وغير ذلك . واتخذوا ذلك ديناً وشبهوا وزخرفوا واتخذوا التوحيد بدعة

وأنكروه على من دعاهم إليه ، فلم يعرفوا منها ما عرف أهـل الجاهليـة من كفار قـريش ونحوهم[1] ، فإنهم عرفوا معناها وأنكروا ما دلت عليه من الاخلاص، كمـا قال تعـالى: ﴿ إِنَّهُمْ كانوا إذا قيل لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا آللهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقولونَ أَئِنَّا لَتارِكوا آلِهَتِنـا لشاعِـرٍ مَجنونٍ ﴾ [الصافات : ٣٥ ـ ٣٦] . والمشركون من أواخر هذه الامة أنكروا ما أنكره أولئك على من دعاهم الى ترك عبادة ما كانوا يعبدونه من دون الله من القبور والمشاهد والطواغيت ونحوها ، فأولئك عرفوا هذا المعنى وأنكروه ، وهؤلاء جهلوا هذا المعنى وأنكروه ، فلهذا تجده يقول لا إله إلا الله ، وهو يدعو مع الله غيره .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : الاله هو الذي تَأْلَهُهُ القلوبُ محبةً وإجلالاً وإنابةً وإكراماً وتعظيماً ، وذلاً وخضوعاً وخوفاً ورجاءً وتوكلاً .

وقال الوزير أبو المظفر رحمه الله تعالى في « الافصاح » قوله : شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن يكون الشاهد عالماً بأن لا إله إلا الله ، كما قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا آلَه إلا الله ﴾ [محمد: ١٩] . قال : واسم الله مرتفع بعد إلا من حيث إنه الواجب له الالهية ، فلا يستحقها غيره سبحانه . قال : وجملة الفائدة في ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت وعلى الايمان بالله ، فإنك لما نفيت الالهية وأثبت الايجاب لله كنت ممن كفر بالطاغوت ، وآمن بالله .

وقال ابن رجب رحمه الله تعالى : الاله هو الذي يطاع فلا يعصى هيبة له وإجلالاً ومحبة وخوفاً ورجاء وتوكلاً عليه وسؤالاً منه ودعاء له ، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل ، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الالهية كان قدحاً في اخلاصه في قول لا إله إلا الله ، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك .

وقال البقاعي : « لا إله إلا الله » ، أي انتفى نفياً عظيماً أن يكون معبود بحق غير الملك الاعظم قال : وهذا العلم هو من أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة ، وانما

---

(١) قال الاستاذ محمد رشيد رحمه الله تعالى : سبب ذلك أن عرب الجاهلية هم أهل لغة القرآن الفصحاء فلا يجهلون شيئاً من معنى التوحيد الذي قرره . وأما هؤلاء الذين فشا فيهم شرك العبادة فليسوا من أهل ملكة هذه اللغة ، وإنما يدينون بالاصطلاحات التي تلقاها بعضهم من بعض من كلامية وعامية ، وإذا كان مثل الفخر الرازي من أكبر أئمة متكلميهم وأصوليهم أخطأ في فهم معنى الإله في تفسير ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ ، فما الظن بمن دونه من علمائهم ، دع عامهم ودهماءهم ؟ هل يستغرب منهم الجهل بأن من دعا ميتاً أو صالحاً حياً فيما لا يدعى فيه إلا الله ، أو طاف بقبره ونذر له يكون عابداً له ، ومتخذاً له إلها . اهـ .

يكون علماً إذا كان نافعاً ، وانما يكون نافعاً إذا كان مع الاذعان والعمل بما تقتضيه ، وإلا فهو جهل صرف .

(قلت) : وهؤلاء المتأخرون جهلوا معنى الإله ، وقلبوا حقيقة المعنى إلى معنى توحيد الربوبية ، وهو القدرة على الاختراع فأثبتوا ما نفته « لا إلٰـهَ إلا الله » من الشرك ، وأنكروا ما أثبتته من اخلاص العبادة لله جهلاً منهم ، وقد قال تعالى : ﴿ **فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ** ﴾ [الزمر: ٢] .

قال محيي الدين النووي : اعمل أن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قد ضُيِّع من أزمان متطاولة ، ولم يبق في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً ، وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه ، وإذا كثر الخبث عم العقابُ الصالحَ والطالحَ .

قوله : في هذه الأزمان يعني القرن الخامس والسادس ، وإذا كان كذلك فما الظن بالقرن العاشر وما بعده ، وقد استحكمت فيها الغربة ، ولشيخنا محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في تفسير هذه الكلمة كلام بديع واضح لم يسبق إلى مثله ، فليراجع لمسيس الحاجة اليه .

قوله في الحديث : « وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ » تأكيد لمعنى لا إله إلا الله الذي دلت عليه ووضعت له من باب اللف والنشر المقدم والمؤخر ، وهو بيان لمعنى هذه الكلمة ، لأنها دلت بجملتها على التوحيد ، فلا إله تنفي الشرك في العبادة قليلة وكثيرة ، وبينه بقوله : « لَا شَرِيكَ لَهُ » في إلهيته وهي العبادة .

وقوله : « وَحْدَهُ » هو معنى « إلَّا الله » فهو الإله الحق وحده دون كل ما سواه من أهل السموات والأرض ، كما دلت على ذلك الآيات المحكمات ومتواتر الأحاديث ، فتدبر هذا البيان يطلعك على بطلان قول من يقول بجواز دعوة غير الله ، والله تعالى يقول لنبيه : ﴿ **فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢١٣] . وغيرها من الآيات الآتي ذكرها إن شاء الله تعالى .

فقوله : « وَحْدَهُ » تأكيد للاثبات .

وقوله : « لَا شَرِيكَ لَهُ » تأكيد للنفي .

وقوله : (وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ) أي وشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أي بصدق ويقين ، وذلك يقتضي اتباعه وتعظيم أمره ونهيه ولزوم سنته ﷺ ، وأن لا تعارض بقول أحد لانه غيره ﷺ يجوز عليه الخطأ ، والنبي ﷺ قد عصمه الله تعالى وأمرنا بطاعته والتأسي به ، والوعيد على ترك طاعته بقوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ**

﴿ أَمْراً أَنْ يَكونَ لهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٦] . وقال : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذينَ يُخالِفونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصيبَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ ﴾ [النور: ٦٣] .

قال الامام أحمد رحمه الله تعالى : أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك ، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك .

وقد وقع في التفريط في المتابعة وتركها وتقديم أقوال من يجوز عليهم الخطأ على قوله ﷺ لا سيما من العلماء كما لا يخفى .

قوله: «وَأَنَّ عيسى عَبْدُ اللهِ وَرَسولُهُ» فيه بيان الحق الذي يجب اعتقاده كما في الآيات المحكمات وما فيه من الرد على كفار النصارى وهم ثلاث طوائف طائفة قالوا : إن عيسى هو الله . وطائفة قالوا : ابن الله . وطائفة قالوا : ثالث ثلاثة : يعنون عيسى وأمه فبين تعالى في كتابه الحق وأبطل الباطل فقال : ﴿ يا أَهْلَ ٱلكِتابِ لا تَغْلوا في دينِكُمْ وَلاَ تَقولوا عَلى ٱللهِ إلاّ الحَقَّ إنَّما المسيحُ عيسى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إلى مَرْيَمَ وَروحٌ مِنْهُ فَآمِنوا باللهِ وَرُسُلِهِ وَلا تقولوا ثَلاثَةٌ انْتَهوا خيراً لَكُمْ إنَّما اللهُ إلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكونَ لَهُ وَلَدٌ ، لَهُ ما في السَّمٰواتِ وَما في الأَرْضِ وَكَفى بِاللهِ وَكيلاً ﴾ [النساء: ١٧١] والآيات بعدَها .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذينَ قالوا إنَّ ٱللهَ هُوَ المسيحُ ابنُ مَرْيَمَ ﴾ في مواضع من المائدة [١٧ و٧٢] .

وأخبر تعالى عما قاله المسيح عليه السلام وهو في المهد فقال تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلهُ قالوا يا مَرْيَمُ لقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِياً * يا أُخْتَ هارونَ ما كانَ أَبوكِ ٱمْرأَ سَوْءٍ وما كانت أُمُّكِ بَغِيًّا * فأَشارَتْ إليْهِ قالوا كَيْفَ نكَلِّمُ مَنْ كَانَ فـي المَهْـدِ صَبِيًّا * قالَ إني عَبْدُ ٱللهِ آتانيَ الكِتابَ وَجعلني نبِيًّا * وَجَعَلَني مُبارَكاً أَيْنما كُنْتُ وَأَوصاني بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوالِدَتي وَلَمْ يَجعَلْني جَبَّاراً شَقِيًّا * وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَموتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عيسى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقِّ الذي فيهِ يَمتَرونَ * ما كانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إذا قضى أَمْراً فإنما يَقولُ لهُ كُنْ فيَكون * وَإِنَّ ٱللهَ رَبي وربُّكُمْ فاعْبُدوهُ هَذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ ﴾ [مريم: ٢٧ ـ ٣٦] فبيّن تعالى الصراط المستقيم الذي من سلكه نجا ومن خرج عنه هلك وقال تعالى : ﴿ إنَّ مَثَلَ عيسى عِنْدَ ٱللهِ كَمثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثمَّ قالَ لَهُ كُنْ فيَكونُ * الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فلا تكنْ مِنَ المُمْترينَ ﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦٠] فبيَّن تعالى الصراط المستقيم بياناً شافياً وواقياً وأقام حججه على توحيده فأحق الحق وأبطل الباطل ولو كـره المشركون.

قوله : « وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إلى مَرْيَمَ » أي قوله : كن ، فخلقه بكن فكان ففيه إثبات صفة

الكلام لله تعالى خلافاً للجهمية أيضاً .

قوله : « وَروحٌ مِنْهُ » أي من الأرواح التي استخرجها من صلب آدم عليه السلام ، وأخذ عليها العهد على أنه تعالى ربهم وإلههم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَني آدَمَ مِنْ ظُهورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالوا بَلى شَهِدْنا ﴾ الآيات [الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٤] وروح عيسى من تلك الأرواح التي خلقها الله تعالى .

وذكر ابن جرير عن وهب بن منبه قال : نفخ جبريل في جيب درع مريم حتى وصلت النفخة الى الرحم فاشتملت . وعن السدي أن النفخة دخلت في صدرها فحملت . وقال ابن جريج : يقولون إنما نفخ في جيب درعها وكمّها . انتهى مختصراً . فجبريل نفخ والله خلق يقول كن فكان كما قال تعالى : ﴿ فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيهِ مِنْ روحي ﴾ فسبحان من لا يخلق غيره ولا يعبد سواه ، وقد أورد بعض النصارى على بعض علماء المسلمين قول الله تعالى :﴿ وروح منه ﴾ فقال في الجواب : هذا ليس خاصاً بعيسى عليه السلام بل المخلوقات كذلك كلها كما قال تعالى : ﴿ وَسَخرَ لكُمْ ما في السَّمٰواتِ وَما في الأَرْضِ جَميعاً مِنْهُ ﴾ أي خلقاً وإيجاداً ، وعيسى كذلك خلقه وأوجده كسائر مخلوقاته ، وفي هذا الحديث الرد على اليهود أعداء الله وأعداء أنبيائه ورسله فانهم كانوا هم والنصارى في طرفي نقيض فنسبوه الى أنه ولد بغي قاتلهم الله فأكذبهم الله تعالى في كتابه وأبطل قولهم كما أبطل قول الغلاة من النصارى فيما تقدم من الآيات ونحوها .

فالنصارى غلوا في عيسى ابن مريم عليه السلام أعظم الغلو والكفر والضلال ، واليهود جفوا في حقه غاية الجفاء ، وكلاهما قد ضل ضلالا بعيداً ، نبه الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه وبّين تعالى الحق والصدق ورفع قدر المسيح عليه السلام ، وجعله من أولى العزم الخمسة المذكورين في سورة الأحزاب والشورى ، وأمر نبيه ﷺ أن يصبر كما صبروا فقال : ﴿ وَٱصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولي الْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ، فهم أفضل الرسل على التحقيق ، والنبي ﷺ أفضلهم صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

قوله : « وَأَنَّ الجنَّة حَقٌّ » أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة ، وما فيها من القصور والثمار والفواكه والنعيم المقيم والنظر الي وجه الله الكريم ، كما قال تعالى : ﴿ عَطاءً غَيرَ مَجذوذٍ ﴾ . وقال : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُم مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانوا يَعْمَلونَ ﴾ .

« والنَّارَ حَقٌّ » أعدها الله تعالى لمن كفر به وأشرك في آلهيته وربوبيته ، وألحد في أسمائه وصفاته . ومن لم يؤمن بالجنة والنار فقد كفر بالقرآن والرسل ، فان الله تعالى بين

الجنة وما أعد فيها من النعيم المقيم ، وذكر أنها دار المتقين ، وذكر النار وما فيها من العذاب وأنه أعدها لمن كفر به وأشرك.

قوله : « أَدْخَلَهُ الله الجَنَّةَ عَلى ما كانَ مِنَ العَملِ » جواب من الشرطية أي من شهد أن لا إله إلا الله الى آخره أدخله الله الجنة ، أي باخلاصه وصدقه والايمان برسوله وما أرسل به ، وخالف النصارى واليهود في الغلو والجفاء في حق عيسى ، وعلم يقيناً أنه عبد الله ورسوله ، وآمن بالجنة والنار ، فمن كان كذلك أدخله الله الجنة ، وان كان مقصراً وله ذنوب فهذه الحسنة العظيمة ترجح بجميع السيئات ، فتدبر هذا الحديث فانه عظيم والله أعلم.

قوله : « وَلَهُما » أي البخاري ومسلم وهذا حديث طويل اختصره المصنف وذكر منه ما يناسب الترجمة وهو قوله : « من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله » وهذا هو حقيقة معناها الذي دلت عليه هذه الكلمة من الاخلاص ونفي الشرك ، والصدق والاخلاص متلازمان لا يوجد أحدهما بدون الآخر ، فان من لم يكن مخلصاً فهو مشرك ، ومن لم يكن صادقاً فهو منافق ، والمخلص أن يقولها مخلصاً الالهية لمن لا يستحقها غيره وهو الله تعالى ، وهذا التوحيد هو أساس الاسلام الذي قال الخليل عليه السلام : ﴿ رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمينِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ . وقالت بلقيس : ﴿ رَبِّ إني ظَلَمْتُ نفْسي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيمانَ لله رَبِّ العالمينَ ﴾ . وقال الخليل عليه السَّلام : ﴿ إني وَجَّهْتُ وَجْهي لِلذي فطَرَ السَّمواتِ والأَرْضِ حَنيفاً وَما أَنا مِن المُشْرِكينَ ﴾ . والحنيف هو الذي ترك الشرك رأساً وتبرأ منه وفارق أهله وعاداهم ، وأخلص أعماله الباطنة والظاهرة لله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إلى الله وَهُوَ مُحسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقى ﴾ ، فاسلام الوجه هو إخلاص العبادة المنافي للشرك والنفاق وهو معنى الآية ونحوها إجماعاً فهذا هو الذي ينفعه قول (لا إله إلا الله) ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقى ﴾ . وهذا بخلاف من يقولها وهو يدعو غير الله ويستغيث به من ميت أو غائب لا ينفع ولا يضر ، كما ترى عليه أكثر الخلق فهؤلاء وإن قالوها ، فقد تلبسوا بما يناقضها فلا تنفع قائلها الا بالعلم بمدلولها نفياً وإثباتاً ، والجاهل بمعناها وإن قالها لا تنفعه لجهله بما وضعت له الوضع العربي الذي اريد منها من نفي الشرك ، وكذلك اذا عرف معناها بغير تيقن له ، فاذا انتفى اليقين وقع الشك.

ومما قيدت به في الحديث قوله ﷺ : غَيرَ شاكٍّ فَلا تَنْفَعُ إلا من قالها بعلم ويقين لِقَوْلِهِ صِدْقاً مِنْ قَلبِهِ خالِصاً مِنْ قَلبِهِ ، وكذلك من قالها غير صادق في قوله ، فانها لا تنفعه لمخالفة القلب اللسان كحال المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، وكذلك حال المشرك فلا تقبل من مشرك لمنافاة الشرك للاخلاص ، ولما دلت عليه هذه الكلمة

وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : « قَالَ مُوسَى : يَا رَبِّ ، عَلِّمْنِي شَيْئاً أَذْكُركَ وَأَدْعُوكَ بِهِ . قَالَ قُلْ يَا مُوسَى : لَا إِلَهَ إِلَّا الله . قَالَ : يَا رَبِّ كُلُّ عِبَادكَ يَقُولُونَ هٰذَا ، قَالَ : يَا مُوسَىٰ ، لَوْ أَنَّ السَّمٰوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي ، وَالأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ ، وَلَا إِلٰه إِلَّا الله في كِفَّةٍ ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا الله » رواه ابن حبان ، والحاكم وصححه (1)

....

مطابقة ، فانها دلت على نفي الشرك والبراءة منه ، والاخلاص لله وحده لا شريك له مطابقة ، ومن لم يكن كذلك لم ينفعه قوله لا إله إلا الله ، كما هو حال كثير من عبدة الأوثان يقولون لا إله الا الله وينكرون ما دلت عليه من الاخلاص ويعادون أهله وينصرون الشرك وأهله ، وقد قال الخليل عليه السلام لأبيه وقومه : ﴿ إنني بَراءٌ مما تَعْبُدونَ * إلّا الذي فَطَرَني فإنَّهُ سَيَهْدِينَ * وَجَعَلَها كَلمَةً باقِيَةً في عَقبِهِ ﴾ . وهي لا آله إلا الله وقد عبر عنها الخليل بمعناها الذي وضعت له ودلت عليه ، وهو البراءة من الشرك واخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، كما تقدم تقريره ، وكذلك من قالها ولم يقبل ما دلت عليه من الاخلاص كان قوله لهذه الكلمة كذباً منه ، بل قد عكس مدلولها فأثبت ما نفته من الشرك ، ونفى ما أثبتته من الاخلاص .

فهذا الذي ذكرناه هو حال الأكثرين من هذه الأمة بعد القرون الثلاثة ، وسبب ذلك الجهل بمعناها واتباع الهوى ، فيصرفه عن اتباع الحق ، وما بعث الله به رسله من توحيده الذي شرعه لعباده ورضيه لهم .

قوله : « لا إله إلا الله » فـ «لا» نافية للجنس نفياً عاماً إلا ما استثنى ، وخبرها محذوف تقديره لا إله إلا الله . قال تعالى : ﴿ ذَلكَ بِأَنَّ الله هُوَ الحَقُّ وَأَنَّ ما يَدعونَ مِنْ دونِهِ هُوَ الباطِلُ وَأَنَّ الله هُوَ العَليُّ الكبيرُ ﴾ . فآلهيته تعالى هي الحق ، وكل ما سواه من الآلهة فآلهتيه باطلة ، كما في هذه الآية ونظائرها فهذه كلمة عظيمة هي العروة الوثقى ، وكلمة التقوى وكلمة الاخلاص ، وهي التي قامت بها السموات والأرض ، وشرعت لتكميلها السنة

---

(1) رواه النسائي في « عمل اليوم والليلة » رقم (٨٣٤) و(١١٤١) ، وقال الحافظ في « الفتح » ١١/٢٠٨ : أخرجه النسائي بسند صحيح ، وصححه ابن حبان رقم (٢٣٢٤) ، والبغوي في « شرح السنة » ٥/٥٤ و٥٥ من حديث دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري ، ورواية دراج عن أبي الهيثم ضعيفة ، ومع ذلك فقد صححه الحاكم ١/٥٢٨ ووافقه الذهبي . وقال الهيثمي في « المجمع » ١٠/٨٢ : رواه أبو يعلى ورجاله وثقوا ، وفيهم ضعف .

والفرض ولاجلها جردت سيوف الجهاد ، وبها ظهر الفرق بين المطيع والعاصي من العباد . فمن قالها وعمل بها صدقاً واخلاصاً ، وقبولاً ومحبة وانقياداً ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل ، وفي الحديث الصحيح : « أَفْضَلُ الدُّعاءِ يَوْم عَرَفَةَ وَأَفْضَلُ ما قُلْتُ أنا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي : لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ »(1) . وفي حديث عبد الله بن عمرو مرفوعا « يُصاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتي على رؤوسِ الخَلائِقِ يَوْمَ القِيامَةِ فيُنْشَرُ لهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعونَ سِجِلًّا كلُّ سِجلٍ مِنها مَدَّ البَصَرِ ثُمَّ يُقال : أَتُنْكِرُ مِنْ هذا شَيْئاً ؟ فيَقولُ : لا يا رَبِّ فيُقالُ : أَلَكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ ؟ فيهابُ الرَّجُلُ فيَقولُ : لا ، فيُقالُ : بَلى إِنَّ لَكَ عِنْدَنا حَسَنَةً وَإِنَّهُ لا ظُلْمَ عَلَيْكَ فيُخْرَجُ لهُ بِطاقةٌ فيها أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَن مُحمَّداً عَبْدُهُ وَرَسولُهُ . فيَقولُ : يا رَبِّ ما هَذِهِ البِطاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاتِ ؟ فيُقالُ : إِنَّكَ لا تُظْلَمُ ، فتوضَعُ السِّجِلّاتُ في كِفَّةٍ وَالبِطاقَةُ في كِفَّةٍ ، فطاشَتِ السِّجِلّاتُ وَثَقُلَتِ البِطاقَةُ » . رواه الترمذي وحسنه(2) .

قوله : « لو أنَّ السموات السبع وعامرهَن غيري » أي كل من في السموات والأرض وقوله « غيري » استثنى ممن في السموات نفسه لانه العلي الأعلى تعالى وتقدّس كما قال تعالى ﴿ وَهُوَ العَلِيُّ العظيمُ ﴾ علو القهر وعلو القدرة وعلو الذات ، فالثلاثة كلها صفته ودلت على كماله ، كما قال تعالى : ﴿ الرَّحمٰنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوى ﴾ ﴿ ثمَّ اسْتَوى عَلى العَرْشِ الرَّحمٰنُ ﴾ في سبعة مواضع من كتابه كما قال تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَخافونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الملائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ في يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمسينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِني مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ وأمثال هذه الآيات : فمن سلب علو الله تعالى على خلقه فقد خالف صريح الكتاب والسنة وألحد في أسمائه وصفاته ، ومعنى هذه الكلمة نفي الالهية عن كل شيء

---

(1) رواه مالك في « الموطأ » 1/214 - 215 في القرآن : باب ما جاء في الدعاء ، من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز وهو مرسل صحيح الإسناد ، والترمذي رقم (3579) في الدعوات : باب في دعاء يوم عرفة من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وفي سنده عند الترمذي : محمد بن أبي حميد ابراهيم الأنصاري الزرقي بو ابراهيم المدني ، لقبه حماد وهو ضعيف كما قال الحافظ في «التقريب». فالحديث ثابت بمجموع شواهده كما قال الألباني في «الأحاديث الصحيحة» رقم (1503).

(2) الترمذي رقم (2641) في الإيمان . باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله ، وأحمد في « المسند » 2/213 ، وابن ماجه رقم (4300) في الزهد : باب ما يرجى من رحمة الله عز وجل يوم القيامة ، واسناده صحيح ، وصححه ابن حبان رقم (2524) « موارد » والحاكم 1/6 و529 . انظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (135).

سوى ما استثنى بها وهو الله تعالى ، وفيه النص على أن الأرضين سبع كالسموات ، لكن هذه الكلمة العظيمة لا يحصل رجحانها إلا في حق من أتى بقيودها التي قيدت بها في الكتاب والسنة ، وقد ذكر سبحانه في سورة براءة وغيرها كثيراً ممن يقولها ولم ينفعهم قولها ، كحال أهل الكتاب والمنافقين على كثرتهم وتنوعهم في نفاقهم فلم تنفعهم مع ما قام بهم من ترك تلك القيود ، (فمنهم) من يقولها جاهلا بما وضعت له وبما دلت عليه من نفي الشرك والبراءة منه والصدق والاخلاص وغيرها كعدم القبول ممن دعى إليها علماً وعملاً ، وترك الانقياد بالعمل بما تقتضيه كحال أكثر من يقولها قديماً وحديثاً ، ولكن في أواخر هذه الأمة أكثر . (ومنهم) من يمنعه من محبتها والعمل بها ما قام بقلبه من كبر أو هوى أو غير ذلك من الاسباب وهي كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشيرَتُكُمْ ﴾ الى قوله : ﴿ فَتَرَبَّصوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ وَالله لا يَهْدي القَوْمَ الفاسِقينَ ﴾ .

وأما أهل الايمان الخلّص فهم الذين أتوا بهذه الكلمة ، واجتمعت لهم قيودها التي قيّدت بها علماً ويقيناً وصدقاً واخلاصاً ومحبة وقبولاً وانقياداً وعادَوْا فيه ووالوا فيه وأحبوا فيه وأبغضوا فيه ، وقد ذكرهم تعالى في مواضع من سورة براءة وغيرها وخصهم بالثناء عليهم ، والعفو عنهم وأعد لهم جنته وأنجاهم من النار كما قال تعالى : ﴿ وَالمُؤْمِنونَ وَالمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْض يَأْمُرونَ بِالمعْروفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُقيمونَ الصَّلاةِ وَيُؤْتونَ الزَّكاةَ وَيُطيعون آلله وَرَسولَهُ أُولَئِكَ سَيرْحَمُهُمُ آلله إِنَّ آلله عَزيزٌ حَكيمٌ ﴾ وقال : ﴿ وَالسَّابِقونَ الأَوَّلونَ مِنَ المُهاجِرينَ وَالأَنْصارِ وَالَّذينَ آتَّبَعوهُمُ بِإِحْسانٍ رَضِيَ آلله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لهمْ جَنَّاتٍ تَجري تَحتَها الأَنهارُ خالِدينَ فِيها ذَلكَ الفَوْزُ العَظيمُ ﴾ فهؤلاء ومن اتبعهم باحسان هم أهل لا إله إلا الله وغير هذه من الآيات في الثناء عليهم وما أعد لهم في الدار الآخرة ، فمن تدبر القرآن وعرف تفاوت الخلق في محبة ربهم وتوحيده والعمل بطاعته والهرب من معصيته وإيثار ما يحبه تعالى رغبة وعملا وترك ما يكرهه خشية ورجاء واعتبر الناس بأحوالهم وأقوالهم وأعمالهم ونياتهم وإرادتهم وما هم عليه من التفاوت البعيد تبين له خطأ المغرورين كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « آلكَيِّسُ مَنْ دانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لما بَعْدَ آلموْتِ والعاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نفْسَهُ هَواها وَتَمنَّى عَلى آللهِ الأَمانيَّ »(١) .

---

(١) الترمذي رقم (٢٤٦١) في صفة القيامة : باب رقم (٢٦) وحسنه ، وأحمد في « المسند » ٤/١٢٤ ، وابن ماجه رقم (٤٢٦٠) في الزهد : باب ذكر الموت والاستعداد له من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه وصححه الحاكم ١/٥٧ ، وفي سنده أبو بكر بن أبي مريم الغساني وهو ضعيف ، وقال

وللترمذي وحسنه عن أنس : سمعتُ رسول الله ﷺ يقـول : « قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : يَا ابْنَ آدَمَ ؛ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايا ، ثُمَّ لَقيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً »[1] .

فيه مسائل :

الأولى : سعة فضل الله .

الثانية : كثرة ثواب التوحيد عند الله .

الثالثة : تكفيره مع ذلك للذنوب .

الرابعة : تفسير الآية « ٨٢ » التي في سورة الأنعام .

الخامسة : تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة .

السادسة : أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده ، تبين لك معنى قول : « لا إله إلا الله » وتبين لك خطأ المغرورين .

السابعة : التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان .

قوله : وللترمذي وحسّنه عن أنس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : « يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لوْ آتَيْتَنِي بِقُرابِ الأَرْضِ خَطايا ثمَّ لقِيْتَني لا تُشرِكُ بي شَيْئاً لأتَيْتُكَ بِقُرابِها مَغْفِرَةً » .

في هذا الحديث ما بين معنى « لا إلَهَ إلا الله » التي رجحت بجميع المخلوقات ، وجميع السيئات وأن ذلك هو ترك الشرك قليله وكثيره ، وذلك يقتضي كمال التوحيـد فلا يسلم من الشرك إلا من حقق توحيده وأتى بما تقتضيه كلمة الاخلاص من العلم واليقين والصدق والاخلاص والمحبة والقبول والانقيادُ وغير ذلك مما تقتضيه تلك الكلمة العظيمة كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنْفَع مالٌ ولا بَنونَ إلا مَنْ أَتى اللهَ بِقَلْبٍ سَليمٍ ﴾ .

= الـذهبي : لا والله أبو بكـر واهٍ، فالحـديث ضعيف كما قـال الألباني في « ضعيف الجـامع » رقم (٤٣١٠).

(١) الترمذي (٣٥٣٤) في الدعوات : باب غفران الذنوب مهما عظمت من حديث أنس وحسنه ، ورواه الدارمي (٢٧٩١) ، وأحمد في « المسند » ١٧٢/٥ من حديث أبي ذر ، والطبراني من حديث ابن عباس ، وهو حديث حسن كما قال الألباني في « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٢٧) .

الثامنة : كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله .

التاسعة : التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات ، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه .

العاشرة : النص على أن الأرضين سبع كالسموات .

الحادية عشرة : أن لهن عماراً .

الثانية عشرة : أثبات الصفات ، خلافاً للأشعرية .

الثالثة عشرة : أنك إذا عرفت حديث أنس ، عرفت أن قوله في حديث عتبان : « فَإِنَّ الله حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ » أنه ترك الشرك ، ليس قولها باللسان .

الرابعة عشرة : تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدي الله ورسوليه .

الخامسة عشرة : معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله .

السادسة عشرة : معرفة كونه روحاً منه .

السابعة عشرة : معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار .

الثامنة عشرة : معرفة قوله : « على ما كان من العمل » .

التاسعة عشرة : معرفة أن الميزان له كفتان .

العشرون : معرفة ذكر الوجه .

* * *

٣ ـ باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّـةً قَانِتـاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَـكُ مِنَ

باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

أي ولا عذاب ، وتحقيقه تصفيته وتخليصه من شوائب الشرك والبدع والاصرار على الذنوب ، فمن كان كذلك فقد حقق توحيده ، وتحقيق التوحيد عزيز في الأمة لا يوجد إلا في أهل الايمان الخلص الذين أخلصهم الله واصطفاهم من خلقه كما قال تعالى في يوسف عليه السلام : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنا المُخْلَصِينَ ﴾ وفي قراءة

﴿المخلصين﴾ وهم في صدر الأمة كثيرون وفي آخرها هم الغرباء وقد قلّوا وهم الاعظمون قدراً عند الله . وقال تعالى عن خليله عليه السلام : ﴿ قالَ يا قوم إنّي بَرِيءٌ مِما تُشْرِكونَ * إنّي وَجَّهْتُ وَجْهي لِلَّذي فَطَرَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ حَنيفاً وَما أنا مِنَ المُشرِكينَ ﴾ . أي أخلصت ديني وأفردت عبادتي للذي فطر السموات والارض ، أي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق . حَنيفاً : أي في حال كوني حنيفاً أي مائلاً عن الشرك الى التوحيد ولهذا قال: ﴿وما أنَا مِنَ المُشرِكينَ﴾ ونظائر هذه الآية في القرآن كثير كقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إبْراهيمَ حَنيفاً وَاتَّخَذَ الله إبْراهيمَ خَليلاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إلى اللهِ وَهُوَ مُحسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقى ﴾ .

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : في الآية يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله أي أخلص له العمل وانقاد لأوامره واتبع شرعه ولهذا قال: ﴿وهو محسن﴾ أي في عمله . واتباع ما أمر به وترك ما عنه زجر ، فدلت هذه الآية العظيمة على أن كمال الاخلاص إنما يوجد بترك الشرك والبراءة منه وممن فعله كما تقدم في الباب قبل هذا .

وقول الله تعالى : ﴿ إنَّ إبْراهيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلهِ حَنيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكينَ ﴾ ، قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : يمدح الله تعالى عبدَه ورسوله وخليله ابراهيم إمام الحنفاء بتبرئته من المشركين ومن اليهودية والنصرانية والمجوسية . وَالأُمَّةُ : هو الامام الذي يُقتدَى به . والقانت : هو الخاشع المطيع . والحنيف : المنحرف قصداً عن الشرك الى التوحيد ، ولهذا قال : ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكينَ ﴾ وقال مجاهد : كان إبراهيم أمة أي مؤمناً وحده والناس كلهم اذ ذاك كفار .

(قلت) : وكلا القولين حق فقد كان الخليل عليه السلام كذلك وقول مجاهد ـ والله أعلم ـ لما كان الخليل كذلك في ابتداء دعوته ونبوّته ورسالته عليه السلام فمدحه الله تعالى بتبرئته من المشركين كما قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ في الكِتابِ إبْراهيمَ إنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نبياً * إذْ قالَ لأَبيهِ يا أَبَتِ لِمَ تعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْني عَنْكَ شَيْئاً ﴾ الآيات ، وقوله : ﴿ وَإنَّ مِنْ شيعَتِهِ لَإبْراهيمَ * إذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَليمٍ ﴾ فهذا ـ والله أعلم ـ كان في ابتداء دعوته عليه الصلاة والسلام ولم يكن إذ ذاك على وجه الارض مسلم غيره وبذلك جاء الحديث[1] .

---

(١) البخاري رقم (٢٢١٧) في كتاب البيوع : باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه ، وفي كتب أخرى ، ومسلم رقم (٢٣٧١) في الفضائل : باب من فضائل ابراهيم الخليل ﷺ، وأبو داود رقم (٢٢١٢) ، والترمذي رقم (٣١٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠] .

وقال: **﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بآيات ربهم يؤمنون * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ ﴾** [المؤمنون: ٥٧ ـ ٥٩] .

....

وقوله : **﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾** فقد فارق المشركين بالقلب واللسان والأركان وأنكر ما كانوا عليه من الشرك بالله في عبادته ، وكسر الأصنام وصبر على ما أصابه في ذات الله وهذا هو تحقيق التوحيد وهو أساس الدين ورأسه كما قال تعالى : **﴿ إِذْ قالَ لهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِ العالَمِينَ ﴾** وأنت تجد أكثر من يقول لا إله إلا الله ، ويدعي الاسلام ، يفعل الشرك بالله في عبادته بدعوة من لا يضر ولا ينفع من الأموات والغائبين والطواغيت والجن وغيرهم ، ويحبهم ويواليهم ويخافهم ويرجوهم ، وينكر على من دعا الى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه ، ويزعم أن ذلك بدعة وضلالة ، ويعادي من عمل به وأحبه وأنكر الشرك وأبغضه ، وبعضهم لا يعد التوحيد علماً ولا يلتفت اليه لجهله به وعدم محبته ، فالله المستعان .

وقوله : (وقول آلله تعالى : **﴿ إِنَّ الذينَ هُمْ مِنْ خِشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقونَ ﴾** الى قوله : **﴿ وَٱلَّذينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكونَ ﴾** .

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى أي من إحسانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون وجلون من مكره بهم كما قال الحسن البصري : المؤمن من جمع احساناً وشفقاً . والمنافق من جمع إساءة وأمناً **﴿ وَالذينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤمِنـونَ ﴾** أي يؤمنون بآيات الله الكونية والشرعية لقوله تعالى عن مريم : **﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَكُتُبِهِ وَكانَتْ مِنَ ٱلقانِتينَ ﴾** أي أيقنت أن ما كان فهو من قدر الله وقضائه وما شرعه الله ، وإن كان أمراً فهو ما يحبه الله ويرضاه وإن كان نَهْياً فهو ما يكرهه الله ويأباه ، وإن كان خبراً فهو حق كما قال تعالى : **﴿ وَالَّذين هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشرِكونَ ﴾** أي لا يعبـدون معه غيـره بل يـوحدونـه ويعلمون أنه لا إله إلا الله الأحد الصمد الذي لا يتخذ صاحبة ولا ولداً وأنه لا نظير له . . انتهى .

« قلت » : فترك الشرك يتضمن كمال التوحيد ومعرفته على الحقيقة ومحبته وقبولـه والدعوة اليه كما قال تعالى : **﴿ قُلْ إني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ آلله وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾** وتضمنت هذه الآية كمال التوحيد وتحقيقه وبالله التوفيق .

عن حُصَيْنِ بن عبد الرحمن قال : كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟ فقلت : أنا ، ثم قلت : أما إني لم أكن في صلاة ، ولكني لُدِغْتُ ، قال : فما صنعت ؟ قلت : ارتقيت قال : فما حملك على ذلك ؟ قلت : لحديث حدثناه الشعبي ، قال : وما حدثكم ؟ قلت : حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال : لَا رُقْيَةَ إلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَّةٍ . قال : قد أحسن

قوله : (عن حصين بنِ عبد الرحمن) هو الحارثي من تابعي التابعين عن الشعبي . قال : (كنت عند سعيد بن جبير) هو الوالبي مولاهم الفقيه عن ابن عباس وخلق ، قال اللالكائي : ثقة إمام حُجّة . قتله الحجاج بن يوسف فما أمهله الله بعده . قوله : (فقال : أَيُّكُمْ رَأَى الكَوْكَبَ ٱلَّذي ٱنْقَضَّ البارِحَةَ) يعني كوكباً رجم به تلك الليلة ، يقال البارحة لليلة الماضية اذا زالت الشمس وأما قبل الزوّال فيقال : الليلة . قوله (فقلتُ : أنا) أي أنا رأيته (ثمَّ قلت : أَمّا إني لَمْ أَكُنْ في صَلاةٍ) قال ذلك حذراً من الشرك لئلا يظن الحاضرون أنه قام من الليل للعبادة فيكون قد ادعى لنفسه ما لم يفعله ، فما أشد حذر التابعين ومن قبلهم من الشرك دقيقِهِ وجليله والحذر من أن يحمد بما لم يفعله . فما أعز من سلم من الشرك كما سيأتي .

قوله : (ولكن حديث حدثناه الشعبي ، قال : وما حدثكم ؟ قلت : حدثنا عن بريدة ابن الحصَيبِ أنه قال : لا رُقْيَةَ إلّا مِنْ عَينٍ أوْ حُمَةٍ) .

هذا الحديث قد روي مرفوعاً ، والشعبي اسمه عامر بن شراحيل الحميري الشعبي الامام ، روي عن عمر وعلي وابن مسعود ولم يسمع منهم . وعن أبي هريرة وعائشة وجرير وابن عباس وخلق . قال الشعبي : ما كتبت سوداء في بيضاء . توفي سنة ثلاث ومائة . وبريدة هو ابن الحصيب ابن عبد الله بن الحارثي الأسلمي ، أسلم قبل بـدر وعمل على اليمن في أيام النبي ﷺ ، صحابي مشهور .

قوله : (لَا رُقْيَةَ إلّا مِنْ عَينٍ أوْ حُمَةٍ) هذا ـ والله أعلم ـ في أول الأمر ثم رخّص في الرّقي اذا كانت بحق ، والله أعلم .

قوله : (قد أحسنَ من انتهى الى ما سَمع) .

فيه حُسن الأدب مع العلم وأهله وأن من فعل شيئاً سئل عن مستنده في فعله هل كان مقتدياً أم لا ومن لم يكن معه حجّة شرعية فلا عذر له بما فعله . ولهذا ذكر ابن عبد البر الاجماع على أن المقلد ليس من أهل العلم فتفطّن لهذا .

من انتهى إلى ما سمع ، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي ،

قوله : (ولكن حدثنا ابن عباس) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم ، ابن عم النبي ﷺ حبر الأمة وترجمان القرآن ، دعا له النبي ﷺ فقال : « **اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ في الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ** »(1) وصار آية في العلم والفهم وكثرة ما روي من الاحاديث على أنه من صغار الصحابة لكن طلب الحديث من كبار الصَّحابة فحفظ الأكثر مما كان عندهم رضي الله عنهم أجمعين .

قوله : (أَنَّ النبي ﷺ قال : عُرِضَتْ عَلَيَّ الأمَمُ) .

قلت : فالله أعلم متى عُرضت ، وعَرضها أن الله تبارك وتعالى أراه مثالها اذا جاءت الأنبياء ومن تبعهم . فمن نجا بالايمان بالله وما بعث به أنبياءه ورسله من دينه الذي شرعه لهم وهو عبادته وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه والأخذ بما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه كما قال تعالى عن قوم نوح : « قالَ : ﴿ **يَا قَوْمِ إني لكُمْ نذيرٌ مُبينٌ . أَنِ اعْبُدوا اللهَ وَاتَّقوهُ وَأَطيعونِ** ﴾ » فعبادته وتوحيده وطاعته بامتثال ما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه وطاعة رسوله . هذا هو الدين أن لا يعبد إلا الله ، وأن لا يعبد إلا بما شرع فعلاً وتركاً . وأن يقدّم طاعة رسوله على ما يحبه ويهواه . .

قوله : (فرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ) الرهط : العشره فما دون (وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ) أي أتباعه (وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ) أي يبعث في قومه ، فلا يتبعه منهم أحد . كما قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ في شِيَعِ الأَوَّلينَ ، وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسولٍ إلاّ كانوا بِهِ يسْتَهْزِئونَ** ﴾ . وفيه دليل على أن الناجي من الأمم هم القليل ، والأكثر غلبت عليهم الطباع البشرية ، فعصوا الرسل فهلكوا كما قال تعالى : ﴿ **وإنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يَضُلّوكَ عَنْ سَبِيلِ الله** ﴾ وقال : ﴿ **وَمَا وَجَدْنا لأكْثَرهم مِنْ عَهْدٍ وإنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ**

---

(1) رواه بهذا اللفظ أحمد ١/٢٦٦ و٣١٤ و٣٢٨ و٣٣٥، وكذلك الطبَراني وانظر «مجمع الزوائد» (٩/ ورواه البخاري رقم (١٤٣) في الوضوء: باب وضع الماء عند الخلاء، بلفظ: «اللهم فقه في الدين»، ومسلم رقم (٢٤٧٧) في فضائل الصحابة: باب فضائل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، دون قوله « في الدين » والبخاري رقم (٧٥ و٣٧٥٦ و٧٢٧٠) بلفظ « اللهم علمه الكتاب»، والبخاري رقم (٣٧٥٦) بلفظ « اللهم علمه الحكمة ».

فَقِيلَ لِي : هٰذَا مُوسَىٰ وَقَوْمُهُ ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلى الأُفُقِ ، فَنَظَرتُ ، فَإذَا سَـوَادٌ عَظِيمٌ ، فَقِيلَ لِي : انْظُرْ إِلى الأُفُقِ الآخَرِ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ ، فَقِيلَ لِي : هٰذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفاً يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ » . ثم نهض فدخل منزله . فخاض الناس في أولئك ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا

....

لَفَاسِقِين ﴾ وقال: ﴿ قُلْ سيروا في الأَرْضِ فانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَـةُ الَّذينَ مِنْ قَبْـلُ كانَ أَكثَرُهُمْ مُشْرِكينَ ﴾ وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير . والناجون وإن كانوا أقل القليل فهم السواد الأعظم ، فانهم الأعظمون قدراً عند الله وإن قلوا . فليحذر المسلم أن يغتر بالكثرة ، وقد اغتر بهم كثيرون ، حتى بعض من يدعي العلم اعتقدوا في دينهم ما يعتقده الجهّال الضلّال ، ولم يلتفتوا الى ما قاله الله ورسوله .

قوله : (إِذْ رُفِعَ لي سَوادٌ عَظيمٌ فظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتي فقيلَ لي : هَذا مُوسى وَقَوْمُهُ) ، فيه فضيلة أتباع موسى من بني اسرائيل ممن آمن منهم بالرسل والكتب التي أنزلها الله ، التوراة والانجيل والزبور والفرقان وغيرها. وكانت بنو اسرائيل قبل التفرق كثيرين وفيهم الأنبياء، ثم بعد ذلك حدث ما حدث من اليهود ، وهذا الحديث يدل على أن التابع لموسى عليه السلام كثيرون جداً . وقد قال تعالى : ﴿ وفضّلناهم على العالمين ﴾ ، أي في زمانهم وذلك أن في زمانهم وقبله ممن كفر بالله خلقاً لا يُحصَوْنَ ، كحزب جـالوت وَبُختَنَصَّـر وأمثالهم ، ففضل الله بني اسرائيل بالايمان ، فصاروا أفضل أهل زمانهم ، وحدث فيهم ما ذكر الله في سورة البقرة وغيرها من معصيتهم لأنبيائهم واختلافهم في دينهم ، وقد ذكره الله تعالى محتجًا به على اليهود الذين كفروا بمحمد ﷺ، فتدبر ما ذكره الله تعالى من أحوالهم بعد الاختلاف.

قوله : (ثم نَظَرْتُ فإذا سَوادٌ عَظيمٌ) . وفي رواية (قَدْ سَدَّ الأُفُقَ) (فقيلَ لي هَذِهِ أُمَّتكَ وَمَعَهُمْ سَبْعونَ أَلْفاً يَدْخُلونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسابٍ وَلَا عَذابٍ) . فيه فضيلة هذه الامة وأنهم أكثر الامم تابعاً لنبيهم ﷺ ، وقد كثروا في عهد الصحابة رضي الله عنهم . وفي وقت الخلفاء الراشدين ومن بعدهم فملأوا القرى والأمصار والقفار وكثر فيهم العلم ، واجتمعت لهم الفنون في العلوم النافعة ، فما زالت في هـذه الامة على السنـة في القرون الثـلاثة المفضلة . وقد قلوا في آخر الزمان ، قال شيخنا رحمه الله تعالى في مسائله : وفيه فضيلة هذه الامة بالكمية والكيفية ، فالكمية الكثرة والعدد والكيفية فضيلتهم في صفاتهم ، كما في هذا الحديث بقوله : (وَمَعَهُمْ سَبْعونَ أَلْفاً يَدْخُلونَ الجَنة بِغَيرِ حِسابٍ وَلا عَذابٍ).

قوله : (ثمَّ نَهضَ فدَخَلَ مَنزِلَهُ فَخاضَ النَّاسُ في أُولئِكَ) أي : الحاضـرون في

رسول الله ﷺ . وقال بعضهم : فلعلهم الذي ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : « مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ » فأخبروه ، فقال : « هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » فقام عُكَّاشَةُ بنُ مَحْصَنٍ . فقال : ادع الله أن

....

ذكرهم هذا الحديث ، وفيه أيضاً فضل الصحابة رضي الله عنهم في مذاكرتهم العلم وحرصهم على فهم ما حدثهم به نبيهم ﷺ حرصاً على العمل به . وفيه جواز الاجتهاد فيما لم يكن فيه دليل لأنهم قالوا ما قالوا باجتهادهم ، ولم ينكر ﷺ ذلك عليهم لكن المجتهد إذا لم يكن معه دليل ، لا يجوز له أن يجزم بصواب نفسه ، بل يقال : لعل الحكم كذا وكذا كقول الصحابة رضي الله عنهم في هذا الحديث.

قوله : (فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسولُ الله ﷺ فأخبروهُ فقالَ : هُمْ ٱلّذينَ لا يَسْتَرِقونَ وَلا يَكْتَوونَ وَلا يَتَطَيَّرونَ وَعَلى رَبِّهِمْ يَتوكَّلونَ) أي لا يطلبون الرُّقْيَة من أحد ولا يكتوون اذا كان فيهم ما يستشفى بالكي منه ولا يتطيرون والطيرة شرك فتركوا الشرك رأساً ولم ينزلوا حوائجهم بأحد فيسألونه الرقية فما فوقها وتركوا الكيّ ، وإن كان يراد للشفاء . والحامل لهم على ذلك قوة توكلهم على الله وتفويضهم أمورهم إليه . وأن لا تتعلق قلوبهم بشيء سواه في ضمن ما دبره وقضاه فلا يرغبون إلا الى ربهم ، ولا يرهبون إلا منه ويعتقدون أن ما أصابهم بقدره واختياره لهم ، فلا يفزعون إلا إليه وحده في كشف ضرهم ، قال تعالى عن يعقوب عليه السلام : ﴿ إِنَّما أَشْكو بَثِّي وَحُزْني إلى ٱلله ﴾ .

قوله : (فَقامَ عُكَّاشَةُ بنُ مِحصَنٍ) صحابي مشهور شهد بدراً والمشاهد كلها مع النبي ﷺ وهو من بني أسد بن خزيمة قتله طليحة بن خويلد شهيداً وكان قد سار مع خالد بن الوليد لقتال أهل الردة فقاتل بني أسد لردّتهم عن الاسلام وكان فيهم طليحة وقد ادّعى النبوة وصدقوه ، فأكرم الله عكاشة على يده لما كان كافراً ثم بعد ذلك هداه الله الى الاسلام ، وجاهد الفُرس مع سعد بن أبي وقاص وصار له في الفرس وقائع معروفة في السير وكان ممن استشهد في قتالهم في وقعة الحيرة المشهورة.

قوله : (فَقالَ يا رَسولَ اللهِ ٱدْعُ ٱلله أَنْ يَجعَلَني مِنْهُم) فيه أن شفاعة الحي لمن سأله الدعاء إنما كانت بدعائه ، وبعد الموت قد تعذر ذلك بأمور لا تخفى على من له بصيرة . فمن سأل ميتاً أو غائباً فقد سأل ما لا يقدر عليه . وكل من سأل أحداً ما لا يقدر عليه إلا فقد

يجعلني منهم . قال : « أَنْتَ مِنْهُمْ » ثم قام رجل فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . فقال : « سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ »[1] .

فيه مسائل :

الأولى : معرفة مراتب الناس في التوحيد .

الثانية : مامعنى تحقيقه .

الثالثة : ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين .

الرابعة : ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك .

الخامسة : كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد .

السادسة : كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل .

جعله نـدًا لله كما كـان المشركـون كذلـك وقال تعـالى : ﴿ **فلا تجْعَلوا لِله أنْـداداً وَأنْتُمْ تعْلمون** ﴾ أنه ربكم وخالقكم ومَن قبلكم وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة فلا ترغبوا عنه الى غيره بل أخلصوا له العبادة بجميع أنواعها فيما تطلبونه من قليل أو كثير.

قوله : (أَنْتَ مِنْهُمْ) لما كان يعلمه ﷺ من إيمانه وفضله وجهاده كما في الحديث « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »[2] .

قوله : (ثُمَّ قامَ رَجُلُ آخرُ فَقالَ : ٱدْعُ ٱللهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ فقـالَ : « سَبَقَكَ بِهـا عُكَّاشَةُ » والظاهر أنه أراد صلوات الله وسلامه عليه سدّ الذريعة ، لئلا يتتابع الناس بسؤال ذلك فيسأله من ليس أهلاً له . وذلك منه ﷺ تعريض كما لا يخفى.

---

(١) البخاري رقم (٣٤١٠) في الأنبياء : باب وفاة موسى ، ورقم (٥٧٠٥) في الطب : باب من اكتوى أو كوى ، ورقم (٥٧٥٢) باب من لم يرق، ورقم (٦٤٧٢) في الرقاق : باب ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾، ورقم (٦٥٤١) باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ، ومسلم رقم (٢٢٠) في الإيمان : باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، والترمذي رقم (٢٤٤٨) في صفة القيامـة : باب رقم (١٧) وأحمـد في « المسند » ٢٧١/١ ، والـدارمي رقم (٢٨١٠) في الرقاق : باب يدخل الجنة سبعون ألفاً من أمتي بغير حساب .

انظر ما قال الحافظ في « الفتح » ٤٠٦/١١ ـ ٤٠٩ .

(٢) البخاري رقم (٣٠٠٧) في الجهاد : باب الجاسوس وفي كتب أخرى ، ومسلم رقم (٢٤٩٤) في فضائل الصحابة : باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم ، والترمذي رقم (٣٢٠٢) ، وأحمد ٨٠/١ ، من حديث علي رضي الله عنه .

السابعة : عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلاَّ بعمل

الثامنة : حرصهم على الخير .

التاسعة : فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية .

العاشرة : فضيلة أصحاب موسى .

الحادية عشرة : عرض الأمم عليه عليه الصلاة والسلام .

الثانية عشرة : أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها .

الثالثة عشرة : قلة من استجاب للأنبياء .

الرابعة عشرة : أن من لم يجبه أحد يأتي وحده .

الخامسة عشرة : ثمرة هذا العلم ، وهو عدم الاغترار بالكثرة ، وعدم الزهد في القلة .

السادسة عشرة : الرخصة في الرقية من العين والحمَّة .

السابعة عشرة : عمق علم السلف لقوله : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ، ولكن كذا وكذا فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني .

الثامنة عشرة : بعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه .

التاسعة عشرة : قوله : « أَنْتَ مِنْهُمْ » علم من أعلام النبوة .

العشرون : فضيلة عكَّاشة . .

الحادية والعشرون : استعمال المعاريض .

الثانية والعشرون : حسن خلقه ﷺ .

* * *

٤ ـ باب الخوف من الشرك

وقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ

باب الخوف من الشرك

وقول آلله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّ الله لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دونَ ذلِكَ لمنْ يَشاءُ ﴾ .

قال النووي رحمه الله تعالى : أما دخول المشرك النار فهو على عمومه فيدخلها ويخلد

لِمَنْ يَشَآءُ ﴾ [النساء ـ ٤٨-١١٦] . وقال الخليل عليه السلام : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فيها . ولا فرق بين الكتابي اليهودي والنصراني وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة . ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره . ولا بين من خالف ملة الاسلام وبين من انتسب اليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك . وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع به لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مصرًّا عليها ومات على ذلك فهو تحت المشيئة فان عفى عنه دخل الجنة أولاً وإلا عذِّب في النار ثم أخرج منها وأدخل الجنة . . انتهى.

(قلت) : هذا قول أهل السنة والجماعة لا اختلاف بينهم في ذلك وهذه الآية من أعظم ما يوجب الخوف من الشرك لان الله تعالى قطع المغفرة عن المشرك وأوجب له الخلود في النار وأطلق ولم يقيد ، ثم قال : ﴿ يَغفِرِ مَا دونَ ذلكَ لِمَنْ يَشاءُ ﴾ فخصص وقيّد فيما دون الشرك ، فهذا الذنب الذي هذا شأنه لا يأمن أن يقع فيه فلا يرجى له معه نجاة ، إن لم يتب منه قبل الوفاة.

قوله : (وقال الخليل عليه السلام : ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ أي ابراهيم عليه السلام خليل الرحمن . والخُلة أخص من المحبّة ولهذا اختص بها الخليلان ابراهيم ومحمد ﷺ : ﴿ واجْنُبْني وبَنيِ أنْ نعْبُدَ الأَصْنامَ ﴾ وهذا أيضاً يُخيف العبدَ فاذا كان الخليل إمام الحنفاء الذي جعله الله أُمّة واحدة وابتلاه بكلمات فأتمهن وقال : ﴿ وَإِبْراهيمَ الذي وَفَّى ﴾ وأمر بذبح ولده فامتثل أمر ربه . وكسر الأصنام واشتد نكيره على أهل الشرك . ومع ذلك يخاف أن يقع في الشرك الذي هو عبادة الأصنام لعلمه أنه لا يصرفه عنه إلا الله بهدايته وتوفيقه لا بحوله هو وقوته وما أحسن ما قال ابراهيم التيمي : ومن يأمن البلاء بعد ابراهيم ؟ فهذا أمر لا يُؤْمنُ الوقوع فيه وقد وقع فيه الأذكياء من هذه الامة بعد القرون المفضلة فاتخذت الاوثان وعبدت . فالذي خافه الخليل عليه السلام على نفسه وبنيه وقع فيه أكثر الامة بعد القرون المفضلة ، فبنت المساجد والمشاهد على القبور ، وصرفت لها العبادات بأنواعها ، واتخذ ذلك ديناً وهي أوثان وأصنام كأصنام قوم نوح واللات والعزى ومناة وأصنام العرب وغيرهم . فما أشبه ما وقع في آخر هذه الامة بحال أهل الجاهلية من مشركي العرب وغيرهم . بل وقع ما هو أعظم من الشرك في الربوبية مما يطول عده . فذكر عليه السلام السبب الذي أوجب له الخوف عليه وعلى ذريته بقوله ﴿ رَبِّ إنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثيراً مِنَ النَّاسِ ﴾ وقد ضلّت الامم بعبادة الأصنام في زمن الخليل وقبله وبعده ، فمن تدبر القرآن

وفي الحديث : « أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُم الشِّرْكُ الأَصْغَرُ » فسئل عنه ؟ فقال : « الرياء »[1].

....

عرف أحوال الخلق وما وقعوا فيه من الشرك العظيم الذي بعث الله أنبياءه ورسله بالنهي عنه ، والوعيد على فعله ، والثواب على تركه ، وقد هلك من هلك باعراضه عن القرآن وجهله بما أمر الله به ونهى عنه ، نسأل الله الثبات على الاسلام والاستقامة على ذلك الى أن نلقى الله على التوحيد إنه وليُّ ذلك والقادر عليه ﴿ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاّ بِاللهِ العلي العَظيم ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وان تغفر لهم فإنك أنت العـزيز الحكيم ﴾ ردّ أمرهم إلى الله كما رد عليه السلام . وقد بين الله تعالى فيما أنزله على نبيه محمد ﷺ حُكمه في أهل الشرك بأنه لا يغفره لهم فلا معارضة وقد بين حكمه فيهم في هذا الكتاب العزيز ﴿ الّذي لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميدٍ ﴾ .

وقوله : (وفي الحديث) لأصحابه ﷺ « أخوفُ ما أخافُ عليكم الشرك الاصغر » فسئل عنه فقال : « الرِّياء » .

وهذا الحديث رواه الامام أحمد والطبراني والبيهقي عن محمود بن لبيد ، فاذا كان يخافه ﷺ على أصحابه الذين وحدوا الله بالعبادة ، ورغبوا إليه والى ما أمرهم به من طاعته ، فهاجروا وجاهدوا من كفر به . وعرفوا ما دعاهم إليه نبيهم ، وما أنزله الله في كتـابه من الاخلاص والبراءة من الشرك ، فكيف لا يخاف من لا نسبة له اليهم في علم ولا عمل مما هو أكبر من ذلك ، وقد أخبر ﷺ عن أمته بوقوع الشرك الأكبر فيهم بقوله في حديث ثوبان الآتي ذكـره : « حَتى يَلْحَقَ قَبـائِـلُ مِنْ أُمّتي بِـالمُشْـرِكينَ ، وَحَتَّى تَعْبُـدَ فِئـامٌ مِنْ أُمَّتي الأَوْثانَ »[2] . وقد جرى ما اخبر به ﷺ ، وعمت به البلوى في أكثر الأقطار حتى اتخذوه ديناً مع ظهور الآيات المحكمات ، والأحاديث الصحيحة في النهي عنه والتخويف منه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِك بالله فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأواهُ النّارُ ﴾ . وقـال : ﴿ فاجْتَنِبوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوثانِ وَاجْتَنِبوا قولَ الزُّورِ حُنفَاء لِلهِ غَيرَ مُشْرِكينَ بِهِ ﴾ . وهذا هو

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ٥/٤٢٨ و ٤٢٩ من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه ، والبغوي في « شرح السنة » ، والطبراني في « الكبير » وهو حديث صحيح . انظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (٩٥١) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدّاً دَخَلَ النَّارَ » رواه البخاري[1] .

ولمسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ لَقِيَ اللهَ لاَ

....

تحقيق التوحيد ، كما تقدم في الباب قبله . ثم قال تعالى محذراً عباده من الشرك ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيح في مَكانٍ سَحيقٍ ﴾ . ومن لم تخوفه هذه الآيات وتزجره عن الشرك في العبادة إذا تدبرها فلا حيلة فيه .

قوله : (وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ ماتَ وَهُوَ يَدْعو لله نِداً دَخَلَ النَّارَ » ، رواه البخاري) .

وهذا الحديث فيه التحذير من الشرك أيضاً ، والتخويف منه ، والند المثل والشبيه ، فمن دعا ميتاً أو غائباً وأقبل إليه بوجهه وقلبه رغبة إليه ورهبة منه سواء سأله أم لم يسأله ، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله . ولهذا حرم الله تعالى اتخاذ الشفعاء ، وأنكره على من فعل ذلك أشد الانكار ، لكونه ينافي الاخلاص الذي هو إقبال والوجه على الله في كل ما يخافه العبد ويرجوه ويتقرب به ويدين به ، ومن المعلوم أنه إذا التفت للشفيع يسأله ، فقد أعرض بوجهه وقلبه عن الله تعالى ، وذلك ينافي الاخلاص ، ويأتي بيان ذلك في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى .

قوله : (مَنْ لَقِيَ الله لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً) ، هذا هو الاخلاص كما تقدم . وقوله : (وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ النَّارَ) . هذا هو الشرك فمن لقي الله بالشرك دخل النار قلَّ أو كثر . أما الشرك الأكبر فلا عمل معه ويوجب الخلود في النار ، كما تقدم في معنى الآيات . وأما الأصغر كيسير الرياء وقول الرجل ما شاء الله وشئت ، وقوله : ما لي إلا الله وأنت ، ونحو ذلك . فهذا لا يكفر إلا برجحان السيئات بالحسنات . قال بعض العلماء : اقتصر على نفي الشرك لاستدعائه التوحيد بالاقتضاء واستدعائه إثبات الرسالة باللزوم إذ من كذب رسل الله فقد كذب الله ، ومن كذب الله فهو مشرك . فالمراد من مات حال كونه مؤمناً بجميع ما يجب الايمان به إجمالاً في الاجمالي ، وتفصيلاً في التفصيل اهـ . .

---

(١) البخاري رقم (١٢٣٨) في الجنائز : باب من كان آخر كلامه لا إله إلا الله ، ورقم (٤٤٩٧) في تفسير سورة البقرة : باب قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ ، ورقم (٦٦٨٣) في الأيمان والنذور : باب إذا قال : والله لا أتكلم اليوم فصلى أو قرأ أو سبح أو كبر أو حمد أو هلل فهو على نيّته ، وأحمد في « المسند » ١/٤٦٢ و ٤٦٤ .

يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ النَّارَ »[1] .

فيه مسائل :

الأولى : الخوف من الشرك .

الثانية : أن الرياء من الشرك .

الثالثة : أنه من الشرك الأصغر .

الرابعة : أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين .

الخامسة : قرب الجنة والنار .

السادسة : الجمع بين قربهما في حديث واحد .

السابعة : أنه من لقيه لا يشرك به شيئاً دخل الجنة . ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار ولو كان من أعبد الناس .

الثامنة : المسألة العظيمة : سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام .

التاسعة : اعتباره بحال الأكثر ، لقوله : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ﴾ [ابراهيم : ٣٦] .

العاشرة : فيه تفسير « لا إله إلا الله » ، كما ذكره البخاري .

الحادية عشرة : فضيلة من سلم من الشرك .

* * *

٥ ـ باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . [يوسف: ١٠٨] .

....

قال أبو جعفر بن جرير: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ﴿قلْ﴾ يا محمد ﴿هذِهِ﴾ الدَّعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له

---

(١) مسلم رقم (٩٣) في الإيمان : باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات مشركاً دخل النار ، وأحمد في « المسند » ٣/٣٤٥ .

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ ، لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له : « إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ . فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ـ وفي رواية : إِلَىٰ أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ ـ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ

....

دون الآلهة والأوثان . والانتهاء الى طاعته وترك معصيته ﴿سَبيلي﴾ وطريقتي ودعوتي ﴿ أدعو إلى الله ﴾ وحده لا شريك له ﴿ عَلى بَصيرَةٍ ﴾ بذلك ويقين علم مني به ﴿ أنا وَ ﴾ يدعو إليه على بصيرة أيضاً ﴿ مَنِ اتَّبَعَني ﴾ وصدّقني وآمن بي ﴿ وسُبْحانَ الله ﴾ يقول تعالى ذكره : وقل تنزيهاً لله وتعظيماً له من أن يكون له شريك في ملكه أو معبود سواه في سلطانه ﴿ وَمَا أَنا مِنَ المُشرِكينَ ﴾ يقول : وأنا بريء من أهل الشرك به ، لست منهم ولا هم مني ا هـ .

وهذه الآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر الدَّاعون الى الله تعالى ، ومَنْ ليس منهم فليس من أتباعه الحقيقة والموافقة وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى ، قاله العلامة ابن القيم رحمه الله . وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ إني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ وما زال النبي ﷺ وأصحابه يدعون الى ما أمر الله به من الدعوة الى توحيده في العبادة والنهي عن الشرك به ويجاهدون على ذلك . والآيات في الأمر بذلك كثيرة جداً.

قوله : (وَعَنِ ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ لما بَعَثَ مُعاذاً إلى اليَمَنِ قالَ لهُ : « إنَّكَ تأتي قوماً مِنْ أَهْلِ الكِتابِ فلْيَكُنْ أَوَّلَ ما تدعوهُمْ إليْهِ شَهادَةُ أَنْ لا إلَهَ إلاَّ الله ») الحديث . وأهل الكتاب المذكورون في هذا الحديث من كان في اليمن من اليهود والنصارى إذ ذاك قوله : (فَلْيَكنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهمْ إلَيْهِ شَهادَةُ أَنْ لا إلَهَ إلاَّ الله) وكانوا يقولونها لكنهم جهلوا معناها الذي دلت عليه من اخلاص العبادة لله وحده وترك عبادة ما سواه . فكان قولهم لا إله إلا الله لا ينفعهم لجهلهم بمعنى هذه الكلمة كحال أكثر المتأخرين من هذه الأمة فإنهم كانوا يقولونها مع ما كانوا يفعلونه من الشرك بعبادة الأموات والغائبين والطواغيت والمشاهد فيأتون بما ينافيها فيثبتون ما نفته من الشرك باعتقادهم وقولهم وفعلهم ، وينفون ما أثبتته من الاخلاص كذلك ، وظنوا أن معناها القدرة على الاختراع تقليداً للمتكلمين من الأشاعرة وغيرهم وهذا هو توحيد الربوبية الذي أقرَّ به المشركون فلم يدخلهم في الاسلام كما قال تعالى :﴿ قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فيها إنْ كُنْتم تَعْلَمونَ ﴾ الى قوله : ﴿ فأنى تُسْحَرونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ ؟ أَمْ مَنْ يَملِكُ السَّمْعَ

وَالأبْصارَ؟ ﴾ الى قوله : ﴿ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأمر فَسَيَقولونَ الله فقُلْ أفلا تتَّقونَ ؟ ﴾ ، وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير . وهذا التوحيد قد أقرَّ به مشركوا الأمم وأقر به أهل الجاهلية الذين بعث فيهم محمد ﷺ فلم يدخلهم في الاسلام لأنهم قد جحدوا ما دلت عليه هذه الكلمة من توحيد الالهية وهو إخلاص العبادة ونفي الشرك والبراءة منه كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يا أَهْلَ الكِتابِ تعالوْا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْننا وَبَيْنَكُمْ أنْ لا نَعْبُدَ إلاَّ الله وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دونِ اللهِ * فإنْ تَوَلَّوْا فقولوا اشْهَدوا بِأنا مُسْلِمونَ ﴾ ، فهذا التوحيد هو أصل الاسلام وقال تعالى : ﴿ إن الحُكْمُ إلاَّ للهِ أَمَرَ أنْ لا تعْبُدوا إلاَّ إيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمونَ ﴾ ، وقال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ القَيم مِنْ قبلِ أَنْ يَأْتيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إذا دُعِيَ الله وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنوا فالحُكْمُ للهِ العَلِيِّ الكَبيرِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فاعْبُدِ الله مُخلِصاً لَهُ الـدِّينَ ، ألا للهِ الدِّينُ الخالصُ ﴾ وأمثال هذه الآيات في بيان التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب في القرآن كثير ، وسنذكر بعض ذلك إن شاء الله تعالى في هذا التعليق .

قوله : (فَلَيَكنْ أَوَّل) منصوب على أنه خبر يكن مقدم و (شَهادَةُ) اسمها مؤخر ويجوز العكس ، وفيه دليل أن توحيد العبادة هو أول واجب لأنه أساس الملة وأصل دين الإسلام . وأما قول المتكلمين ومن تبعهم : إن أول واجب معرفة الله بالنظر والاستدلال فذلك أمر فطري فطر الله عليه عباده . ولهذا كان مفتتح دعوة الرسل أممهم إلى توحيد العبادة ﴿ أنِ آعْبُدوا الله ما لكُمْ مِنْ إلهٍ غَيرُهُ ﴾ أي لا تعبدوا إلا الله ، قال تعالى : ﴿ وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسولٍ إلاَّ نوحِيَ إليْهِ أَنَّهُ لا إلَهَ إلاّ أَنَا فاعْبُدونِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قالت رُسُلُهُمْ أفي اللهِ شَكٌ ، فاطِرِ السَّمٰواتِ وَالأرْضِ ﴾ قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : هذا يحتمل شيئين : أحدهما : أفي وجوده شك ؟ فإن الـفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الاقرار به ، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة (والمعنى الثاني) : أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك وهو الخالق لجميع الموجودات فلا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنون أنها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى ا هـ .

(قلت) : وهذا الاحتمال الثاني يتضمن الأول ، وروى أبو جعفر بن جرير بسنده عن عكرمة ومجاهد وعامر أنهم قالوا : ليس أحد إلا وهو يعلم أن الله خلقه وخلق السموات والأرض فهذا إيمانهم ، وعن عكرمة أيضاً تسألهم : من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون الله ، فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره . وتقدم أنَّ لا إله إلا الله قد قُيدت بالكتاب والسنة

لِذٰلِكَ ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذٰلِكَ ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذٰلِكَ ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ

....

بقيود ثقال ، منها : العلم واليقين والاخلاص والصدق والمحبة والقبول والانقياد والكفر بما يعبد من دون الله . فإذا اجتمعت هذه القيود لمن قالها نفعته هذه الكلمة ، وإن لم تجتمع هذه لم تنفعه ، والناس متفاوتون في العلم بها والعمل ، فمنهم من ينفعه قولها ومنهم من لا ينفعه كما لا يخفى .

قوله : (فإنْ هُمْ أطاعوكَ لِذلِكَ فأَعْلَمْهُمْ أَنَّ الله ٱفْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمس صَلواتٍ في كلّ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ) ، فيه دليل على أن المشرك لا يطالب بفعل الصلاة إلا إذا أسلم بتركه الشرك باطناً وظاهراً لأن الاسلام شرط لصحة العبادة كما قال النووي رحمه الله ما معناه : إنه يدل على أن المطالبة بالفرائض في الدنيا لا تكون إلا بعد الإسلام ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا مخاطبين بها ، ويزاد في عذابهم في الآخرة ، والصحيح أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، المأمور به والمنهي عنه ، وهذا قول الأكثرين .

قوله : (فإنْ هُمْ أَطاعوكَ لِذَلِكَ فأَعْلَمُهم أَنَّ الله ٱفْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ فتُرَدُّ عَلى فُقَرائِهِمْ) .

فيه أن الزكاة لا تنفع إلا من وحّد الله وصلى الصلوات الخمس بشروطها وأركانها وواجباتها . والزكاة قرينة الصلوات في كتاب الله تعالى ويدل على هذه الجملة قوله تعالى : **﴿ وَمَا أُمِروا إلاّ لِيَعْبُدوا الله مُخلِصينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقيموا الصَّلاةَ وَيُؤْتوا الزَّكاةَ وَذٰلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ ﴾** فمن أتى بهذه الأمور أتى ببقية الأركان لقوة الداعي الى ذلك لأن ذلك يقتضي الاتيان بها لزوماً .

قال تعالى : **﴿ فإنْ تابوا وأقاموا الصَلاةَ وآتوا الزَّكاةَ فخَلُّوا سَبيلَهُمْ ﴾** . قال أنس في الآية : توبتهم خلع الأوثان وعبادتهم ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . وعن ابن مسعود مرفوعاً « أُمِرْتُ بِإِقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ وَمَنْ لَمْ يُزَكِّ فلا صَلاةَ لَهُ »[1] وقال ابن زيد :

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع» ٦٢/٣ : رواه الطبراني في «الكبير» وله اسناد صحيح ، وهو موقوف في حكم المرفوع .

الْمَظْلُومِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ »(١) أخرجاه .

و«لهما» عن سهل بن سعد رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال يوم

....

« أبى الله أَنْ تُقْبَلَ الصَّلاةُ إلاّ بالزَّكاةِ » وفيه بيان مصرف الزكاة .

قوله : (فإنْ هُمْ أطاعوكَ لِذلِكَ فَإيَّاكَ وَكَرَائمَ أَمْوالِهِمْ)(٢) تحذيراً له من أن يتجاوز ما شرعه الله ورسوله في الزكاة وهو أخذها من أوساط المال لان ذلك سبب لاخراجها بطيب نفس ونية صحيحة وكل ما زاد على المشروع فلا خير فيه وهذا أصل ينبغي التفطن له .

قوله : (وَاتَّقِ دَعْوَةَ المظْلومِ) يدل على أن العامل اذا زاد على المشروع صار ظالماً لمن أخذ ذلك منه ، ودعوة المظلوم مقبولة ليس بينها وبين الله حجاب يمنع قبولها(٣) . وفيه التحذير من الظلم مطلقاً فعلى العامل أن يتحرى العدل فيما استعمل فيه فلا يظلم بأخذ زيادة على الحق ولا يحابي بترك شيء منه ، فعليه أن يقصد العدل من الطرفين والله أعلم .

قوله : (عن سهل بن سعد) أي ابن مالك بن خالد الانصاري الخزرجي الساعدي أبو العباس صحابي شهير ، أبوه صحابي أيضاً مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المائة .

قوله : (أَنَّ رَسولَ الله ﷺ قالَ يَوْمَ خَيْبَرَ لأُعْطِيَنَّ الرَّايه غداً رَجُلاً يُحبُّ الله وَرَسولَهُ وَيُحِبُّهُ الله وَرَسولُهُ يَفْتَحُ الله عَلى يَدَيْهِ) . الحديث . فيه البشارة بالفتح وهو علم من أعلام النبوة وقد وقع كما أخبر رسول الله ﷺ .

---

(١) البخاري رقم (١٣٩٥) في الزكاة : باب وجوب الزكاة ، ورقم (١٤٥٨) : باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة ، ورقم (١٤٩٦) : باب تؤخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء ، ورقم (٢٤٤٨) في المظالم : باب الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم ، ورقم (٤٣٤٧) في المغازي : باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع ، ورقم (٧٣٧١ ـ ٧٣٧٢) في التوحيد : باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، ومسلم رقم (١٩) في الايمان : باب الدعاء الى الشهادتين وشرائع الاسلام ، والترمذي رقم (٦٢٥) في الزكاة : باب ما جاء في كراهية أخذ المال في الصدقة ، وأبو داود رقم (١٥٨٤) في الزكاة : باب الكنز ما هو؟ وزكاة الحلي ، والنسائي ٥/٥٥ في الزكاة : باب إخراج الزكاة من بلد إلي بلد . وأحمد في « المسند » ١/٢٣٣ .

(٢) قوله : « وكرائم أموالهم » الكرائم جمع كريمة قال صاحب « المطالع » : هي جامعه الكمال الممكن في حقها ، من غزارة لبن وجمال صورة أو كثرة لحم أو صوف .

(٣) قوله : « فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » أي أنها مسموعة لا ترد .

خيبر : « لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ » . فَبات الناس يدوكون ليلتهم أيُّهم يعطاها . فلما أصبحوا غدَوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها . فقال : « أَيْنَ عَلِيُّ بنُ أَبي طَالِبٍ ؟ » فقيل : هو يشتكي عينيه ، فأرسلوا إليه ، فأتي به . فبصق في عينيه ، ودعا له ، فبرأ كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية فقال : « انْفُذْ عَلَىٰ رِسْلِكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ ، وأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ فِيهِ ، فَوَاللهِ لأَن يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ »(١). يدوكون : أي يخوضون .

قوله : « يُحِبُّهُ الله ورسولهُ » قال شيخ الاسلام ليس هذا الوصف مختصاً بعليّ ولا بالأئمة فان الله ورسوله يحب كل مؤمن تقي يحب الله ورسوله لكن هذا الحديث من أحسن ما يحتج به على النواصب الذين لا يتولونه أو يكفرونه أو يفسقونه كالخوارج ، لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردتهم ، فان الخوارج تقول في عليّ مثل ذلك لكن هذا باطل ، فان الله ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم الله أنه يموت كافراً . وفيه إثبات صفة المحبة لله خلافاً للجهمية ومن أخذ عنهم ، وفيه فضيلة أخرى لعلي رضي الله عنه بما خصه به من إعطاء الراية ودعوته أهل خيبر الى الاسلام وقتالهم إذا لم يقبلوا ، وقد جرى له رضي الله عنه في قتالهم كرامات مذكورة في السير والمغازي ، وفيه مشروعية الدعوة الى الاسلام الذي أساسه شهادة أن لا إله إلا الله لقوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيرِ وَيَأْمُرونَ بِالمعْروفِ وَيَنْهَونَ عَنِ المنْكَرِ ﴾ الآية .

قوله : (فقالَ : أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبي طالِبٍ ؟ فَقيلَ : هُوَ يَشْتَكي عَيْنَيْهِ) . قال المصنف رحمه الله تعالى : فيه الايمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع ومنعها عمن سعى .

---

(١) البخاري رقم (٢٩٤٢) في الجهاد : باب دعاء النبي ﷺ إلى الاسلام والنبوة ، ورقم (٣٠٠٩) باب فضل من أسلم على يديه رجل ، ورقم (٣٧٠١) في فضائل الصحابة : باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ورقم (٤٢١٠) في المغازي : باب غزوة خيبر ، ومسلم رقم (٢٤٠٦) في فضائل الصحابة : باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأحمد في « المسند » ٥/٣٣٣ .

قوله : « حمر النعم » هي الإبل الحمر ، وهي أنفس أموال العرب ، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء ، وإنه ليس هناك أعظم منه .

قوله : (فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ) أي النبي ﷺ أرسل إليه من يأتيه به ، وفي صحيح مسلم أن الذي جاء به سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وعن إياس بن سلمة عن أبيه أن الذي جاء به سلمة رضي الله عنه .

قوله : (فَبَصقَ في عَيْنَيهِ) أي : تفل . قوله : (وَدَعَـا لَهُ فَبـرَأَ) . هو بفتح الراء والهمزة ، أي عوفي في الحال عافية كاملة ، وذلك بدعوة النبي ﷺ كما في الحديث فدعا فاستجيب له عليه السلام ، وفيه علم من أعلام النبوة أيضاً، وذلك كله بالله ومن الله وحده ، وهو الذي يملك الضر والنفع والعطاء والمنع ، لا إله غيره ولا رب سواه .

قوله : « أُنْفُذْ » هو بضم الفاء والهمزة . قوله : (عَلى رِسْلِكَ) أمره أن يسير إليهم بأدب وأناة (حَتى تَنزِلَ بِساحَتِهِمْ) الساحة هي ما قرب من حصونهم .

قوله : (ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الإِسْلامِ) هذا هو شاهد الترجمة وهكذا ينبغي لأهل الاسلام أن يكون قصدهم بجهادهم هداية الخلق الى الاسلام والدخول فيه ، وينبغي لولاة الأمر أن يكون هذا هو معتمدهم ومرادهم ونيتهم ، قال شيخ الاسلام : دين الاسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فأصله في القلب ، والخضوع لله وحده بعبادته دون ما سواه ، فمن عبده وحده وعبد معه إلهاً آخر لم يكن مسلماً ، ومن استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً ، وأما الايمان فأصله تصديق القلب وإقراره ومعرفته .

وقوله : (وَأَخْبِرْهُمْ بِما يَجبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تعالى فيهِ) ، مما أمر به وشرعه من حقوق لا إله إلا الله ، وهذا يدل على أن الاعمال من الايمان خلافاً للأشاعرة والمرجئة في قولهم : إنه القول وزعموا أن الايمان هو مجرد التصديق وتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة ، لأن الدين ما أمر الله به فعلاً ؛ وما نهى عنه تركاً ، وفيه الرد على المشركين المستدلين على الشرك بكرامات الأولياء لدلالتها على فضلهم ، وأمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه وقع له من الكرامات ما لم يقع لغيره ، وقد خد الأخاديد وأضرمها بالنار ، وقذف فيها من غلا فيه أو اعتقد فيه بعض ما كان يعتقده هؤلاء المشركون مع أهل البيت وغيرهم ، فصار من أشد الصحابة رضي الله عنه بعداً عن الشرك وشدة على من أشرك حتى أحرقهم بالنار(١) .

وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع ما أعطى من الكرامات صـار من أبعد الصحابة عن الشرك وذرائعه . وهؤلاء أفضل أهل الكرامات ، فما زادهم ذلك إلا قوة في

---

(١) انظر « الفتح » ١٢/٢٦٧ ـ ٢٧٣ في استتابة المرتدين : باب حكم المرتد والمرتدة .

فيه مسائل :

الأولى : أن الدعوة إلى الله طريق من اتبعه ﷺ .

....

التوحيد ، وشدة على أهل الشرك والتنديد ، كما جرى لعمر رضي الله عنه في الاستسقاء بالعباس[1] وتعمية قبر دانيال ، لما وجده الصحابة في بيت مال الهرمزان ، كما أن المعجزات إنما زادت الرسل قوة في الدعوة الى التوحيد وشدة على أهل الشرك والانكار عليهم وجهادهم ، لكن قد يقع من الأحوال الشيطانية لمن استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر ربه ما قد يلتبس على الجهال الذين تلبسوا بالشرك ويظنون أن ذلك كرامات وهي من مكر الشيطان وإغوائه لمن لم يعرف الحق من الباطل ، وقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالذي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ ﴾ . فكذلك يجب على كل أحد أن يطلب الحق من القرآن بتدبره ، فانه الصراط المستقيم ولا يلتفت الى ما زخرفته الشياطين ، كما اغتر به من اغتر في هذه الأمة ومن قبلهم .

قوله : (وَأَخْبِرْهُمْ بِما يَجبُ عَلَيهِمْ مِنْ حَقِّ آللهِ تعالى) فيهِ من أداء الفرائض على الوجه الشرعي والنهي عن تعدّي الحدود التي حدّها الله بين الحلال والحرام وذلك من الايمان ، فالحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله والدين ما شرعه الله ، فاذا أخذ بالاسلام الذي هو التوحيد والأخلاص ، وأحل ما أحله الله تعالى وحرم ما حرمه الله تعالى ، وأمر بذلك وجاهد عليه ، فقد قام بما وجب وبالله التوفيق .

قوله : (فَوَاللهِ) فيه جواز الحلف على ما أفتى به . قوله : (لأَنْ يَهْدِيَ آللهُ بِكَ رَجُلاً واحِداً خَيرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ) حمر بسكون الميم : الابل الحمر وهي أَنْفَسُ الأموال عند العرب ، وفيه الترغيب في الدعوة الى الله وطلب الهداية لمن أراد الله هدايته ليحصل للداعي الى الحق هذه الفضيلة العظيمة بهداية من اهتدى فلا ينبغي التفريط في هذه المطالب العالية وبالله التوفيق .

قوله : (يدُوكونَ) أي يخوضون: بيّن المصنف رحمه الله تعالى معنى هذه اللفظة بأن المراد خوض السامعين في هذا الخير وتمني حصوله .

---

(١) البخاري رقم (١٠١٠) في الاستسقاء : باب سؤال الناس الإمام إذا قحطوا ، ورقم (٣٧١٠) في فضائل الصحابة : باب ذكر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، من حديث أنس رضي الله عنه .

الثانية : التنبيه على الإخلاص . لأن كثيراً لو دعا إل الحق فهو يدعو إلى نفسه .

الثالثة : أن البصيرة من الفرائض .

الرابعة : من دلائل حسن التوحيد : كونه تنزيهاً لله تعالى عن المسبَّة .

الخامسة : أن من قبح الشرك كونه مسبَّة لله .

السادسة : ـ وهي من أهمها ـ إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك .

السابعة : كون التوحيد أول واجب .

الثامنة : أن يبدأ به قبل كل شيء ، حتى الصلاة .

التاسعة : أن معنى : «أن يوحدوا الله» معنى شهادة : أن لا إله إلا الله .

العاشرة : أن الانسان قد يكون من أهل الكتاب ، وهو لا يعرفها ، أو يعرفها ولا يعمل بها .

الحادية عشرة : التنبيه على التعليم بالتدريج .

الثانية عشرة : البداءة بالأهم فالأهم .

الثالثة عشرة : مصرف الزكاة .

الرابعة عشرة : كشف العالم الشبهة عن المتعلم .

الخامسة عشرة : النهي عن كرائم الأموال .

السادسة عشرة : اتقاء دعوة المظلوم .

السابعة عشرة : الاخبار بأنها لا تحجب .

الثامنة عشرة : من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء .

التاسعة عشرة : قوله : « لأعطينَّ الراية » الخ . علم من أعلام النبوة .

العشرون : تفله في عينيه علم من أعلامها أيضاً .

الحادية والعشرون : فضيلة علي رضي الله عنه .

الثانية والعشرون : فضل الصحابة في دوكهم وشغلهم تلك الليلة عن بشارة الفتح .

الثالثة والعشرون : الايمان بالقدر ، لحصولها لمن لم يسعَ لها ومنعها عمن سعى .

الرابعة والعشرون : الأدب في قوله : « على رسلك » .

الخامسة والعشرون : الدعوة إلى الاسلام قبل القتال .

السادسة والعشرون : أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا .

السابعة والعشرون : الدعوة بالحكمة ، لقوله : « أخبرهم بما يجب عليهم » .

الثامنة والعشرون : المعرفة بحق الله تعالى في الاسلام .

التاسعة والعشرون : ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد .

الثلاثون : الحلف على الفتيا .

* * *

٦ ـ باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُم أَقْرَبُ ﴾ الآية [الاسراء: ٥٧].

باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

من عطف الدال على المدلول لأن التوحيد هو معنى هذه الكلمة العظيمة وذلك يتبين بما ساقه من الآيات والحديث لما فيها من زيادة البيان وكشف ما أشكل من ذلك ، واقامة الحجة على من غالط في معنى (لا إله إلا الله) من أهل الجهل والالحاد .

قوله : (وقول اللهِ تعالى : ﴿ أُولئِكَ الَّذينَ يَدْعونَ يَبْتَغونَ الى رَبِّهِمُ الوَسيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾) . أي أولئك الذين يدعوهم أهل الشرك ممن لا يملك كشف الضر ولا تحويله من الملائكة والأنبياء والصالحين كالمسيح وأمه وَالعُزَيْر ، فهؤلاء دينهم التوحيد وهو بخلاف من دعاهم من دون الله ووصفهم بقوله : ﴿ يَبْتَغونَ إِلى رَبِّهِمُ الوَسيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ فيطلبون القرب من الله بالاخلاص له وطاعته فيما أمر ، وترك ما نهاهم عنه . وأعظم القرب التوحيد

الذي بعث الله به أنبياءه ورسله وأوجب عليهم العمل به والدعوة إليه ، وهذا الذي يقربهم الى الله أي الى عفوه ورضاه ووصف ذلك بقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافونَ عَذَابَهُ﴾ فلا يرجون أحداً سواه ولا يخافون غيره وذلك هو توحيده لأن ذلك يمنعهم من الشرك ويوجب لهم الطمع في رحمة الله والهرب من عقابه ، والداعي لهم والحالة هذه قد عكس الامر وطلب منهم ما كانوا ينكرون من الشرك بالله في دعائهم لمن كانوا يدعونه من دون الله ففيه معنى قوله : ﴿ وَيَوْمَ آلقِيامَةِ يَكْفُرونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَإذا حُشِرَ النَّاسُ كانـوا لهمْ أعْداءً وَكانوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرينَ ﴾ وفيه الرد على من ادعى أن شرك المشركين إنما هو بعبادة الأصنام ، وتبين بهذه الآية أن الله تعالى انكر على من دعا معه غيره من الانبياء والصالحين والملائكة ومن دونهم ، وأن دعاء الاموات والغائبين لجلب نفع أو دفع ضر من الشرك الاكبر الذي لا يغفره الله ، وأن ذلك ينافي ما دلت عليه كلمة الاخلاص ، فتدبر هذه الآية العظيمة يتبيّن لك التوحيد ، وما ينافيه من الشرك والتنديد ، فانها نزلت فيمن يعبد الملائكة والمسيح وأمه والعُزَيْرَ فهم المعنيّون بقوله : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا الَّذينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دونِهِ فلا يَمْلِكونَ كَشْفَ الضرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحويلاً ﴾ ، ثم بين تعالى أن هؤلاء المشركين قد خالفوا من كانوا يدعونه في دينه فقال : ﴿ أُولئِـكَ الَّذين يَـدْعُونَ يَبْتَغـونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْـرَبُ ﴾ وقدّم المعمول لانه يفيد الحصر ، يعني يبتغون الى ربهم الوسيلة لا الى غيره ، وأعظم الوسائل الى الله تعالى التوحيد الذي بعث الله به أنبياءه ورسله وخلق الخلق لأجله . ومن التوسل إليه التوسل بأسمائه وصفاته كما قال تعالى : ﴿ وللهِ الأسْماءُ الحُسْنى فَادْعوهُ بِها ﴾ وكما ورد في الاذكار المأثورة من التوسل بها في الدعوات كقوله : « اللهم إني أسألك بأنّ لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والارض ياذا الجلال والاكرام »[1] وقوله : « اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »[2] ، وغير ذلك من الاعمال الصالحة الخالصة التي لم يَشُبْها شرك ، فالتوسل الى الله هو بما يحبه ويرضاه لا بما يكرهه ويأباه من الشرك الذي نزّه نفسه عنه بقوله: ﴿سُبْحانَ آللهِ عَمَّا يُشْرِكونَ﴾ وقوله: ﴿سُبْحانَ آللهِ وَمَا أَنا مِنَ المشْرِكينَ﴾ وقوله في الانكار على من اتخذ

---

(١) ابو داود رقم (١٤٩٥) في الصلاة : باب الدعاء ، والترمذي رقم (٣٥٣٨) في الدعوات : باب رقم ١٠٩ والنسائي ٥٢/٣ في السهو : باب الدعاء بعد الذكر ، وأحمد ١٢٠/٣ ، وابن ماجه رقم (٣٨٥٨) ، من حديث أنس رضي الله عنه ، وصححه ابن حبان رقم (٢٣٨٢) « موارد » والحاكم ٥٠٣/١ و ٥٠٤ ووافقه الذهبي وهو كما قالا .

(٢) أبو داود رقم (١٤٩٢) في الصلاة : باب الدعاء ، والترمذي رقم (٢٤٧١) في الدعوات : باب ما جاء

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ الآية [الزخرف: ٢٦-٢٧].

الشفعاء: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بما لا يَعْلَمُ في السَّمٰواتِ وَلا في الأَرْضِ سُبْحانَهُ وتعالى عَما يُشْرِكونَ﴾وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير ، يأمر عباده بإخلاص العبادة له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ويعظم عقوبته كما جرى على الأمم المكذبة للرسل فيما جاؤهم به من التوحيد والنهي عن الشرك ، فأوقع الله تعالى بهم ما أوقع كقوم نوح وعاد وثمود ونحوهم فانهم عصوا الرسل فيما أمروهم به من التوحيد وتمسكوا بالشرك وقالوا لنوح: ﴿مَا نراكَ اتبَعَكَ إلا الذينَ هُمْ أَراذِلنا بادِيَ الرَّأْيِ ﴾ وقالوا لِهود: ﴿مَا جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحنُ بتاركي آلِهتِنا عَنْ قوْلِكَ وما نَحنُ لَكَ بِمؤْمِنين﴾ الآيات وقالوا لصالح : ﴿قدْ كُنْتَ فينَا مَرْجُواً قبْلَ هَذا أَتنْهانا أَنْ نعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا ﴾ وقالوا لشعيب: ﴿أَصَلاتُكَ تأْمُرْكَ نَترُكَ مَا يَعْبُدُ آباؤُنا﴾ فتدبر ما قص الله تعالى في كتابه مما دعت إليه الرسل وما أوقع بمن عصاهم فان الله تعالى أقام به الحجة على كل مشرك الى يوم القيامة ، وأما ماورد في معنى الآية عن ابن مسعود قال : « كان ناس من الانس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم » .

(قلت) : وهذا لا يخالف ما تقدم لأن هذه الآية حجة على كل من دعا مع الله وليًّا من الأولين والآخرين كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في هذه الآية ، وهذه الاقوال كلها حق فانه الآية تعم من كان معبوده عابداً لله سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر .

وقوله : ﴿ وَإِذْ قالَ إِبْراهيمُ لأبيهِ وَقَوْمِهِ إنني بَراءٌ مِما تعْبُدونَ إلاّ الذي فطَرني فإنَّهُ سَيَهْدينِ ﴾ الآيات . الكلمة هي لا إله إلا الله باجماع أهل العلم وقد عبر عنها الخليل عليه السلام بمعناها الذي اريد به فعبر عن المنفى بها بقوله : ﴿ إنَّني بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدونَ ﴾ وعبر عما أثبتته بقوله : ﴿ إلاّ الذي فَطَرني ﴾ فقصر العبادة على الله وحده ونفاها عن كل ما سواه ببراءته من ذلك، فما أحسن التفسير لهذه الكلمة وما أعظمه. قال العماد ابن كثير في قوله

= في جامع الدعوات عن رسول الله ﷺ ، وابن ماجه رقم (٣٨٥٧) ، وأحمد في « المسند » ٣٦٠/٥ وهو حديث صحيح ، وصححه ابن حبان رقم (٢٣٨٣) والحاكم ٥٠٤/١ ووافقه الذهبي ، من حديث بريدة رضي الله عنه ، ولفظه أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول : « اللهم إني أسألك . . . » الحديث .

وقوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أَرْبَاباً مِن دُونِ اللهِ ﴾ الآية [التوبة: ٣١].

تعالى : ﴿ وَجَعَلَها كلِمةً باقِيةً في عَقِبِهِ ﴾ : أي هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان ، وهي لا إله إلا الله جعلهما في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية ابراهيم عليه السلام ﴿ لعَلَّهُمْ يَرْجِعونَ ﴾ أي إليها . قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله : ﴿ وَجَعَلَها كلِمَةً باقيَةً في عَقِبِهِ ﴾ يعني لا إله إلا الله لا يزال في ذريته من يقولها وقوله تعالى : ﴿ اتَّخذوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دونِ آللهِ ﴾ ، الآية . الأحبار : هم العلماء . والرهبان : هم العباد وهذه الآية قد فسرها رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم وذلك أنه لما جاء مسلماً دخل على رسول الله ﷺ فقرأ عليه هذه الآية . قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم قال : « بَلى إِنَّهُمْ حرَّموا عَلَيْهِمُ الحَلالَ وَحَلَّلوا لهمُ الحرامَ فاتَّبَعوهُمْ فذٰلِكَ عِبادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ » رواه أحمد والترمذي وحسّنه ، وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني من طرق[1]، قال السدي: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولهذا قال تعالى : ﴿ وَما أُمِروا إِلَّا لِيَعْبُدوا إِلٰهاً واحِداً لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكونَ ﴾ ، فصار ذلك عبادة لهم وصاروا به لهم أربابا من دون الله وقد قال تعالى : ﴿ وَلا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذوا الملائِكَةَ والنَّبِيِّينَ أَرْباباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمونَ ﴾ .

قوله : ﴿ وَالمسيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ أي اتخذوه ربًّا بعبادتهم له من دون الله وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قالَ اللهُ يا عيسى ابنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذوني وَأُمِّيَ إِلٰهينِ مِنْ دونِ آللهِ قالَ سُبْحانَكَ ﴾ الى قوله : ﴿ ما قُلْتُ لهمْ إِلَّا ما أَمَرْتَني بِهِ أَنِ آعْبُدوا آللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهيداً ما دُمْتُ فيهِمْ فلمَّا تَوَفَّيْتَني كُنْتَ أَنْتَ الرَّقيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلى كل شيءٍ

---

(١) رواه الترمذي رقم (٣٠٩٤) في التفسير : باب تفسير سورة التوبة ، وابن جرير الطبري ١٤/ ٢١٠ رقم (١٦٦٣٢) و(١٦٦٣٣) من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم ، فقال : « بلى ، انهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك بمعادتهم اياهم » ، وهو حديث حسن بشواهده ، ذكره السيوطي في « الدر المنثور » ٣/ ٢٣٠ ، وزاد نسبته لابن سعد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في « سننه » ، وهكذا ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ ، انهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا ، وانظر الطبري رقم (١٦٦٣٤) عن حذيفة رضي الله عنه .

وقوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ ﴾ الآية [البقرة: ١٦٥].

شَهِيدٌ ﴾ فمن تدبر هذه الآيات تبين له معنى لا إله إلا الله وتبين له التوحيد الذي جحده أكثر من يدعي العلم في هذه القرون وما قبلها من متأخري هذه الأمة وقد عمت البلوى بالجهل به بعد القرون الثلاثة لما وقع الغلو في قبور أهل البيت وغيرهم وبنيت عليها المساجد ، وبنيت لهم المشاهد ، فاتسع الامر وعظمت الفتنة في الشرك المنافي للتوحيد لما حدث الغلوّ في الأموات وتعظيمهم بالعبادة ، فبهذه الامور التي وقع فيها الاكثر عاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، والبدعة سنة والسنة بدعة ، نشأ على هذا الصغير ، وهرم عليه الكبير وقد قال ﷺ : « بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيباً وَسَيَعودُ غَرِيباً كَما بَدَأَ فَطوبى للغُرَباءِ الَّذينَ يَصْلحونَ إذا فَسَدَ النَّاسُ » وفي رواية « يُصْلِحونَ ما أَفْسَدَ النَّاسُ »(١) .

قوله ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دونِ اللهِ أَنْداداً يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾ الآية .

الأنداد : الأمثال والنُظراء كما قال العماد بن كثير وغيره من المفسرين . فكل من صرف من العبادة شيئاً لغير الله رغبة إليه أو رهبة منه فقد اتخذه ندًّا لله ، لانه أشرك مع الله فيما لا يستحقه غيره ، قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبه أي مع الله بعبادته له ، وتوحيد الحب لا يبقي في قلبه بقية حب حتى يبذلها له ، فهذا الحب وإن سمي عشقاً فهو في غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينة ، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن لا تكون محبته لغير الله فلا يحب إلا الله كما في الحديث الصحيح « ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ » الحديث(٢) . ومحبة رسوله هي من محبته ومحبة المرء إن كانت لله فهي من محبته وإن كانت لغير الله فهي منقصة لمحبة الله مضعفة لها ، ويصدق هذه المحبة بأن تكون كراهته لأبغض الاشياء الى محبوبه ، وهو

(١) أخرجه أبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن» (١/٢٥)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ومن طريق آخر أخرجه الآجري في «الغرباء» (١/٢)، والترمذي (٢٦٣٠) وله شاهدان من حديث سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وهو حديث صحيح. انظر «الأحاديث الصحيحة» رقم (١٢٧٣).

(٢) رواه البخاري رقم (١٦) في الإيمان : باب حلاوة الإيمان ورقم (٢١) في الإيمان : باب من كره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار ورقم (٦٠٤١) في الأدب : باب الحب في الله ، ورقم (٦٩٤١) في الإكراه : باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ، ومسلم رقم (٤٣) في الإيمان : باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الايمان ، والترمذي رقم (٢٩٢٦) في الإيمان : باب رقم (١٠)، والنسائي ٨/٩٦ في الإيمان باب حلاوة الايمان ، وابن ماجه رقم (٤٠٣٣) في =

وفي « الصحيح » عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ قَالَ : لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَكَفَرَ بِمَا يَعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ »(١) ،

الكفر ، بمنزلة كراهته لالقائه في النار أو أشد ، ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة ، فان الانسان لا يقدم على محبة نفسه شيئاً فاذا قدم محبة الايمان بالله على نفسه بحيث لو خُيِّر بين الكفر وإلقائه في النار لاختار أن يلقى في النار ولا يكفر كان أحب إليه من نفسه ، وهذه المحبة هي فوق ما يجده العشاق من محبة محبوبهم بل لا نظير لهذه المحبة كما لا مثل لمن تعلقت به ، وهي محبة تقضي تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد ، وتقتضي كمال الذل والخضوع والتعظيم والاجلال والطاعة الانقياد ظاهراً وباطناً ، وهذا لا نظير له في محبة مخلوق ولو كان المخلوق من كان ، ولهذا من شرك بين الله وبين غيره في المحبة الخاصة كان شركاً لا يغفره الله . قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دونِ آللهِ أَنْداداً يُحبُّونَهُم كَحُبِّ اللهِ ، وَالذينَ آمَنوا أَشَدُّ حُبًّا لله ﴾ الآية . والصحيح أن معنى الآية أنَّ الذين آمنوا أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلاً كما لا يماثل محبوبهم غيره وكل أذى في محبة غيره فهو نعيم في محبته وكل مكروه في محبة غيره فهو قرة عين في محبته . انتهى .

قوله (في الصحيح) أي صحيح مسلم : (عن أبي مالكٍ الأشجَعيِّ عن أبيه عن النبي ﷺ) فذكره ، وأبو مالك اسمهُ سَعدُ بنُ طارق كوفيٌّ ثِقَةٌ مات في حدود الأربعين .

قوله : (مَنْ قالَ لَا إِلَهَ إِلاّ الله وَكَفَرَ بِما يُعْبَدُ مِنْ دونِ اللهِ) . اعلم أن النبي ﷺ علق عصمة المال والدم بأمرين في هذا الحديث . (الأول) قول لا إله إلا الله عن علم ويقين ، كما هو قيد في قولها في غير ما حديث (والثاني) الكفر بما يعبد من دون الله ، لكن ذكر في هذا الحديث (وكفر) تأكيداً لما دلت عليه ، لأن المقام عظيم يقتضي التأكيد .

= الفتن : باب الصبر على البلاء ، وأحمد في « المسند » ١٠٣/٣ و١٧٢ و١٧٤ و٢٠٧ و٢٣٠ و٢٤٨ و٢٧٥ و٢٧٨ و٢٨٨ من حديث أنس رضي الله عنه .

قوله : « وجد بهن حلاوة الإيمان » قال العلماء معنى حلاوة الإيمان : استلذاذ الطاعات وتحمل المشقات في رضى الله عز وجل ورسوله ﷺ وإيثار ذلك على عرض الدنيا ، ومحبة العبد ربه سبحانه وتعالى ، بفضل طاعاته وترك مخالفته ، وكذلك محبة رسول الله ﷺ .

(١) رواه مسلم رقم (٢٣) في الإيمان : باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا اله الا الله محمد رسول الله ، وأحمد في « المسند » ٤٧٢/٣ من حديث طارق بن أشيم الأشجعي والد أبي مالك رضي الله عنهما .

وشرح هذه الترجمة ، ما بعدها من الأبواب .

فيه أكبر المسائل وأهمها ، وهي تفسير التوحيد ، وتفسير الشهادة ، وبيَّنها بأمور واضحة .

منها آية الإسراء بيَّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين ، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر .

قوله : (حَرُمَ مالُهُ وَدَمُهُ وَحِسابُهُ عَلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ) ، فيه دليل على أنه لا يحرم ماله ودمه إلا إذا قال : لا إله إلا الله ، وكفر بما يعبد من دون الله ، فان قالها ولم يكفر بما يعبد من دون الله ، فدمه وماله حلال لكونه لم ينكر الشرك ويكفر به ، ولم ينفه كما نفته لآ إله إلا الله ، فتأمل هذا الموضع فانه عظيم النفع .

قال شيخنا : وهذا من أعظم ما بين معنى لا إله الا الله ، فانه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الاقرار بذلك . بل ولا كونه لا يدعو الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم دمه وماله حتى يضيف الى ذلك الكفرَ بما يعبد من دون الله ، فان شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه ، فيا لها من مسألة ما أجلها ، ويا له من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع ، انتهى .

قوله : (وَحِسابُهُ عَلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ) ، أي الله تعالى هو الذي يتولى حسابه ، فان كان صادقاً جازاه بجنات النعيم ، وإن كان منافقاً عذبه العذاب الأليم ، وأما في الدنيا فالحكم على الظاهر .

قوله : (وشرح هذه الترجمة وما بعدها من الابواب) ، فقد ذكر فيها رحمه الله تعالى ما يبين التوحيد وما ينافيه ، وما يقرب منه ، وما يوصل اليه من الوسائل ، وبيان ما كان عليه السلف من بعدهم عن الشرك في العبادة ، وشدة إنكارهم له وجهادهم على ذلك ، وقد جمع هذا الكتاب على اختصاره من بيان التوحيد ما لا يعذر عن معرفته وطلبه باقبال وتدبر ، وكذلك الرد على أهل الأهواء جميعهم ، فمن حفظه واستحضره وجد ذلك واستغنى به عن غيره في الرد على كل مبتدع فتدبره تجد ذلك بيناً ، وسيأتي التنبيه على ذلك ان شاء الله تعالى .

ومنها آية براءة ، بيَّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، وبيَّن أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهاً واحداً ، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه : طاعة العلماء في المعصية ، لا دعاؤهم إياهم.

ومنها قول الخليل عليه السلام للكفار : ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧] ، فاستثنى من المعبودين ربه ، وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة : هي تفسير شهادة أن لا إلـه إلا الله ، فقال: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٨].

ومنها آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم : ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٧] ، ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله ، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً ، ولم يدخلهم في الاسلام ، فكيف بمن أحب الندَّ حباً أكبر من حب الله ؟! فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ، ولم يحب الله ؟!

ومنها قوله ﷺ : « مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ » وهذا من أعظم ما يبين معنى « لا إله إلا الله » فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الاقرار بذلك ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك ، الكفر بما يعبد من دون الله ، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه . فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلّها ، ! ويا له من بيان ما أوضحه ، وحجة ما أقطعها للمنازع.

٧ ـ باب من الشرك :
لبس الحلقة والخيط ونحوهما الرفع البلاء أو دفعه

وقول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِي اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ؟ ﴾ الآية [الزمر: ٣٨].

باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء ودفعه

أي لرفعه إذا نزل ودفعه قبل أن ينزل ، يعني إذا كان هذا هو القصد فتعلق قلبه في دفع ضر مما قد نزل ومما لم ينزل قد صرحت الأحاديث بأن هذا من الشرك بالله.

قوله : وقول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَرأَيْتُمْ ما تَدْعونَ مِنْ دونِ اللهِ إِنْ أرادَني آللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ ، أَوْ أَرادَني بِرَحْمةٍ هَلْ هُنَّ مُمسِكاتُ رَحْمتِهِ ؟ قُلْ حَسْبِيَ آللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ آلمُتَوكِّلونَ ﴾ . قال مقاتل : فسألهم النبي ﷺ فسكتوا لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها.

(قلت) : فإذا كانت آلهتهم التي يدعون من دون الله لا قدرة لها على كشف ضر أراده الله بعبده ، أو تمسك رحمة أنزلها على عبده فيلزمهم بذلك أن يكون الله تعالى هو معبودهم وحده لزوماً لا محيد لهم عنه . وذكر تعالى مثل هذا السؤال عن خليله ابراهيم لمن حاجّه في الله فقال : ﴿ أَنا أُحْيي وَأُميتُ ، قالَ ابْراهيمُ فإِنَّ آللهَ يَأْتي بِالشَّمْسِ مِنَ آلمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ آلمغْرِبِ فَبُهِتَ الّذي كَفَرَ وَآللهُ لا يَهْدي القَوْمَ الظّالمينَ ﴾ فأقام تعالى الحجة على المشركين بما يبطل شركهم بالله وتسويتهم غيره به في العبادة بضرب الأمثال وغير ذلك ، وهذا في القرآن كثير كقوله تعالى : ﴿ يا أَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعوا لهُ إِنَّ الذينَ تَدْعونَ مِنْ دونِ آللهِ لَنْ يَخلُقُوا ذُباباً وَلو آجْتَمَعوا لهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمطْلوبُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الّذينَ آتَّخَذوا مِنْ دونِ آللهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ العَنْكَبوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً * وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبوتِ لوْ كانوا يَعْلمونَ * إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يَدْعونَ مِنْ دونهِ مِنْ شَيءٍ وَهُوَ العَزيزُ الحَكيمُ * وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلّا العالِمونَ ﴾ وقال : ﴿ وَالّذينَ يَدْعونَ مِنْ دونِ اللهِ لا يَخْلُقونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخلَقونَ * أَمْواتٌ غيرُ أَحْياءٍ وَما يَشْعُرونَ أَيَّانَ يُبْعَثونَ ﴾.

عن عمران بن حصين رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حَلَقَةٌ من صُفْرٍ ، فقال : « مَا هٰذَا ؟ » قال : من الواهنة . فقال : « انْزعْهَا فإنَّهَا لاَ تَزِيدكَ إلَّا وَهْناً ، فإنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ ، مَا أَفْلَحْتَ أَبداً »(١) رواه أحمد بسند لا بأس به .

ذكر العماد ابن كثير رحمه الله تعالى في هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم عن قيس بن الحجاج عن حنش الصنعاني عن ابن عباس مرفوعاً « احْفظِ آللهِ يَحفَظْكَ ، احْفَظِ آللهِ تَجِدْهُ تُجاهَكَ ، تَعرَّفْ إلى آللهِ في آلرَّخاءِ يَعْرِفْكَ في الشِّدَّةِ ، إذا سَأَلتَ فاسْأَلِ آللهِ ، وَإذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ باللهِ ، وَاعْلَم أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعوا عَلى أَن يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَضُرُّوكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعوا عَلى أَنْ يَنْفَعوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ آللهُ لَكَ لَمْ يَنْفَعوكَ ، جَفَّت الصُّحُفُ وَرُفِعَتِ الأَقلامُ ، وَاعْملْ للهِ بِالشكْرِ في اليَقينِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ في الصَّبرِ عَلى ما تَكْرَهُ خَيراً كَثيراً ، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبرِ وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً »(٢) .

قوله : (عمران بن حصين) أي ابن عبيد بن خلف الخزاعي أبو نجيد بنون وجيم مصغر ، صحابي ابن صحابي أسلم عام خيبر ومات سنة اثنتين وخمسين بالبصرة .

قوله : (رَأَى رَجُلاً) في رواية الحاكم : « دخلتُ عَلى رَسولِ اللهِ ﷺ وَفي عَضُدي حَلْقةُ صُفْرٍ فَقالَ مَا هٰذِهِ ؟ » الحديث ، فالمبهم في رواية أحمد هو عمران راوي الحديث .

قوله : (مَا هٰذِهِ ؟) الظاهر أنه للانكار عليه .

قوله : (مِنَ الواهِنَةِ) قال أبو السعادات : الواهنة عرق يأخذ في المنكب وفي اليد كلها فيرقى منها ، وقيل هو مرض يأخذ في العضد وهي تأخذ الرجال دون النساء وإنما نهاه عنها لكونه يظن أنها تمنع عنه هذا الداء أو ترفعه ، فأمره ﷺ بنزعها لذلك وأخبر أنها لا تزيده

---

(١) أحمد في « المسند » ٤/٤٤٥ ، وابن ماجه (٣٥٣١) في الطب : باب تعليق التمائم ، وصححه ابن حبان (١٤١٠) (١٤١١) « موارد » والحاكم ، ٤/٢١٦ ووافقه الذهبي .

(٢) الترمذي رقم (٢٥١٨) في صفة القيامة : باب رقم (٦٠) وأحمد في « المسند » ١/٢٩٣ و ٣٠٣ و ٣٠٧ ، والحاكم ٣/٥٤١ و ٥٤٢ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وهو حديث صحيح بمجموع طرقه . انظر « جامع العلوم والحكم » لابن رجب الحنبلي ص ١٦١ ـ ١٧٤ ، و « المقاصد الحسنة » للسخاوي في حديث « لن يغلب عسر يسرين » .

إلا وهناً ، فإن المشرك يعامل بنقيض قصده لأنه علق قلبه بما لا ينفعه ولا يدفع عنه ، فإذا كان هذا بحلقة صفر فما الظن بما هو أطمُّ وأعظم كما وقع من عبادة القبور والمشاهد والطواغيت وغيرها كما لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل ، قال المصنف رحمه الله تعالى : فيه شاهد لكلام بعض الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر ، وأنه لم يعذر بالجهالة . لقوله : (فإنَّكَ لَوْ مُتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَداً) والفلاح هو الفوز والظفر والسعادة .

قوله : (رواه أحمد بسندٍ لا بأس به) هو الامام أحمد بن محمد بن هلال بن أسد الشيباني أبو عبد الله المروزي ثم البغدادي إمام أهل عصره وأعلمهم بالفقه والحديث وأشدهم ورعاً ، وهو الذي يقول فيه بعض أهل السنة : عن الدنيا ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه ، أتته الدنيا فأباها ، والشبه فنفاها . روي عن الشافعي وزيد بن هارون وعبد الرحمن بن مهدي ويحيى القطان وابن عيينة وعبد الرزاق وخلق لا يحصون ، مات سنة احدى وأربعين ومائتين وله سبع وسبعون سنة رحمه الله تعالى .

قوله : وله عن عقبة بن عامر مرفوعاً : « مَنْ عَلَّقَ تميمَةً فلا أتمَّ الله لهُ ، وَمَنْ عَلَّقَ وَدَعَةً فلا وَدَعَ الله لهُ » وفي رواية « مَنْ عَلَّقَ تميمَةً فقَدْ أَشْرَكَ » .

عقبة بن عامر صحابي مشهور فقيه فاضل ، ولي إمارة مصر لمعاوية ثلاث سنين ومات قريباً من الستين.

وهذا الحديث فيه التصريح بأن تعليق التمائم شرك لما يقصده من علقها لدفع ما يضره أو جلب ما ينفعه ، وهذا أيضاً ينافي كمال الاخلاص الذي هو معنى لا إله إلا الله ، لأن المخلص لا يلتفت قلبه لطلب نفع أو دفع ضر من سوى الله ، كما تقدم في قوله : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ ديناً مِمنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحسِنٌ﴾ فكمال التوحيد لا يحصل إلا بترك ذلك، وإن كان من الشرك الأصغر فهو عظيم ، فإذا كان قد خفي على بعض الصحابة رضي الله عنهم في عهد النبوة فكيف لا يخفى على من هو دونهم في العلم والايمان بمراتب بعدما حدث من البدع والشرك ؟ كما في الأحاديث الصحيحة ، وتقدمت الاشارة الى ذلك . وهذا مما يبين معنى لا إله إلا الله أيضاً ، فإنها نفت كل الشرك قليله وكثيره ، كما قال تعالى :

لَـهُ ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً فَـلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ » وفي روايـة : « مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَـدْ أَشْرَكَ »(١) .

ولابن أبي حاتم عن حذيفة ، أنه رأى رجـلاً في يده خيط من الحُمَّى فقـطعـه ، وتـلا قـولـه : ﴿ وَمَـا يُؤْمِنُ أَكْثَـرُهُم بِـاللهِ إلَّا وَهُمْ مُشْـرِكُـونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

....

﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالملائِكَةُ وَأُولو العِلْمِ قائماً بالقِسْطِ لا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ العَـزِيزُ الحَكِيمُ ﴾.

قوله : (فَلا أَتم اللهُ لَهُ) دعاء عليه ، وكذلك قوله : (فَلا وَدَعَ اللهُ لَهُ) أي لا جعله في دعة وسكون .

قوله : (ولابن أبي حاتم أَنَّهُ رَأى رَجُلاً في يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الحُمى فقَطَعَهُ) وتلا قوله تعالى : ﴿ وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إلاّ وَهُمْ مُشْرِكونَ ﴾.

ابن أبي حاتم هو الامام أبو محمـد عبد الـرحمن بن أبي حاتم محمـد بن إدريس المرادي التميمي الحنظلي صاحب الجرح والتعديل والتفسير وغيرها مات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ، وحذيفة هو ابن اليمان واسم اليمان حسيل بمهملتين مصغر ، ويقال حسل بكسر ثم سكون ، العبسي بالمـوحدة ، حليف الأنصـار صحابي جليـل من السابقين ويقـال له صاحب السر وأبوه صحابي أيضاً . مات حذيفة في أول خلافة علي سنة ست وثلاثين .

قوله : (رَأى رَجُلاً في يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الحُمَّى فَقَطَعَهُ وَتَلا قَوْلَه تعالى : ﴿ وَما يُؤْمِنُ أَكثرُهُمْ بِاللهِ إلاّ وَهُمْ مُشْرِكونَ ﴾.

---

(١) الأولى رواها أحمد في « المسند » ٤/١٥٤ ، وابن حبان (١٤١٣) « موارد » والحاكم ٤/٤١٧ وفيها ضعف، والرواية الثانية رواها أحمد في « المسند» ٤/١٥٦ ، ورواها أيضاً الحاكم ٤/٤١٧ ، وهو حديث صحيح.
في « المسند » ٤/١٥٦ ، ورواهُ أيضاً الحاكم ٤/٤١٧ ، وهو حديث صحيح .
قوله : « تعلق » أي علق وتعلق بها قلبه ، وقد جاءت في ابن حبان « عَلَق » وكذا في « مجموعة التوحيد » طبعة المنار ، وما أثبتناه موافق للمسند و «فتح المجيد » . انظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (٤٩٢) .

فيه مسائل :

الأولى : التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك .

الثانية : أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح . فيه شاهد لكلام

فيه دليل على أن هذا شرك ، وأن الصحابة رضي الله عنهم يستدلون بالآيات التي نزلت في الشرك الأكبر على الأصغر لدخوله في الشرك المنهي عنه في الآيات والأحاديث عموماً وخصوصاً لما قد عرفت أنه ينافي كمال الاخلاص . اذا كان مثل هذا ، وقد خافه ﷺ على الصحابة، كما تقدم في قوله: «أخْوَفُ ما أخافُ عَليكُم الشِّرْكُ الأصغرُ»[1] فإذا كان يقع مثل هذا في تلك القرون المفضلة فكيف يُؤَمنُ أن يقع ما هو أعظم منه ؟ لكن لغلبة الجهل به وقع منهم أعظم مما وقع من مشركي العرب وغيرهم في الجاهلية ، مما قد تقدم التنبيه عليه حتى أن كثيراً من العلماء في هذه القرون اشتد نكيرهم على ما أنكر الشرك الأكبر ، فصاروا هم والصحابة رضي الله عنهم في طرفي نقيض ، فالصحابة ينكرون القليل من الشرك ، وهؤلاء ينكرون على من أنكر الشرك الأكبر ، ويجعلون النهي عن هذا الشرك بدعة وضلالة ، وكذلك كانت حال الأمم مع الأنبياء والرسل جميعهم فيما بعثوا به من توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له وحده ، والنهي عن الشرك به ، وقد بعث الله تعالى خاتم رسله محمداً ﷺ بذلك كما بعث به من قبله ، فعكس هؤلاء المتأخرون ما دعا إليه رسول الله ﷺ مشركي العرب وغيرهم فنصر هؤلاء ما نهى عنه من الشرك غاية النصرة ، وأنكروا التوحيد الذي بعث به غاية الانكار ، فإنه ﷺ لما قال لقريش : « قولوا لَا إِلَهَ إِلَّا الله تُفْلِحوا » . عرفوا معناها الذي وضعت له وأريد منها فقالوا : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً واحِداً؟ إنَّ هَذا لَشَيءٌ عَجابٌ ﴾ الآيات . وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كانوا إذا قِيلَ لهمْ لا إِلَهَ إِلّا الله يَسْتَكْبرونَ ﴾ وفي صحيح البخاري وغيره في سؤال هرقل لأبي سفيان عن النبي ﷺ قال له : فَماذا يَأمُرُكمْ ؟ قلت يقول : « آعْبُدوا الله وَحْدَهُ لا تُشْرِكوا بِهِ شَيْئاً واتركوا ما يَقولُ آباؤُكُمْ » . ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والصلة[2] .

---

(١) تقدم تخريجه ص (٣٣) .

(٢) البخاري رقم (٧) في بدء الوحي : باب رقم (٦) ، ورقم (٥١) في الإيمان : باب رقم (٣٨) ، وفي كتب وأبواب أخر ، ومسلم رقم (١٧٧٣) في الجهاد : باب كتاب النبي ﷺ الى هرقل يدعوه إلى الإسلام ، والترمذي رقم (٢٧١٨) في الاستئذان : باب ما جاء كيف يكتب لأهل الشرك ، وأحمد في « المسند » ١/٢٦٢ ـ ٢٦٣ ، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

الصحابة : إن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر .

الثالثة : أنه لم يعذر بالجهالة .

الرابعة : أنها لا تنفع في العاجلة بل تضر ، لقوله : « لا تزيدك إلا وهناً » .

الخامسة : الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك .

السادسة : التصريح بأن من تعلّق شيئاً وُكل إليه .

السابعة : التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك .

الثامنة : أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك.

التاسعة : تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر ، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.

العاشرة : أن تعليق الودع عن العين من ذلك .

الحادية عشرة : الدعاء على من تعلق تميمة ، أن الله لا يتم له ، ومن تعلق ودعةً ، فلا ودع الله له ، أي لا ترك الله له .

* * *

٨ ـ باب ما جاء في الرقى والتمائم

في « الصحيح » عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه ، أنه كان مع

قوله : (باب ما جاء في الرقي والتمائم) أي من النهي عما لا يجوز من ذلك .

قوله : (في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع النبي ﷺ في بَعْضِ أَسْفارِهِ فأَرْسَلَ رَسولاً أَنْ لاَ يَبْقَيَنَّ في رَقَبَةٍ بغير قِلادَةٌ مِنْ وَترٍ أَوْ قِلادَةٌ إلاَّ قُطِعَتْ) . هذا الحديث في الصحيحين واسم أبي بشير قيس بن عبيد قاله ابن سعد. وقال ابن عبد البر : لا يوقف له على اسم صحيح ، وهو صحابي شهد الخندق ومات بعد الستين ، ويقال إنه جاوز المائة.

قوله : (فَأَرْسَلَ رَسولاً) هو زيد بن حارثة ، روى ذلك الحارث بن أبي أسامة في مسنده، قال الحافظ. قوله: (أن لا يبقينَّ) بفتح الياء والقاف ويحتمل أن يكون بضم الياء

رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، فأرسل رسولاً أن لا يبْقَينَّ في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قُطِعَتْ[1] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ الرُّقَى وَالتَمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ »[2] رواه أحمد وأبو داود .

....

المثناة وكسر القاف ، والوتر بفتحتين وأحد أوتار القوس ، وكان أهل الجاهلية إذا اخْلَوْلَقَ الوترَ أبدلوه بغيره وقلدوا به الدواب اعتقاداً منهم بهذا أنه يدفع عن الدابة العين ، ولهذا أمر ﷺ بقطع الأوتار التي علقت على الابل ، لما كان أهل الجاهلية يعتقدون ذلك فيها .

قوله : (أو قلادة إلا قُطِعَتْ) يحتمل أن ذلك شك من الراوي ، ولأبي داود « ولا قلادة » بغير شك ، فعلى هذه الرواية تكون أو بمعنى الواو .

قال البغوي في شرح السنة : تأول مالك أمره عليه السلام بقطع القلائد على أنه من أجل العين ، وذلك أنهم كانوا يشدون تلك الأوتار والتمائم والقلائد ويعلقون عليها العوذ يظنون أنها تعصمهم من الآفات ، فنهاهم النبي ﷺ عنها وأعلمهم أن الأوتار لا ترد من أمر الله شيئاً ، قال أبو عبيد : كانوا يقلدون الابل أوتاراً لئلا تصيبها العين ، فأمرهم النبي ﷺ بازالتها إعلاماً لهم بأن الأوتار لا ترد شيئاً .

قوله : (وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « إنَّ الرُّقَى وَالتَّمائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ » رواه أحمد وأبو داود) ولفظ أبي داود عن زينب امرأة عبد الله

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٠٠٥) في الجهاد : باب ما قيل في الجرس ونحوه في أعناق الابل ، ومسلم رقم (٢١١٥) في اللباس والزينة : باب كراهية قلادة الوتر في رقبة البعير ، وأبو داود رقم (٢٥٥٢) في الجهاد : باب تقليد الخيل بالأوتار ، وأحمد في « المسند » ٢١٦/٥ ، ومالك في « الموطأ » ٩٣٧/٢ في صفة النبي ﷺ : باب ما جاء في نزع المعاليق والجرس من العنق .

(٢) رواه أبو داود رقم (٣٨٨٣) في الطب : باب في تعليق التمائم ، وابن ماجه (٣٥٣٠) في الطب : باب تعليق التمائم ، وأحمد في « المسند » ٣٨١/١ ، والحاكم ٤١٨/٤ وصححه ووافقه الذهبي وهو كما قالا . انظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (٣٣١) .

قال الخطابي : التولة : ضرب من السحر ، قال الأصمعي : وهو الذي يحبب المرأة الى زوجها . وأما الرقي فالمنهي عنه ما كان منها بغير لسان العرب فلا يُدرى ما هو ؟ ولعله قد يدخله سحر أو كفر ، فأما إذا كان مفهوم المعنى ، وكان فيه ذكر الله تعالى ، فإنه مستحب متبرك به ، والله أعلم .

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً : « مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً وُكلَ إِلَيْـهِ »[1]. رواه أحمد والترمذي .

التمائم : شيء يعلق على الأولاد من العين ، لكن إذا كان المعلق من القرآن ، فرخص فيه بعض السلف ، وبعضهم لم يرخص فيـه ، ويجعله من المنهي عنه ، منهم ابن مسعود رضي الله عنه .

الرقى : هي التي تسمى العزائم ، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك ، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمى .

والتّوْلة : شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها ، والرجل إلى امرأته .

ابن مسعود أن عبد الله رأى في عُنُقي خَيطاً فقالَ : ما هذا ؟ قلتُ : خيطٌ رُقِيَ لي فيهِ ، قالتْ : فَأخَذَهُ فَقطَعهُ ثم قال : أنْتُمْ آل عَبدِ اللهِ الأغنياءُ عَنِ الشِّرْكِ . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ الرُّقى وَالتَّمائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ » . قال المصنف رحمه الله تعالى : (لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف ، وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهي عنه ، منهم ابن مسعود رضي الله عنه) والمقصود بيان أن هذه الأمور الشركية وإن خفيت فقد نهى عنها رسول الله ﷺ وأصحابه لكمال علمهم بما دلت عليه لا إله إلا الله من نفي الشرك قليله وكثيره لتعلق القلب بغير الله في دفع ضر أو جلب نفع وقد عمت البلوى بما هو أعظم من ذلك بأضعاف مضاعفة ، فمن عرف هذه الامور الشركيـة المذكـورة في هذين البابين عرف ما وقع مما هو أعظم من ذلك كما تقدم بيانه ، وفيه ما كان عليه رسول الله ﷺ من التحذير من الشرك والتغليظ في انكاره وإن كان من الشرك الاصغر فهو أكبر من الكبائر وقد تقدم دليله في الباب قبل هذا .

وقوله : (وعن عبدِ اللهِ بْنِ عُكَيمٍ مَرْفوعاً « من تَعلَّقَ شَيئـاً وُكِلَ إليـهِ » رواه أحمد والترمذي) وعبد الله بن عكيم بضم المهملة مصغر ويكنى أبا معبد الجهني الكوفي . قال

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ٤/٢١١ ، والترمذي رقم (٢٠٧٣) في الطب : باب ما جاء في التعاليق ، وهو حديث حسن كما قال الألباني في « صحيح الترمذي رقم (١٦٩١).

وروى أحمد عن رويفع قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يَا رُوَيفع ! لَعَلَّ الحَيَاةَ تَطُولُ بِكَ ، فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرَاً ، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَةٍ أَوْ عَظْمٍ ، فَإِنَّ مُحَمَّداً بَرِيءٌ مِنْهُ »(١).

الخطيب : سكن الكوفة وقدم المدائن في حياة حذيفة وكان ثقة .

قوله : (من تَعلَّقَ شَيئاً وُكِلَ إليهِ) . التعلق يكون بالقلب وينشأ عنه القول والفعل ، وهو التفاف القلب عن الله الى شيء يعتقد أنه ينفعه أو يدفع عنه كما تقدم بيانه في الأحاديث في هذا الباب والذي قبله ، وهو ينافي قوله تعالى : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحسِنٌ فلهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحزَنونَ ﴾ . فان كان من الشرك الأصغر فهو ينافي كمال التوحيد ، وإن كان من الشرك الأكبر كعبادة أرباب القبور والمشاهد والطواغيت ونحو ذلك فهو كفر بالله ، وخروج من دين الاسلام ، ولا يصح معه قول ولا عمل .

قوله : (وُكِلَ إلَيْهِ) أي وكله الله إليه ، الى ما علق قلبه به من دون الله ، ومن وكله الله الى غيره ضل وهلك ، قال الامام أحمد : حدثنا هشام بن قاسم حدثنا أبو سعيد المؤدب حدثنا من سمع عطاء الخراساني قال : لَقَيتُ وَهْبَ بْنَ مُنَبِّهٍ وَهُـوَ يَطوفُ بـالبَيْتِ فَقُلْتُ : حَدِّثْني بِحديثٍ أَحْفَظُهُ عَنْكَ في مَقامي هٰذا وَأَوْجِزْ ، قال : نعم ، أَوْحى آلله الى داود عليه السلام « يا داودُ أَما وَعِزَّتي وَعَظَمَتي لا يَعْتَصِمُ بي عَبْدٌ مِنْ عَبيدي دونَ خَلْقي أَعْرِفُ ذٰلِكَ مِنْ نِيَّتِهِ فَتَكيدُهُ السَّمواتُ السَّبعُ وَمَن فيهنَّ وَالأَرَضونَ السَّبْعُ وَمَنْ فيهِنَّ إلاّ جَعَلْتُ لَهُ مِنْ بَيْنِهِنَّ فَرَجاً وَمَخرَجاً ، أَمَّا وَعِزَّتي وَعَظَمَتي ما يَعْتَصِمُ عَبْدٌ مِنْ عَبيدي بِمخْلوقٍ دوني أَعْرِفُ ذٰلِكَ مِنْ نِيَّتِهِ إلاّ قَطَعْتُ أَسْبابَ السَّماءِ مِنْ يَدِهِ وَأَسَخْتُ الأَرْضَ مِنْ تَحتِ قَدَمَيْهِ ثمَّ لا أُبالي بِأَيِّ وادٍ هَلَكَ) وشاهد هذا في القرآن فتدبر .

قوله : (وروى أحمدُ عن رُوَيْفِعٍ قال : قال لي رسـول الله ﷺ : « يا رُوَيْفـع لعَلَّ الحَياةَ تطولُ بِكَ فأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحيَتَهُ أَوْ تَقلَّدَ وَتَراً أَو اسْتَنْجَى بِرَجيعِ دابَّةٍ أَوْ عظْمٍ فإنَّ مُحمَّداً بَرِىءٌ مِنْهُ » . رويفع هو ابن ثابت بن السكن بن عدي بن الحارث الانصاري نزل

---

(١) رواه أبو داود رقم (٣٦) في الطهارة : باب ما ينهى عنه وما يستنجى به ، والنسائي ١٣٥/٨ في الزينة : باب عقد اللحية ، وأحمد في « المسند » ١٠٨/٤ ، ١٠٩ ، وهو حديث صحيح كما قال الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٧٧٨٧) .

مصر وولي برقة ، له ثمانية أحاديث ، قال عبد الغني : وليَ طرابلس فافتتح أفريقية سنة سبع وأربعين وقال ابن يونس : توفي بِبَرْقَةَ سنة ست وخمسين . قوله : (لعلَّ الحَياةَ تطولُ بكَ) فقد طالت حياته رضي الله عنه كما أخبر النبي ﷺ . قوله : (فَأخْبِرِ النَّاسَ أنَّ مَن عَقَدَ لحيتَهُ) قال الخطابي : أما نهيه عن عقد اللحية فيفسر على وجهين : (أحدهما) ما كانوا يفعلونه في الحرب كانوا يعقدون لحاهم وذلك من زيٍّ بعض الاعاجم يفتلونها ويعقدونها ، قال أبو السعادات : تكبراً أو عجباً . (ثانيهما) أن معناه معالجة الشَّعر ليتعقد ويتجعد ، انتهى . قلت : ويشبه هذا ما يفعله كثير من فتل أطراف الشارب فيترك أطرافه لذلك وهي بعضه ، وفي حديث زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لَمْ يَأخُذْ مِنْ شارِبِهِ فلَيْسَ مِنَّا »(1) رواه أحمد والنسائي والترمذي وقال : صحيح . وفي الصحيح « خالِفوا المُشْرِكينَ احْفوا الشَّوارِبَ وَاعْفوا اللِّحَى »(2) وذلك يدل على الوجوب ، وذكر ابن حزم الاجماع على أنه فرض فيتعين النهي عن ذلك .

قوله : (أوْ تَقَلَّدَ وَتَراً) فيه مع ما تقدم أنه شرك لما كانوا يقصدونه بتعليقه على الدواب وغيرها .

قوله : (أوْ اسْتَنْجَى بِرَجيعِ دابَّةٍ أوْ عَظْمٍ فإنَّ مُحمَّداً بَريءٌ مِنْهُ) هذا دليل على أن هذا والذي قبله من الكبائر لأن قوله : (إن محمداً بريء منه) يدل على ذلك ، وقال النووي رحمه الله تعالى : أي بريء من فعله فهذا التأويل بعيد لعود الضمير الى (مَنْ) ، وقد ورد النهي عن الاستنجاء بالروث والعظام في أحاديث صحيحة كما لا يخفى ، منها ما رواه مسلم في صحيحه عن ابن مسعود مرفوعاً : « لاَ تَسْتَنْجوا بِالرَّوْثِ وَلا العِظامِ فإنَّهُ زادُ إخْوانِكُمْ مِنَ الجِنِّ »(3) ولما روى ابن خزيمة والدارقطني عن أبي هريرة نهى أن يستنجى

---

(1) الترمذي رقم (٢٧٦٢) في الأدب : باب ما جاء في قص الشارب ، والنسائي ١/١٥ في الطهارة : باب قص الشارب ، وأحمد في « المسند » ٤/٣٦٦ و ٣٦٨ ، وهو حديث صحيح كما قال الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٤٠٩) .

(2) البخاري رقم (٥٨٩٢) في اللباس : باب تقليم الأظفار ، ورقم (٥٨٩٣) باب اعفاء اللحى ، ومسلم رقم (٢٥٩) في الطهارة : باب خصال الفطرة ، وأبو داود رقم (١٩٩) في الترجل : باب في أخذ الشارب ، والترمذي رقم (٢٧٦٤) في الأدب : باب ما جاء في اعفاء اللحية ، والنسائي ١/١٦ في الطهارة : باب احفاء الشارب واعفاء اللحى ، وأحمد في « المسند » ٢/١٦ ، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(3) مسلم رقم (٤٥٠) في الصلاة : باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن ، والترمذي رقم (١٨) في الطهارة : باب ما جاء في كراهية ما يستنجى به ، والنسائي ١/٣٧ ـ ٣٨ فيه : باب النهي عن =

وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه ، قال : « من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة » رواه وكيع . وله عن إبراهيم قال : كانوا يكرهون التمائم كلها ، من القرآن وغير القرآن .

بعظم أو روث وقال : إنهما لا يطهِّران[1] ، وعنه : لا يجزيء الاستنجاء بهما كما هو ظاهر مذهب أحمد .

قوله : (وعن سعيد بن جبير قال : من قَطَعَ تَميمَةً مِنْ إنْسانٍ كانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ . رواه وكيع) هذا عند أهل العلم له حكم الرفع لأن مثل ذلك لا يقال بالرأي فيكون هذا مرسلاً لأن سعيداً تابعي ، فعلى هذا يجب النهي عن تعليق التمائم والترغيب في قطعها وأن ذلك مما يجب ، وفيه مع ما تقدم أنه شرك ، وبيان حال السلف رضي الله عنهم من تعظيم الشرك قليله وكثيره والنهي عنه ، فلما اشتدت غربة الاسلام في أواخر هذه الأمة صار إنكار هذا وما هو أعظم منه أعظم المنكرات حتى عند من ينتسب الى العلم كما لا يخفى ، ووكيع هو ابن الجراح بن وكيع الكوفي ثقة إمام صاحب تصانيف منها الجامع وغيره ، روى عنه الامام أحمد وطبقته مات سنة سبع وتسعين ومائة .

قوله : (وله عَنْ إبراهيمَ قال : كانوا يَكْرَهونَ التَّمائمَ كلَّها مِنَ القرآنِ وَغيرِ القُرآنِ) ابراهيم هو الامام ابراهيم بن يزيد النخعي الكوفي يكنى أبا عمران ثقة من كبار الفقهاء مات سنة ست وتسعين وله خمسون سنة أو نحوها قوله : (كانوا يكرهون) أراد أصحاب عبد الله ابن مسعود كعلقمة والأسود وأبي وائل والحارث بن سويد وعبيدة السلماني ومسروق والربيع ابن خثيم وسويد بن غفلة وغيرهم وهم من سادات التابعين ، وفي زمانهم كانوا يطلقون الكراهة على المحرَّم ، وهذا القول الصحيح ، لأن ما كان من غير القرآن قد تقدم النهي عنه بلا ريب ، وأما إذا كان من القرآن فيتعين النهي عنه لأمور ثلاثة (منها) دخوله في عموم المنهي عنه (ومنها) كونه ذريعة الى تعليق ما ليس من القرآن فيفضي الى عدم إنكارها (الثالث) أن تعليق القرآن يكون سبباً في امتهانه فلابد أن يدخل به الخلاء ونحوه . قال المصنف رحمه الله تعالى : والرقى هي التي تسمى العزائم وخص منه الدليل ما خلا من الشرك فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحُمَةِ ، والتِّوَلَةُ هي شيء يصنعونه يزعمون

= الاستطابة بالعظم ، وأبو داود رقم (٣٩) في الطهارة : باب ما ينهى عنه أن يستنجى به ، انظر روايات الحديث في « جامع الأصول » رقم (٥١٣٨) .

(١) الدارقطني ١/٥٦ وقال : اسناده صحيح .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الرقى والتمائم .
الثانية : تفسير التّولة .
الثالثة : أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء .
الرابعة : أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمى ، ليس من ذلك .
الخامسة : أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء : هل هي من ذلك أم لا ؟ .
السادسة : أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين ، من ذلك .
السابعة : الوعيد الشديد على من تعلق وتراً .
الثامنة : فضل ثواب من قطع تميمةً من إنسان .
التاسعة : أن كلام إبراهيم [النخعي] لا يخالف ما تقدم من الاختلاف ، لأن مراده أصحاب عبد الله بن مسعود .

* * *

٩ - باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما

وقول الله تعالى : ﴿ **أَفَرَأَيْتُم اللاَّتَ وَالعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَىٰ * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ** ﴾ الأيات [النجم : ١٩ - ٢٢] .

أنه يحبب المرأة الى زوجها والرجل الى امرأته ، قال الحافظ : التِّولة بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففاً شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها وهو ضرب من السحر والله أعلم .

قوله : (باب من تبرَّكَ بشجرة أو حجر ونحوها) كبعقة وقبر ومشهد ونحو ذلك، ومَنْ اسم شرط والجواب محذوف تقديره فقد أشرك بالله .

قوله : وقول الله تعالى : ﴿ **أفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ والعزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى** ﴾ الآيات . هذه الأوثان الثلاثة هي أعظم أوثان أهل الجاهلية من أهل الحجاز ، فاللات لأهل الطائف ومن حولهم من العرب ، والعزى لقريش وبني كنانة ، ومناة لبني هلال ، وقال ابن هشام :

عن أبي واقد الليثي ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن

....

كانت لهذيل وخزاعة . واللات بتخفيف التاء في قراءة الجمهور وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح ورويس عن يعقوب بتشديد التاء ، فعلى الاولى قال الأعمش : سموا اللات من الاله ، والعزى من العزيز ، وقال ابن كثير : اللات كانت صخرة بيضاء منقوشة ، عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف وهم ثقيف ومن تبعها يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش قاله ابن هشام[1] ، وعلى الثانية قال ابن عباس : كان رجلاً يلتّ السويق للحاج فمات فعكفوا على قبره ، ذكره البخاري[2] .

(قلت) : ولا منافاة بين ما ذكره البخاري وغيره من عبادتهم الصخرة التي كان يلتّ السويق عليها باسمه وعبادة قبره لما مات ، وأما العزّى فقال ابن جرير : كانت صخرة عليها بناء وأستار بنخلة بين مكة والطائف كانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أُحُدٍ : لنا العزّى ولا عزّى لكم . قال رسول الله ﷺ : « قُولوا : الله مَوْلانا وَلا مَوْلى لكُمْ »[3] ومناسبة هذه الآية للترجمة أن عبادة المشركين للعُزّى ، إنما كان بالتفات القلوب رغبة إليها في حصول ما يرجونه ببركتها من نفع أو دفع ضر فصارت أوْثاناً تعبد من دون الله ، وذلك من شدة ضلال أهل الشرك وفساد عقولهم كما قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دونِ اللهِ ما لا يَضُرُهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقولونَ هٰؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللهِ ﴾ فصار عبادة القبور وعبادة الشجر والحجر هو شرك المشركين وقد جرى ذلك وما هو أعظم منه في أواخر هذه الأمة .

قوله : (عن أبي واقِدٍ) هو صحابي مشهور مات سنة ثمان وستين وله خمس وثمانون سنة قوله : (خَرَجْنَا مَعَ رَسولِ الله ﷺ) يشير الى أهل مكة ممن إسلامه قريب إذ ذاك .

---

(١) الذي في « تفسير القرطبي » قال هشام ـ يعني ابن الكلبي المؤرخ ـ : فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار ـ أي اللات .

(٢) البخاري رقم (٤٨٥٩) في تفسير سورة النجم : باب قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ ، دون قوله : فلما مات عكفوا على قبره .

(٣) البخاري رقم (٣٠٣٩) في الجهاد : باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب ، ورقم (٣٩٨٦) و (٤٠٤٣) و (٤٠٦٧) و (٤٥٦١) ، وأحمد في « المسند » ٤/٢٩٣ ، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما .

حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها : ذات أنواط . فمررنا بسدرة ، قلنا : يا رسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله ﷺ : « الله أَكْبَرُ ! إِنَّهَا السُّنَنُ ،

....

قوله : (الى حُنَين) هو اسم واد بشرقي مكة معروف قاتل فيه ﷺ هوازن كما قال تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً** ﴾ والوقعة مشهورة عند أهل المغازي والسير وغيرهم وما جرى فيها من النصر وأخذ أموالهم وسبي ذراريهم ونسائهم كما في الآية الكريمة ﴿ **ثُمَّ أَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلى رَسولِهِ وَعَلى المُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الّذين كَفَروا وَذَلِكَ جَزاءُ الكافِرينَ** ﴾ .

قوله : « وَنَحنُ حُدَثاءُ عَهدٍ بِكُفرٍ » يشير إلى أهل مكة الذين أسلموا قريباً فلذلك خفي عليهم هذا الشرك المذكور في الحديث بخلاف من تقدم إسلامه .

قوله : (وَللمشْرِكينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَها) عبادة لها وتعظيماً وتبركا لما كانوا يعتقدونه فيها من البركة قوله : « يُقالُ لها ذاتُ أَنْواطٍ » هو برفع التاء كما لا يخفى . قوله : « يَنوطُونَ بِها أَسْلِحَتَهمْ » أي يعلقونها.

قوله : (فمَرَرْنا بِسِدْرَةٍ فقُلْنا : يا رَسولَ اللهِ اجْعَلْ لنا ذاتَ أَنْواطٍ كَما لهمْ) أي للمشركين (ذاتُ أنواطٍ) ظنوا أن النبي ﷺ لو جعل لهم ذلك لجاز اتخاذها لحصول البركة لمن اعتقدها فيها . وأنواط جمع نوط وهو مصدر سمى به المنوط . قوله : (فقال النبيُّ ﷺ : الله أكْبرُ) تعظيماً لله تعالى عن أن يجعل له شريك في عبادته التي هي حقه على عباده كما قال تعالى : ﴿ **فاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفاً وَلا تكونَنَّ مِنَ المُشْرِكينَ** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **فأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القَيِّمِ** ﴾ وهو الاخلاص ، والشرك ينافي ذلك ، وتقدم معنى الحنيف وتضمنت هاتان الآيتان وما في معناهما التوحيد الذي دلت عليه (لا إله إلا الله) نفياً وإثباتاً كما تقدم بيانه ، فمن التفت قلبه الى غير الله لطلب نفع أو دفع ضر فقد أشرك ، والقرآن كله في تقدير هذا الاصل لعظيم الذي هو أصل دين الاسلام الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه.

قوله : (السُّنن) بضم السين أي الطرق يشير الى الطرق التي تخالف دينه الذي شرعه تعالى لعباده.

قُلْتُمْ ـ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ـ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلٰهاً كَمَا لَهُم آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُم قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[الأعراف: ١٣٨] لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ »(١) رواه الترمذي وصححه .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية النجم .

الثانية : معرفة صورة الأمر الذي طلبوا .

الثالثة : كونهم لم يفعلوا .

الرابعة : كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك ، لظنهم أنه يحبه .

الخامسة : أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل .

السادسة : أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم .

قوله : (قُلْتُمْ ـ وَالذي نفْسي بِيَدِهِ ـ) حلف ﷺ على ذلك تأكيداً لهذا الخبر وتعظيماً له «كما قالتْ بنو إسْرائيلَ لموسى» : ﴿**اجْعَلْ لنا إلٰهاً كما لهم آلِهَةٌ**﴾ وإن لم يسموها آلهة ، أخبر أن التبرك بالأشجار يجعلها الهة وإن لم يسموها آلهة . ولذلك شبه قولهم هذا بقول بني إسرائيل لموسى : ﴿ **اجَعَلْ لنا إلٰهاً كما لهمْ آلِهَةٌ** ﴾ فظهر بهـذا الحديث أن التعلق على الأشجار والأحجار وغيرها لطلب البركة بها شرك في العبادة كشرك عبّاد الأصنام .

قوله : (لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ) أي اليهود والنصارى وقد وقَع كما أخبر به ﷺ في هذه الامة فركبوا طريق من كان قبلهم ممن ذكـرنا كمـا هو في الاحـاديث الصحيحة كحـديث : « لَتَتْبَعُنَّ سُنَنَ مَنْ كانَ قبْلَكُمْ حَـذْوَ القُذَّةِ بـالقُذَّةِ حَتَّى لـوْ دَخَلوا جُحْـرَ ضَبٍّ لدَخَلْتُموهُ » قالوا يا رسول اللهِ : اليَهودُ والنَّصارى ؟ قالَ : « فَمنْ ؟ » ، وهو في الصحيحين عن أبي سعيدالخدري رضي الله عنه وفي رواية وَمَنِ النَّاسُ إلَّا اولٰئكَ ؟»(٢) .

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢١٨١) في الفتن : باب ما جاء « لتركبن سنن من كان قبلكم » ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وهو كما قال ، ورواه أيضاً أحمد في « المسند » ٢١٨/٥ ، وقال الترمذي : وفي الباب عن أبي سعيد وأبي هريرة .

(٢) ستأتي تخريجه ص (١٢٣) .

السابعة : أن النبي ﷺ لم يعذرهم ، بل رد عليهم بقوله : « اللهُ أَكْبَرُ إِنَّهَا السُّنَنُ ، لِتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ » فغلَّظ الأمر بهذه الثلاث .

الثامنة : الأمر الكبير ، وهو المقصود : أنه أخبر أن طلبتهم كطَلِبَة بني إسرائل لما قالوا لموسى : ﴿ **اجْعَل لَنا إِلَهاً** ﴾ [الأعراف: ١٣٨] .

التاسعة : أن نَفْيَ هذا ، من معنى « لا إله إلا الله » مع دِقته وخفائه على أولئك .

العاشرة : أن حلف على الفُتيا ، وهو لا يحلف إلا لمصلحة .

الحادية عشرة : أن الشرك فيه أكبر وأصغر ؛ لأنهم لم يرتدُّوا بهذا .

الثانية عشرة : قولهم : ونحن حُدَثَاء عهد بكفر ، فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك .

الثالثة عشرة : ذكر التكبير عند التعجب ، خلافاً لمن كرهه .

الرابعة عشرة : سد الذرائع .

الخامسة عشرة : النهي عن التشبه بأهل الجاهلية .

السادسة عشرة : الغضب عند التعليم .

السابعة عشرة : القاعدة الكلية ، لقوله : « إنها السنن » .

الثامنة عشرة : أن هذا عَلَم من أعلام النبوَّة ، لكونه وقع كما أخبر .

التاسعة عشرة : أن كل ما ذمَّ الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا .

العشرون : أنه مقرَّرٌ عندهم أن العبادات مبناها على الأمر ، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر . أمَّا « مَن ربك ؟ » فواضح ، وأمَّا « مَن نبيك ؟ » فمن إخباره بأنباء الغيب ، وأمَّا « ما دينك ؟ » فمن قولهم : ﴿ **اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً** ﴾ . . . الخ .

الحادية والعشرون : أن سُنَّة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين .

الثانية والعشرون : أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة لقولهم : ونحن حدثاء عهد بكفر .

١٠ - باب ما جاء في الذبح لغير الله

وقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ الآية [الأنعام : ١٦٣ - ١٦٤] ، وقوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [الكوثر: ٢] .

قوله : (بابُ ما جاء في الذَّبْحِ لغيرِ اللهِ وَقَوْلِ الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتي وَنُسُكي وَمَحْيايَ وَمَماتي لِلَّهِ رَبِّ العالمينَ لَا شريكَ لهُ ﴾ الآية .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون له أنه اخلص لله صلاته وذبيحته لأن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها فأمره تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه والاقبال بالقصد والنية والعزم على الاخلاص لله تعالى ، انتهى . فالصلوات الخمس هي أعظم فرائض الاسلام بعد الشهادتين.

قوله : (صَلاتي) يشمل الفرائض والنوافل ، والصلوات كلها عبادة . وقد اشتملت على نوعي الدعاء دعاء المسألة ودعاء العبادة فما كان فيها من السؤال والطلب فهو دعاء مسألة ، وما كان فيهامن الحمد والثناء والتسبيح والركوع والسجود وغير ذلك من الأركان والواجبات هو دعاء عبادة ، وهذا هو التحقيق في تسميتها صلاة لأنها اشتملت على نوعي الدعاء الذي هو صلاة لغة وشرعا . قرره شيخ الاسلام وابن القيم رحمهما الله تعالى.

قوله : (وَنُسُكي) قال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير « نسكي » ذبحي وكذلك قال الضحاك . قوله : (وَمَحْيايَ وَمماتي) أي ما آتيه في حياتي وما أموت عليه من الايمان والعمل الصالح (للهِ رَبِّ العالمين) خالصاً لوجهه (لا شَريكَ لَهُ وَبِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنا أَوَّلُ المُسْلِمينَ) أي من هذه الأمة ، وهذا قول أئمة التفسير ، والمقصود أن هذه الآية دلت على أن أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة لا يجوز أن يصرف منها شيء لغير الله كائناً من كان ، فمن صرف منها شيئاً لغير الله فقد وقع فيما نفاه تعالى من الشرك بقوله : ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ والقرآن كله في تقرير هذا التوحيد في عبادته وبيانه ونفي الشرك والبراءة منه.

قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ قال شيخ الاسلام : أمره أن يجمع بين هاتين العبادتين وهما الصلاة والنسك الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن وقوة اليقين وطمأنينة القلب الى الله والى عدته عكس أهل الكبر والنفرة وأهل الغنى عن الله الذين

عن علي رضي الله عنه قال : حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات : « لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ ، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوى مُحْدِثاً ، لَعَنَ

....

لا حاجة لهم في صلاتهم الى ربهم والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقر ، ولهذا جمع بينهما في قوله : ﴿ قل إنَّ صَلاتي وَنُسُكي ﴾ الآية اهـ . وقد قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحمُ الخِنزيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيرِ اللهِ بِهِ ﴾ الآية .

قوله : (عن عليّ رضي الله عنه) وعلي بن أبي طالب هو الامام أبو الحسن الهاشمي ابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنهما كان من أسبق السابقين الاولين ومن أهل بدر وبيعة الرِّضوان وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ورابع الخلفاء الراشدين ، ومناقبه مشهورة رضي الله عنه ، قتله ابن ملجم الخارجي في رمضان سنة أربعين .

قال أبو السعادات : أصل اللعن الطرد والابعاد من الله .

قوله : (مَنْ ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ) قال شيخ الاسلام : قوله : (وَما أُهِلَّ بِهِ لِغَيرِ اللهِ) ظاهره أنه ما ذبح لغير الله مثل أن يقال هذا ذبيحة لكذا ، وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبح للحم وقال فيه باسم المسيح ونحوه كما أن ما ذبحناه متقربين به الى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم وقلنا عليه باسم الله ، فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح والزهرة فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أو قصد به ذلك أولى ، فان العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله فعلى هذا لو ذبح لغير الله متقرباً اليه يحرم وإن قال فيه بسم الله كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الامة الذين يتقربون الى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال .. الخ ، ومن ذلك الذبح للجن.

قوله : (لعنَ الله من لعنَ والديْهِ) يعني أباه وامه وإن علوا ، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « مِنَ الكَبائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ والِدَيْهِ » قالوا يا رَسولَ اللهِ وَهَلْ يَشْتُم الرَّجُلُ وَالدِيْهِ ؟ قال : « نَعَمْ يَسُبُّ أَبا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَباهُ ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ »(1) .

قوله : (لعَنَ الله مَنْ آوى مُحدثاً) وهو بفتح الهمزة ممدودة أي ضمه إليه وحماه

---

(1) البخاري رقم (٥٩٧٣) في الأدب : باب لا يسب الرجل والديه ، ومسلم رقم (٩٠) ، والترمذي رقم (١٩٠٣) ، وأبو داود رقم (٥١٤١) ، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ » رواه مسلم[1] .

وعن طارق بن شهاب ، أن رسول الله ﷺ قال : « دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ » . قالـوا : وكيف ذلك يـا رسول الله ؟!

....

وأما (محدثاً) فقال أبو السعادات : يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعـول . فمعنى الكسر من نصر جانياً وآواه وأجاره من خصمه وحال بينه وبين أن يقتص منه والفتح هو الأمر المبتدع نفسه ، ويكون معنى الايواء فيه الـرضى به والنصـر . فانـه إذا ارتضي بالبـدعة وأقـرّ فاعلها ولم ينكر عليه فقد آواه ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى . هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف مراتب الحدث في نفسه فكلما كان الحدث في نفسه أكبر كانت الكبيرة أعظم .

قوله : (لَعن الله مَنْ غَيَّرَ مَنار الأَرْضِ) بفتح الميم علامات حدودها وهي التي توضع لتمييز حق الشركاء إذا اقتسموا ما بينهم في الأرض والدور ، قال في النهاية : أي معالمها وحدودها (قلت) وذلك بأن يرفع ما جعل علامة على تمييز حقه من حق شريكه فيأخذ من حق شريكه بعضه فهذا ظلم عظيم ، وفي الحديث : « مَنْ ظَلَمَ شِبْراً مِنَ الأَرْضِ طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ »[2] فلمـا أجهل أكثـر الخلق حتى وقعوا بجهلهم وظلمهم فيمـا يضرهم في دنياهم وأخراهم وذلك لضعف الايمان بالمعاد والحساب على الاعمال والجنة والنار نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة .

قوله : (عن طارق بن شهاب) البجلي الأحمسي أبو عبد الله قـال أبو داود : رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً . قال الحافظ : إذا ثبت أنه لقي النبي ﷺ فهو صحابي ، وإذا ثبت أنه لم يسمع منه فروايته عنه مرسل صحابي وهو مقبول على الراجح ، وكانت وفاته على ما جزم به ابن حبان سنة ثلاث وثمانين ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى قال الامام

---

(١) رواه مسلم (١٩٧٨) (٤٣) ، و(٤٤) ، و(٤٥) في الأضاحي : باب تحـريم الذبـح لغير الله ولعن فاعله ، والنسائي ٢٣٢/٧ في الضحايا : باب من ذبح لغير الله .

(٢) البخاري رقم (٢٤٥٣) في المظالم : باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض ، ورقم (٣١٩٥) في بـدء الخلق : باب ما جاء في سبع أرضين ، ومسلم رقم (١٦١٠) في المساقاة : باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها ، وأحمد في « المسند » ٦٤/٦ و ٧٩ و ٢٥٢ و٢٥٩ من حديث عائشة رضي الله عنها .

قوله : « طوقه » قال الخطابي : له وجهان : أحدهما أن معناه أنه يكلف نقل ما ظلم منها في القيامة إلى المحشر ، ويكون كالطوق في عنقه ، لا أنه طوق حقيقة . الثاني معناه أنه يعاقب بالخسف الى سبع أرضين ، أي فتكون كل أرض في تلك الحالة طوقاً في عنقه . اهـ . (الفتح ١٠٤/٥) .

قال : « مَرَّ رَجُلانِ عَلَىٰ قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لاَ يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّىٰ يُقرِّب لَهُ شَيْئاً ، فَقَالُوا لأَحَدِهِما : قَرِّبْ : قَالَ لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُ ، قَالُوا لَهُ : قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَاباً ، فَقَرَّبَ ذُباباً ، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ ، فَدَخَلَ النَّارَ . وَقَالُوا لِلآخَرِ : قَرِّبْ ، فَقَالَ : مَا كُنْتُ لأُقَرِّبَ لأَحَدٍ شَيْئاً دُونَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ فَدَخَلَ الجَنَّةَ »[١] رواه أحمد .

....

أحمد رحمه الله تعالى حدثنا أبو معاوية الأعمش عن سليمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال : « دَخَل الجَنَّةَ رَجُلٌ في ذُبابٍ » الحديث .

قوله : (في ذُبابٍ) أي من أجله . قوله (قَالوا وَكَيْفَ ذلكَ يا رَسولَ اللهِ ؟) كأنهم والله أعلم تقالوا هذا العمل وتقريب الذباب للصنم فبين لهم النبي ﷺ أن من فعل هذا وما هو أعظم منه وجبت له النار.

قوله : (مَرَّ رَجُلانِ عَلَى قَوْمٍ لهمْ صنمٌ لا يَجوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئاً فقالوا لأَحَدِهِما : قَرِّبْ ، فقالَ : لَيْسَ عِنْدِي شَيءٌ أُقَرِّبُ ، قالوا لَهُ : قَرِّبْ وَلَوْ ذُباباً ، فقَرَّبَ ذُباباً ، فخَلَّوْا سَبيلَهُ فدَخَلَ النَّارَ) لأنه قصد غير الله بقلبه أو انقاد بعمله فوجبت له النار ففيه معنى حديث مسلم الذي تقدم في باب الخوف من الشرك عن جابر مرفوعاً « مَنْ لَقِيَ اللهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ النَّارَ»[٢] فاذا كان هذا فيمن قرب للصنم ذباباً فكيف بمن يستسمن الابل والبقر والغنم ليتقرب بنحرها وذبحها لمن كان يعبده من دون الله من ميت أو غائب أو طاغوت أو مشهد أو شجر أو حجر أو غير ذلك ؟ وكان هؤلاء المشركون في أواخر هذه الأمة يعدون ذلك أفضل من الأضحية في وقتها الذي شرعت فيه وربما اكتفى بعضهم بذلك عن أن يضحي لشدة رغبته وتعظيمه ورجائه لمن كان يعبده من دون الله وقد عمت البلوى بهذا وما هو أعظم منه.

قوله : (وَقالوا لِلآخَرِ : قرِّبْ قالَ : ما كُنْتُ لأُقرِّبَ لأَحَدٍ شَيْئاً دونَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فضَرَبوا عُنُقَهُ فَدَخَلَ الجَنَّةَ) ففيه معرفة قدر الشرك في قلوب أهل الايمان ونفرتهم عنه وصلابتهم في الاخلاص كما في حديث أنس الذي في البخاري وغيره الآتي إن شاء الله

---

(١) رواه أحمد في كتاب « الزهد » صفحة (١٥) عن طارق بن شهاب عن سلمان الفارسي رضي الله عنه وهو موقوف صحيح ، وفي كتاب « الزهد » سليمان بدل سلمان وهو خطأ .

(٢) تقدم تخريجه ص (٣٥) رقم (١) .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ .

الثانية : تفسير ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .

الثالثة : البداءة بلعنة من ذبح لغير الله .

الرابعة : لعن من لعن والديه ، ومنه أن تلعن والدَي الرجل فيلعن والديك .

الخامسة : لعن من آوى مُحدثاً ، وهو الرجل يُحدث شيئاً يجب فيه حق لله فيلتجىء إلى من يجيره من ذلك .

السادسة : لعن من غيَّر منار الأرض ، وهي المراسيم التي تفرق بين حقك من الأرض وحق جارك ، فتغيرها بتقديم أو بتأخير .

السابعة : الفرق بين لعن المعيَّن، ولعن أهل المعصية على سبيل العموم .

الثامنة : هذه القصة العظيمة ، وهي قصة الذباب .

التاسعة : كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده ، بل فعله تخلصاً من شرهم .

العاشرة : معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين ، كيف صبر ذلك على القتل ، ولم يوافقهم على طلبتهم ، مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر .

الحادية عشرة : أن الذي دخل النار مسلم ، لأنه لو كان كافراً لم يقل : « دخل النار في ذباب » .

تعالى « ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمانِ » وفيه « وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعودَ في الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ الله مِنْهُ كَما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ »(١) وفيه تفاوت الناس في الايمان لأن هذا الرجل الذي قرب الذباب لم يكن له عمل يستحق به دخول النار قبل ما فعله مع هذا الصنم كما هو ظاهر الحديث ، والله أعلم .

---

(١) تقدم تخريجه ص (٤٨) رقم (٢) .

الثانية عشرة : فيه شاهد للحديث الصحيح « الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذٰلِكَ »[1] .

الثالثة عشرة : معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان .

* * *

١١ - باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبداً ﴾ الآية [التوبة: ١٠٨] .

....

قوله : (باب لا يُذْبَحُ للهِ بِمكانٍ يُذْبَحُ فيهِ لغَيرِ اللهِ) .

أشار رحمه الله تعالى الى ما كان الناس يفعلونه في نجد وغيرها قبل دعوتهم الى التوحيد من ذبحهم للجن لطلب الشفاء منهم لمرضاهم ، ويتخذون للذبح لهم مكاناً مخصوصاً في دورهم ، فنفى الله سبحانه الشرك بهذه الدعوة الاسلامية فلله الحمد على زوال الشرك والبدع والفساد بطلعة الداعي الى توحيد رب العالمين.

قوله : « وقول الله تعالى : ﴿ لا تَقُمْ فيهِ أَبداً ﴾ الآية » أي مسجد الضرار المذكور في قوله : ﴿ وَالذينَ اتَّخذوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتفريقاً بَينَ المُؤْمِنينَ وَإرْصاداً لِمَنْ حارَبَ الله وَرَسولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إنْ أَرَدْنا إلاَّ الحُسْنَى وَالله يَشْهَدُ إنَّهُمْ لكاذِبونَ * لا تَقُمْ فيهِ أَبَداً لمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تقومَ فِيهِ ﴾ وهو مسجد قُبا فقد أسس على التقوى من أول يوم قدم فيه ﷺ المدينة مهاجراً وكان أهل مسجد الضرار قد بنوه قبل خروج النبي ﷺ الى غزوة تبوك فأتوه فسألوه أن يصلي فيه وذكروا له أنهم بنوه للضعفاء

---

(١) البخاري (٦٤٨٨) في الرقاق : باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك ، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وهو عند أحمد في « المسند » ١/ ٣٨٧ و ٤١٣ و ٤٤٢ .

قال ابن بطال : فيه أن الطاعة موصلة إلى الجنة ، وأن المعصية مقربة إلى النار ، وأن الطاعة والمعصية قد تكون في أيسر الأشياء .

وقال ابن الجوزي : معنى الحديث أن تحصيل الجنة سهل بتصحيح القصد وفعل الطاعة ، والنار كذلك بموافقة الهوى وفعل المعصية . (الفتح ١١/ ٣٢١) .

عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه ، قال : نـذر رجل أن ينحـر إبلاً ببُوَانَةَ ، فسأل النبي ﷺ فقال : « هَلْ كَانَ فِيها وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَةِ يُعْبَدُ ؟ » قالوا : لا. قال : « فَهَلْ كَـانَ فِيهَا عِيـدٌ مَنْ أَعْيَادِهِمْ ؟ » قـالوا : لا . فقـال

....

وأهل العلة في الليلة الشاتية فقال : « إنَّا عَلى سَفَرٍ ولكِنْ إذا رَجَعْنا إنْ شاءَ الله » فلما قَفَلَ عليه السلام راجِعاً إلى المدينَةِ وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَها إلاَّ يَوْمٌ أَوْ بَعْضُهُ نَزَلَ الوَحْيُ بِخبَرِ المَسْجِدِ فَبَعَثَ إلَيْهِ وَهَدَمَهُ قَبْلَ قدومِهِ إلى المدينَةِ صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ ، وَأَنْزَلَ الله فيـهِ هذِهِ الآيات . ووجه مطابقة الآية للترجمة أن هذا المسجد لما أسس على معصية الله والكفر به صار محل غضب فنهى الله نبيه ﷺ أن يقوم فيه لوجود العلة المانعة وخرج مخرج الخصوص والنهي عام ، وما كان مثله من الأمكنة فانه يعطي حكمه لأن المعصية صيرته محلاً خبيثاً وأثرت فيه بالنهي عن العبادة فيه ، ويقابل ذلك المساجد وهي أشـرف بقاع الأرض قـال تعالى : ﴿ في بُيوتٍ أَذِنَ الله أن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فيها اسْمُهُ يُسَبِّحُ لهُ فيهـا بِالْغُـدُوِّ وَالآصالِ رِجالٌ ﴾ الآية . فما أحسن هذا القياس ويأتي تقريره في الحديث في الباب إن شاء الله تعالى .

قوله : (عن ثابِتِ بنِ الضَّحَّاكِ) أي ابن خليفة الأشهلي صحابي مشهور روى عنه أبو قلابة وغيره مات سنة أربع وستين . قوله : (بِبُوانَةَ) بضم الباء وقيل بفتحها . قال البغوي : موضع في أسفل مكة دون يَلَمْلَم . قال أبو السعادات : هضبة من وراء يَنبع . قوله : (فَهَلْ كانَ فِيها وَثَنٌ مِنْ أَوْثانِ الجاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ ؟) فيه المنع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان وثن ولو بعد زواله قاله المصنف رحمه الله تعالى وهو شاهد الترجمة . قوله : (فَهَلْ كانَ فِيها عِيدٌ مِنْ أَعْيادِهِمْ ؟) قال شيخ الاسلام : العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد إما بعَوْدِ السنة أو بعَوْدِ الأسبوع أو الشهر ونحوه ، والمراد به هنا الاجتماع المعتاد من اجتماع أهل الجاهلية، فالعيد يجمع أموراً (منها) يوم عائد كيوم الفطر ويوم الجمعة. ومنها اجتماع فيه ، ومنها أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات ، وقـد يختص العيد بمكـان بعينه ، وقد يكون مطلقاً ، وكلٌ من هذه الأمور قد يسمى عيداً ، في الزمان كقول النبي ﷺ في يوم الجمعة : « إنَّ هَذا يَوْمٌ جَعَلَهُ الله للمُسْلِمينَ عِيداً »(١) ، وللاجتماع والأعمال كقول

---

(١) أحمد في « المسند » ٢/٣٠٣ و٥٣٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ومالك في « الموطأ » ١/٦٥ في الطهارة : باب ما جاء في السواك عن ابن السباق مرسلاً ، وقد وصله ابن ماجه رقم (١٠٩٨) في =

رسول الله ﷺ : « أَوْفِ بِنَذْرِكَ ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَـةِ اللهِ ، وَلَا فِيمَا يَمْلُكُ ابنُ آدَمَ »[1] رواه أبو داود ، وإسناده على شرطهما .

....

ابن عباس رضي الله عنه : شَهِدْتُ العيدَ مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ[2] ، والمكان كقول النبي ﷺ : «لا تَتَّخِذوا قَبري عيداً »[3] وقد يكون لفظ العيد اسماً لمجموع اليوم والعمل فيه وهو الغالب كقول النبي ﷺ : « دَعْهُما يا أبا بكرٍ فانَّ لِكلِّ قَوْمٍ عِيداً »[4] انتهى .

وقد أحدث هؤلاء المشركون أعياداً عند القبور التي تعبد من دون الله ويسمونها عيداً ، كمولد البدوي بمصر وغيره ، بل هي أعظم لما يوجد فيها من الشرك والمعاصي العظيمة ، قال المصنف رحمه الله تعالى : وفيه استفصال المفتي والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ولو بعد زواله .

« قلت » وفيه المنع من اتخاذ آثار المشركين محلاً للعبادة لكونها صارت محلاً لما حرم الله من الشرك والمعاصي ، والحديث وإن كان في النذر فيشمل كل ما كان عبادة لله ،

إقامة الصلاة : باب ما جاء في الزينة يوم الجمعة ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهمـا ، وهو حديث حسن .

(١) أبو داود رقم (٣٣١٣) في الأيمان والنذور : باب ما يؤمر به من الوفاء بالنذر ، واسناده صحيح ، كما قال الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٥٤٨) .

انظر كلام شيخ الاسلام ابن تيمية حول هذا الموضوع في كتابه القيم الجليل « اقتضـاء الصراط المستقيم » ص طبعة دار البيان بدمشق .

« بُوانة » هي هضبة من وراء ينبع قريبة من ساحل البحر ، وقيل : إنها بفتح الباء .

قال الخطابي : في الحديث دليل على أن من نذر طعاماً أو ذبحاً بمكة أو في غيره من البلدان لم يجز أن يجعله لفقراء غير أهل هذا المكان ، وهذا على مـذهب الشافعي وأجـازه غيره لغيـر أهل ذلـك المكان .

(٢) البخاري رقم (٩٨) في العلم : باب عظة الإمام النساء وتعليمهن ، وفي أبواب وكتب أخرى ، والنسائي ١٩٢/٣ في صلاة العيد : باب موعظة الإمام النساء بعد الفراغ من الخطبة ، وأبو داود رقم (١١٤٦) في الصلاة : باب ترك الأذان في العيد ، وأحمد ٢٤٢/١ .

(٣) وهو حديث صحيح انظر « فضل الصلاة على النبي ﷺ » لاسماعيل القاضي رقم (٢٠) و(٣٠) .

(٤) البخاري رقم (٩٤٩) في العيدين : باب الحراب والدرق يوم العيد ، ورقم (٩٥٢) باب سنة العيدين لأهل الاسلام وفي أبواب وكتب أخرى ، ومسلم رقم (٨٩٢) فيه : باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه ، والنسائي ١٩٥/٣ ـ ١٩٧ فيه : باب اللعب في المسجد يوم العيد ونظر النساء إلى ذلك ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير قوله : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ﴾ [التوبة: ١٠٧] .

الثانية : أن المعصية قد تؤثر في الأرض ، وكذلك الطاعة .

الثالثة : رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال .

الرابعة : استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك .

الخامسة : أن تخصيص البقعة بالنذر لابأس به إذا خلا من الموانع .

السادسة : المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ولو بعد زواله .

السابعة : المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهمم ولو بعد زواله .

الثامنة : أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة لأنه نذر معصية .

التاسعة : الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده .

فلا تفعل في هذه الأماكن الخبيثة التي اتخذت محلاً لما يسخط الله تعالى ، فبهذا الحديث شاهداً للترجمة ، والمصنف رحمه الله تعالى لم يرد التخصيص بالذبح ، وإنمـا ذكر الذبح كالمثال ، وقد استشكل جعل محل اللات بالطائف مسجداً ، والجواب ـ والله أعلم ـ أنه لو ترك هذا المحل في هذه البلدة لكان يخشى أن تفتتن به قلوب الجهال فيرجع الى جعله وثناً كما كان يفعل فيه أولاً ، فجعله مسجداً والحالة هذه ينسى ما كان يفعل فيه ، ويذهب به أثر الشرك بالكلية فاختص هذا المحل لهذه العلة ، وهي قوة المعارض والله أعلم .

قوله : (فَأَوْفِ بِنَذْرِكَ) وذلك لعدم المانع . قوله : « فإِنَّهُ لا وَفاءَ لِنَذْرٍ في مَعْصِيَةِ الله » . فالحديث دل على أن اتخاذ أماكن الشرك والمعاصي لا يجوز أن يعبد الله فيها ، ونذر ذلك معصية لا يجوز الوفاء به . قوله : « وَلا فِيما لا يَملكُ ابنُ آدَمَ » . قال في شرح المصابيح : يعني إذا أضاف النذر الى معين لا يملكه ، بأن قال : إن شفى الله مريضي فـللّه عليَّ أن أعتقَ عبد فلان ونحو ذلك ، فأما إذا التزم في الذِّمَّة بأن قال : إن شفى الله مريضي فلله علي أن أعتق رقبة ، وهو في تلك الحال لا يملكها ولا قيمتها ، فاذا شفى الله مريضه ثبت ذلك في ذمته . قوله : (رواه أبو داود وإسناده على شرطهما) أي البخاري ومسلم . وأبـو داود اسمـه سليمـان بن الأشعث بن إسحـاق بن بشيـر بن شـداد الازدي السجستاني صاحب الامام أحمد بن حنبل ومصنف السنن والمراسيل وغيرها ، ثقة إمـام حافظ من كبار العلماء ، مات سنة خمس وسبعين ومائتين رحمه الله تعالى .

العاشرة : لا نذر في معصية .

الحادية عشرة : لا نذر لابن آدم فيما لا يملك .

* * *

١٢ - باب من الشرك النذرُ لغير الله

وقول الله تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾ [الدهر : ٧] وقوله : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِن نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ ﴾ [البقرة : ٢٧٠] .

....

(باب مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغيرِ اللهِ)

(وقول اللهِ تعالى : ﴿ يُوفونَ بِالنَّذْرِ ﴾ الآية) .

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : أي ، يتعبدون لله تعالى فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر .

قوله : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِنْ نَذْرٍ فإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾ . قال ابن كثير: يخبر الله تعالى بأنه عالم بجميع ما يعمله العاملون من النفقات والمنذورات ، وتضمّن ذلك مجازاتهم على ذلك أوفر الجزاء للعاملين به ابتغاء وجهه . قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : وأما النذر لغير الله كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك فهو شرك ، وقال فيمن نذر للقبور ونحوها دهنا لتنوّر به ويقول : إنها تقبل النذر كما يقوله بعض المشركين : فهذا النذر معصية باتفاق المسلمين لا يجوز الوفاء به ، وكذلك إذا نذر مالاً للسَّدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة فان فيهم شبهاً من السَّدنَة التي كانت عند العُزّى ومناة يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والمجاورون هناك فيهم شبه من الذين قال فيهم الخليل عليه السلام : ﴿ مَا هٰذِهِ التَّماثيلُ التي أَنْتُمْ لها عاكِفُونَ ﴾ . فالنذر لأولئك السَّدنَة والمجاورين في هذه البقاع نذر معصية وفيه شبه من النذر لسدنة الصلبان والمجاورين عندها ، انتهى . وذلك لأن الناذر لله وحده علق رغبته به وحده لعلمه بأنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، فتوحيد القصد هو توحيد العبادة ولهذا ترتب عليه وجوب الوفاء فيما نذره طاعة لله ، والعبادة إذا صرفت لغير الله صار ذلك شركاً بالله لالتفاته الى غيره تعالى فيما يرغب فيه أو يرهب فقد جعله شريكاً لله

في العبادة ، فيكون قد أثبت ما نَفَتْه (لا إله إلا الله) من إلهية غير الله ولم يثبت ما أثبتته من الاخلاص ، وكل هذه الابواب التي ذكرها المصنف رحمه الله تعالى تدل على أن من أشرك مع الله غيره بالقصد والطلب فقد خالف ما نفته (لا إله إلا الله) فعكس مدلولها فأثبت ما نفته ونفى ما أثبتته من التوحيد ، وهذا معنى قول شيخنا : وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الابواب . فكل شرك وقع أو قد يقع فهو ينافي كلمة الاخلاص وما تضمنته من التوحيد .

قال الرافعي في شرح المنهاج : وأما النذر للمشاهد التي على قبر وليّ أو شيخ أو على اسم مَنْ حلّها من الاولياء ، أو تردد في تلك البقعة أو المشهد أو الزاوية ، أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليه أو بُنِيتْ على اسمه ، فهذا النذر باطل غير منعقد فان معتقدهم أن لهذه الاماكن خصوصيات ويرون أنها مما يدفع به البلاء ، ويستجلب بـه النعماء ، ويستشفي بالنذر لهما من الادواء ، حتى إنهم لينذرون لبعض الاحجار لما قيل لهم : إنه استند إليها عبد صالح ، وينذرون لبعض القبور السرج والشمع والزيت ويقولون : القبـر الفلاني أو المكان الفلاني يقبل النذر ، يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض أو قدوم غائب وسلامة مال وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة ، فهذا النذر على هذا الوجه باطل لا شك فيه بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقاً ، ومن ذلك نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر إبراهيم الخليل عليه السلام ولقبر غيره من الانبياء والاولياء فان الناذر لا يقصد بذلك إلا الايقاد على القبر تبركاً وتعظيماً ظاناً أن ذلك قربه فهذا مما لا ريب في بطلانه ، والايقاد المذكور محرم سواء انتفع به منتفع أم لا .

وقال الشيخ قاسم الحنفي في شرح درر البحار : النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد كأن يكون لانسان غائب أو مريض أو له حاجة فيأتي الى بعض الصلحاء ويجعل على رأسه سُترةً ويقول : يا سيدي فلان إن رد الله غائبي أو قضيت حاجتي فلك من الذهب كذا أو من الفضة كذا أو من الطعام كذا أو من الماء كذا أو من الشمع والزيت كذا، فهذا النذر باطل بالاجماع لوجوه (منها) أنه نذر لمخلوق والنذر للمخلوق لا يجوز لانه عبادة والعبادة لا تكون لمخلوق . ومنها أن المنذور له ميت والميت لا يملك شيئاً ، ومنها أنـه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله تعالى عز وجل واعتقاد ذلك كفر ـ الى أن قال : إذا علمت هذا فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت ينتقل الى ضرائح الأولياء تقرباً إليهم فحـرام باجماع المسلمين نقله عنه ابن نجيم في البحر الرائق ونقله المرشدي في تذكرته وغيرهما عنه وزاد : وقد ابتلى الناس بهذا لا سيما في مولد البدوي ، وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي رحمه الله في الرد على ما أجاز الذبح والنذر للأولياء : فهذا الذبح والنذر إن كان

وفي « الصحيح » عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ الله فَلْيُطِعْهُ ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ الله فَلَا يَعْصِهِ »[1] .

....

على اسم فلان فهو لغير الله تعالى فيكون باطلاً ، وفي التنزيل ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِما لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ ﴾ . ﴿ قُلْ إنَّ صَلاتي وَنُسُكي وَمَحيايَ وَمَماتي لِلهِ رَبِّ العالمين . لا شَريكَ لَهُ ﴾ والنذر لغير الله إشراك مع الله كالذبح لغيره . انتهى .

قوله : (وفي الصحيح) أي صحيح البخاري .

قوله : (عن عائشة) هي أم المؤمنين زوج النبي ﷺ وابنة الصديق رضي الله عنه وأعلم النساء بحديث رسول الله ﷺ تزوجها النبي ﷺ وهي بنت سبع ودخل بها وهي ابنة تسع وأفضل أزواج النبي ﷺ إلا خديجة ففيها خلاف بل لا يقال خديجة أفضل ولا عائشة أفضل ، والتحقيق أن لخديجة من الفضائل في بدء الوحي ما ليس لعائشة من سبقها الى الايمان بالنبي ﷺ وتأييده في تلك الحال التي بُدِىءَ بالوحي فيها كما في صحيح البخاري[2] وغيره مازالت كذلك حتى توفيت رضي الله عنها قبل الهجرة ، ولعائشة من العلم بالأحاديث والاحكام ما ليس لخديجة لعلمها بأحوال النبي ﷺ ونزول القرآن وبيان الحلال والحرام وكان الصحابة رضي الله عنه بعد وفاته ﷺ يرجعون إليها فيما أشكل عليهم من أحوال النبي ﷺ وحديثه ، صلوات الله وسلامه عليه ، ورضي عن أصحابه وأزواجه ، توفيت سنة سبع وخمسين رضي الله عنها .

قوله : (مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطيعَ الله فَلْيُطِعْهُ) لانه نذره لله خالصاً فوجب عليه الوفاء به فصار عبادة ، وقد أجمع العلماء على أن من نذر طاعة لشرط يرجوه كإن شفى الله مريضي فعليّ أن أتصدق بكذا ونحو ذلك وجب عليه إن حصل له ما علق نذره على حصوله ، إلا أن أبا حنيفة قال : لا يلزمه الوفاء إلا بما جنسه واجب بأصْل الشرع كالصوم وأما ما ليس كذلك فلا يُوجَبُ عليه الوفاء به .

---

(١) رواه البخاري رقم (٦٦٩٦) في الأيمان والنذور : باب النذر في الطاعة ، ورقم (٦٧٠٠) : باب النذر فيما لا يملك ، وأحمد في « المسند » ٣٦/٦ و٤١ ، وأبو داود رقم (٣٢٨٩) في الأيمان والنذور ، والترمذي رقم (١٥٢٦) في النذور : باب من نذر أن يطيع الله فليطعه ، والنسائي ١٧/٧ في الأيمان والنذور : باب النذر في المعصية ، وابن ماجه رقم (٢١٢٦) في الكفارات : باب النذر في المعصية.

(٢) البخاري رقم (٣) في بدء الوحي : باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله ﷺ .

فيه مسائل :

الأولى : وجوب الوفاء بالنذر .

الثانية : إذا ثبت كونه عبادة لله فصرفُه إلى غيره شرك .

الثالثة : أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به .

* * *

١٣ ـ باب

من الشرك الاستعاذة بغير الله

وقول الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُم رَهَقاً ﴾ [الجن: ٦] .

....

قوله : (وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ الله فلا يَعْصِهِ) زاد الطحاوي « وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمينِهِ » ، وقد أجمع العلماء أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية ، واختلفوا هل تجب فيه كفارة يمين ؟ على قولين هما روايتان عن أحمد « أحدهما » تجب وهو المذهب ، وروى عن ابن مسعود وابن عباس وبه قال أبو حنيفة وأصحابه .

قوله : (باب من الشِّرْكِ الاستِعاذَةُ بِغَيرِ اللهِ) ، الاستعاذة الألتجاء والاعتصام فالعائذ قد هرب الى ربه والتجأ إليه مما يخافه عموماً وخصوصاً ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى : وما يقوم بالقلب من الالتجاء والاعتصام به والانطراح بين يدي الرب والافتقار إليه والتذلل له أمر لا تحيط به العبارة ، انتهى ، وقد أمر الله عباده في كتابه بالاستعاذة بـه في مواضـع كقوله : ﴿ وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فاسْتَعِذْ باللهِ إنَّهُ سَميعٌ عَليمٌ ﴾ ، وقال : ﴿ فإذا قَرَأْتَ القُرْآنَ فاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ ﴾ . وفي المعوذتين وغير ذلك ، فهو عبادة لا يجوز أن تصرف لغير الله كغيرها من أنواع العبادة .

قوله : (وقول الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعوذونَ بِرِجالِ مِنَ الجِنِّ فزادوهُمْ رَهَقاً ﴾) قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى في تفسيره هذه الآية : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رجال من الانس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول : أعوذ بعزيز هذا الوادي فزادهم لذلك إثماً ، وقال بعضهم : فزاد الانسُ الجنَّ باستعاذتهم

وعن خَولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَن نَزَلَ مَنْزلاً فَقَالَ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، لَمْ

....

بالجن باستعاذتهم بعزيزهم جرأة عليهم وازدادوا هم بذلك إثماً ، وقال مجاهد : فازداد الكفار طغياناً ، وقال ابن زيد : وزادهم الجنُّ خوفاً ، وقد أجمع العلماء على أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله . وقال ملاّ عليّ قاري الحنفي رحمه الله : لا تجوز الاستعاذة بالجن فقد ذم الله الكافرين على ذلك وذكر الآية وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحشُرُهُمْ جَميعاً : يا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنا الذي أَجَّلْتَ لنا ﴾ الآية . فاستمتاع الانسي بالجني في قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشيء من المغيبات واستمتاع الجني بالانسي تعظيمه إياه واستعاذته به وخضوعه له ، انتهى ملخصاً ، قال المصنف رحمه الله تعالى : « وفيه أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك » .

(خولة بنت حكيم) بن أُمَيَّةَ السَّلِميَّة يُقالُ لها أُمُّ شَرِيكٍ ويقال إنها هي الواهبة وكانت قبل تحت عثمان بن مظعون ، قال ابن عبد البر : وكانت صالحة فاضلة .

قوله : (أَعُوذُ بِكَلماتِ اللهِ التَّامَّاتِ) شرع الله لأهل الاسلام أن يستعيذوا به لا كما يفعل أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن ، فشرع الله تعالى للمسلمين أن يستعيذوا بأسمائه وصفاته . قال القرطبي رحمه الله تعالى : قيل معناه الكاملات التي لا يلحقها نقص ولا عيب كما يلحق كلام البشر ، وقيل معناه الكافية الشافية ، قيل : الكلمات هنا هي القرآن فان الله أخبر عنه أنه هدى وشفاء ، وهذا الامر على جهة الارشاد الى ما يدفع به الأذى ، وعلى هذا فحق المستعيذ بالله تعالى وبأسمائه وصفاته أن يصدق الله في التجائه إليه ويتوكل في ذلك عليه ويحضر ذلك في قلبه ، فمن فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه ، قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا يجوز الاستعاذة = بمخلوق ، وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله ليس بمخلوق ، قالوا : لانه ثبت عن النبي ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك ، ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويذ التي لا يعرف معناها خشية أن يكون فيها شرك ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ومن ذبح للشيطان ودعاه واستعاذ به وتقرب إليه بما يحب فقد عبده إن لم يسم ذلك عبادة ، ويسميه

يَضِرْهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ »[1] . رواه مسلم

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الجن .

الثانية : كونه من الشرك .

الثالثة : الاستدلال على ذلك بالحديث ، لأن العلماء استدلوا به على أن كلمات الله غير مخلوقة ، قالوا : لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك .

الرابعة : فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره .

الخامسة : أن كون الشيء يحصل به مصلحة دنيوية من كَفِّ شر ، أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك .

....

استخداماً وصدق ، هو استخدام من الشيطان له فيصير من خدم الشيطان وعابديه ، ولذلك يخدمه الشيطان ، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة ، فان الشيطان لا يخضع له ولا يعبده كما يفعل هو به .

قوله : ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ قال ابن القيم : من شر كل ذي شَرٍّ ، في أي مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره إنسياً أو جنياً أو هامة أو دابة أو ريحاً أو صاعقة ، أي نوع كان من أنواع البلاء في الدنيا والآخرة و « ما » ها هنا موصولة ليس إلا ، وليس المراد بها العموم الاطلاقي بل المراد التقييدي الوصفي ، والمعنى من شر كل مخلوق فيه شر لا من شر كل ما

---

(١) مسلم رقم (٢٧٠٨) في الذكر والدعاء : باب في التعوذ من سوء القضاء ورواه أيضاً أحمد في « المسند » ٣٧٧/٦ و٤٠٩ ، والترمذي رقم (٣٤٣٣) في الدعوات : باب ما جاء ما يقول إذا نزل منزلاً ، وابن ماجه (٣٥٤٧) في الطب : باب الفزع والأرق وما يتعوذ منه .

١٤ ـ باب

من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

وقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ، فَإِنْ

....

خلقه الله فإن الجنة والأنبياء والملائكة ليس فيهم شر ، والشر يقال على شيئين : على الألم وعلى ما يفضي إليه(١).

قوله : (باب مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغيثَ بَغَيْرِ اللهِ تعالى أَوْ يَدْعو غَيْرَهُ) قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : الاستغاثة هي طلب الغوث وهو إزالة الشدة كالاستنصار طلب النصر ، والاستعانة طلب العون . ا هـ.

(قلت) فبين الاستغاثة والدعاء عموم وخصوص مطلق يجتمعان في مادة وهو دعاء المستغيث ، وينفرد الدعاء الذي هو مطلق الطلب أو السؤال من غير المستغيث ، وقد نهى تعالى عن دعاء غيره الأخص والأعم في كتابه ، كما يأتي بيانه : فكل ما قصد به غير الله مما لا يقدر عليه إلا الله كدعوة الأموات والغائبين فهو من الشرك الذي لا يغفره الله ، والأدلة على ذلك من القرآن والسنة أكثر من أن تحصر.

وقوله : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ، فإنْ فعَلْتَ فإنَّكَ إذا مِنَ الظالمينَ ﴾ ففي هذه الآية النهي عن أن يدعى أحد من دونه تعالى ، وأخبر تعالى أن غيره لا يضر ولا ينفع . قوله : ﴿ فإن فعلت فإنَّكَ إذاً مِنَ الظَّالمينَ ﴾ والظلم في هذه الآية هو الشرك كما قال تعالى عن لقمان : ﴿ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظيمٌ ﴾ وقوله : ﴿ وَإنْ يَمسَسْكَ الله

---

(١) قال الاستاذ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى : لا بد أن يريد بـ لألم الحسي والمعنوي ، ولو قال الضرر لكان أعم ، ولعله تفسير للشر في الحديث ، لا للشر المطلق . وقال الراغب : الشر الذي يرغب عنه كل الناس والخير ضده ، وقسمهما إلى مطلق ومقيد ، ويرد عليه ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ ، وأطلق في القرآن على العمل وعلى المكان وعلى الكفار ، وعلى الصم البكم الذين لا يعقلون الشيء ، وهو أعم الألفاظ . ١هـ .

فَعلْتَ فإنَّكَ إذاً مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُوَ ﴾ الآية [يونس : ١٠٦-١٠٧] ﴿ فَابْتغُوا عِنْدَ الله الرِّزْقَ واعْبُدُوهُ ﴾ [العنكبوت: ١٧] . وقوله : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ الله مَن لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إلَى يَوْمِ القِيامَةِ ﴾ الآيتان [الأحقاف: ٥-٦] . وقوله : ﴿ أَم مَن يُجِيبُ المُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل: ٦٢].

....

بِضُرٍّ فلا كاشِفَ لَهُ إلاَّ هُوَ ﴾ هذا في حق المستغيث ، أخبر الله تعالى أنه هو الذي يتفضل على من سأله ولا يقدر أحد أن يمنعه شيئاً من فضل الله عليه فهو المعطي والمانع ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، وفي هذا المعنى ما في حديث ابن عباس وفيه : « وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لِو اجْتَمعوا عَلَى أَنْ يَنْفَعوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعوكَ إلَّا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ»[1]، فمن تدبر هذه الآية وما في معناها علم أن ما وقع فيه الأكثر من دعوة غير الله هو الظلم العظيم ، والشرك الذي لا يغفر ، وأنهم قد أثبتوا ما نفته لا إله إلا الله من الشرك في الالهية ، ونفوا ما أثبتته من الاخلاص كما قال تعالى : ﴿ فاعْبُدِ الله مُخلِصاً لهُ الدِّينَ ، ألاَ لله الدِّين الخالِصُ ﴾ والدين هو طاعة الله فيما أمر به وشرعه ونهى عنه وحرمه ، وأعظم ما أمر به التوحيد والاخلاص وأن لا يقصد العبد بشيء من عمله سوى الله تعالى الذي خلقه لعبادته ، وأرسل بذلك رسله ، وأنزل به كتبه ﴿ لِئَلَّا يكونَ لِلنَّاسِ عَلى الله حُجَّة بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ ، وأعظم ما نهى عنه الشرك به في ربوبيته وإلهيته . قوله : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَنْ يَدْعو مِنْ دونِ الله مَنْ لَا يَسْتَجيبُ لهُ الى يَوْمِ القِيامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلونَ * وَإذا حُشِرَ النَّاسُ كانوا لهُمْ أعْداءً وكانوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ ﴾ فهذه الآية تبين وتوضح ما تقرر في الآية قبلها ، فأخبر تعالى أنه لا أضل ممن يدعو أحداً من دونه كائناً من كان ، وأخبر أن المدعو لا يستجيب لما طلب منه من ميت أو غائب أو ممن لا يقدر على الاستجابة مطلقاً من طاغوت ووثن ، فليس لمن دعا غير الله إلا الخيبة والخسران ، ثم قال تعالى : ﴿ وَهُمْ عَن دُعائهم غافِلون ﴾كما قال في آية يونس : ﴿ وَيَوْمَ نَحشُرُهُمْ جميعاً ثمَّ نقولُ لِلذينَ أَشْرَكوا مَكانكُمْ أَنْتُم وَشُركاؤُكُمْ ﴾ ، الى قوله : ﴿ فكَفى بِالله شَهيداً بَيْننا وَبَيْنَكُمْ ، إنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لغافِلينَ ﴾، ثم قال : ﴿ وَإذا حُشِرَ النَّاسُ كانوا لهمْ أعْداءً وكا وا بِعِبادتِهِمْ كافِرينَ ﴾ فلا يحصل للمشرك يوم القيامة إلا نقيض قصده ، فيتبرأ منه ومن عبادته وينكر ذلك عليه أشد الانكار ، وقد صار المدعو

---

(١) تقدم تخريجه ص (٥٣) رقم (٢) .

وروى الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق . فقال النبي ﷺ : « إِنَّهُ لاَ يُسْتَغَاثُ بِيَ ، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ »[١] .

....

للداعي عدوّاً ، ثم أخبر تعالى أن ذلك الدعاء عبادة بقوله : ﴿ وَكانوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرينَ ﴾ ، فدلت أيضاً على أن دعاء غير الله عبادة له وأن الداعي له في غاية الضلال ، وقد وقع من هذا الشرك في هذه الأمة ما طمَّ وعمَّ حتى أظهر الله من يبينه بعد أن كان مجهولاً عند الخاصة والعامة إلا من شاء الله تعالى وهو في الكتاب والسنة في غاية البيان ، لكن القلوب انصرفت إلى ما زين لها الشيطان كما جرى للأمم مع الأنبياء والمرسلين لما دعوهم الى توحيد الله: جرى لهم من شدة العداوة ما ذكره الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ كَذلِكَ ما أتى الَّذينَ مِن قَبْلِهِمْ من رَسولٍ إلاّ قالوا ساحِرٌ أَوْ مجنونٌ * أتواصَوْا بِهِ بَل هُمْ قَوْمٌ طاغونَ ﴾ ويشبه هذه الآية في المعنى ﴿ ذٰلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ وَالَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دونِهِ ما يَملِكونَ مِنْ قِطْميرٍ * إنْ تدْعُوهُمْ لا يَسْمَعوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعوا ما اسْتَجابوا لَكُمْ وَيَوْمَ القِيامَةِ يَكْفُرونَ بِشِرْكِكُمْ ، وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبيرٍ ﴾ ، أخبر الله تعالى أن ذلك الدعاء شرك بالله وأنه لا يغفره لمن لقيه به ، فتدبر هذه الآيات وما في معناها كقوله : ﴿ وَأَنَّ المساجِدَ لِله فلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً ﴾ ، ﴿ قُلْ إنَّما أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً ﴾ وهو في القرآن أكثر من أن يستقصى .

قوله : ﴿أَمْ مَنْ يُجيبُ المُضْطَرَّ إذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجعَلُكُمْ خلفاءَ الأَرْضِ ءإِلٰهٌ مَعَ اللهِ؟﴾ وهذا مما أقرب به مشركو العرب وغيرهم في جاهليتهم كما قال تعالى : ﴿ فإذا رَكِبوا في الفُلْكِ دَعَوْا اللهَ مُخلِصينَ لَهُ الدِّينَ ، فلمَّا نَجَّاهُمْ الى البَرِّ إذا هُمْ يُشْرِكون ﴾ أخبر تعالى أنهم يخلصون الدعاء له إذا وقعوا في شدة . قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى : يقول تعالى : ﴿ ءَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ ﴾ يفعل هذه الأشياء بكم وينعم عليكم؟ وقوله : ﴿قليلاً ما تَذَكَّرونَ﴾ يقول تذكراً قليلاً من عظمة الله وأياديه عندكم تذكرون وتعتبرون حجج الله عليكم يسيرا فلذلك أشركتم بالله غيره في عبادته .

---

(١) وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٥٩/١٠ ، وقال الطبراني : ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث « أقول : وابن لهيعة خلط بعد احتراق كتبه » . وأخرجه أحمد في « المسند » ٣١٧/٥ ولفظه عنده ، فقال النبي ﷺ : « لا يقام لي ، إنما يقام لله تبارك وتعالى » ، وفي سنده أيضاً ابن لهيعة رواوٍ لم يسم، وانظر « مجمع الزوائد » (٤٠/٨)

فيه مسائل :

الأولى : أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص .

الثانية : تفسير قوله : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ [يونس: ١٠٦] .

الثالثة : أن هذا هو الشرك الأكبر .

الرابعة : أن أصلح الناس لو يفعله إرضاءً لغيره صار من الظالمين .

الخامسة : تفسير الآية التي بعدها .

السادسة : كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفراً .

السابعة : تفسير الآية الثالثة .

الثامنة : أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله ، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه .

التاسعة : تفسير الآية الرابعة .

(وروى الطبراني) هو الامام الحافظ سليمان بن احمد بن أيوب اللخمي الطبراني صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها ، روي عن النسائي وإسحاق بن إبراهيم الديري وخلق كثير ، مات سنة ستين وثلاثمائة روى هذا الحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه . قوله: (فَقَالَ بَعْضُهُمْ : قوموا بِنا نَسْتَغيثُ بِرَسولِ اللهِ ﷺ مِنْ هذا المُنافِقِ) الحديث ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : إن النبي ﷺ كان يقدر أن يغيثهم منه (قلت) : فلعله أراد أن النبي ﷺ كان يقدر أن يترك المنافقين يُفْعَلُ بهم ما يستحقونه ولكنه لم يفعل مخافة أن يفتتن بعض المؤمنين من قبيلة المنافق ، وفي السنة ما يدل على ذلك كما فعل مع ابن أُبي وغيره . وقيل : إن النبي ﷺ كان يقدر أن يغيثهم من ذلك المنافق فيكون نهيه ﷺ عن الاستغاثة به حماية لجناب التوحيد وسداً لذرائع الشرك كنظائره مما للمستغاث به قدرة عليه مما كان يستعمل لغة وشرعاً مخافة أن يقع من أمته الاستغاثة بمن لا يضر ولا ينفع ، ولا يسمع ولا يستجيب من الأموات والغائبين والطواغيت والشياطين والأصنام وغير ذلك ، وقد وقع من هذا الشرك العظيم ما عمت به البلوى كما تقدم ذكره حتى أنهم أشركوهم مع الله في ربوبيته وتدبير أمر خلقه كما أشركوهم معه في إلهيته وعبوديته ، والوسائل لها حكم الغايات في النهي عنها والله أعلم .

العاشرة : أنه لا أضل ممن دعا غير الله .
الحادية عشرة : أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه .
الثانية عشرة : أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له .
الثالثة عشرة : تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو .
الرابعة عشرة : كفر المدعو بتلك العبادة .
الخامسة عشرة : أن هذه الأمور سبب كونه أضل الناس .
السادسة عشرة : تفسير الآية الخامسة [من سورة الأحقاف] .
السابعة عشرة : الأمر العجيب وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله ، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين .
الثامنة عشرة : حماية المصطفى ﷺ حمى التّوحيد والتأدب مع الله عز وجل .

* * *

١٥ ـ باب [في التوحيد وغربة الدين]

قول الله تعالى : ﴿ **أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُم يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُم نَصْراً** ﴾ الآية [الأعراف : ١٩١-١٩٢] . وقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ** ﴾ الآية [فاطر: ١٣].

قوله : باب قول الله تعالى : ﴿ **أَيُشْرِكونَ مَا لا يَخلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقونَ وَلا يَسْتَطيعونَ لهمْ نَصْراً وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرونَ** ﴾ وهذا مما احتج به تعالى على المشركين لما وقع منهم من اتخاذ الشفعاء والشركاء في العبادة لأنهم مخلوقون فلا يصلح أن يكونوا هم شركاء لمن هم خلقه وعبيده ، وأخبر أنهم مع ذلك لا يستطيعون لهم نصراً أي لمن سألهم النصرة « وَلا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرونَ » فاذا كان المدعو لا يقدر أن ينصر نفسه فلأن لا ينصر غيره من باب الأولى ، فبطل تعلق المشرك بغير الله بهذين الدليلين العظيمين وهو كونهم عبيداً لمن خلقهم لعبادته والعبد لا يكون معبوداً ، (الدليل الثاني) أنه لا قدرة لهم على نفع أنفسهم فكيف يرجى منهم أن ينفعوا غيرهم ، فتدبر هذه الآية وأمثالها في القرآن العظيم ، وقوله : ﴿ **وَالذينَ تَدْعونَ مِنْ دونِهِ مَا يَملِكونَ مِنْ قِطْمير ، إنْ تَدْعوهُمْ لا يَسْمَعوا دُعاءَكُمْ**

وفي « الصحيح » عن أنس قال : شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَكُسِرَتْ

....

وَلَوْ سَمِعوا مَا آسْتَجابوا لكُمْ ﴾ـ الى قوله ـ ﴿ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبيرٍ ﴾ ابتدأ تعالى هذه الآيات بقوله : ﴿ ذٰلِكُمْ الله رَبُّكُمْ لهُ المُلْكُ ﴾ يخبر الخبير أن الملك له وحده والملوك وجميع الخلق تحت تصرفه وتدبيره ، ولهذا قال : ﴿ وَالَّذين تَدْعونَ مِنْ دونِهِ مَا يَمْلِكونَ مِنْ قِطْميرٍ ﴾ فإن من كانت هذه صفته فلا يجوز أن يرغب في طلب نفع أو دفع ضر الى أحد سوى الله تعالى وتقدس ، بل يجب إخلاص الدعاء له الذي هو من أعظم أنواع العبادة ، وأخبر تعالى أن ما يدعوه أهل الشرك لا يملك شيئاً وأنهم لا يسمعون دعاء من دعاهم ولو فرض أنهم يسمعون فلا يستجيبون لداعيهم وأنهم يوم القيامة يكفرون بشركهم أي ينكرونه ويتبرؤن ممن فعله معهم ، فهذا الذي أخبر به الخبير ﴿ الَّذي لا يَخفى عَلَيْهِ شَيءٌ في الأَرْضِ وَلا في السَّماء ﴾ وأخبر أن ذلك الدعاء شرك به وأنه لا يغفره لمن لقيه به ، فأهل الشرك ما صدقوا الخبير ولا أطاعوه فيما حكم به وشرع ، بل قالوا : إن الميت يسمع ، ومع سماعه ينفع ، فتركوا الاسلام والايمان رأساً كما ترى عليه الأكثرين من جهلة هذه الأمة .

قوله في الصحيح عن أنسٍ قال : « شَجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَكُسِرَتْ رَباعِيَتُهُ » فقال : « كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ ؟ » فنزلت ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيءٌ ﴾ الآية وفيه عن ابن عمر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر : « اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلاناً وَفُلاناً » بَعْدَ مَا يَقُولُ : « سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ » فأَنزَلَ الله تعالى : ﴿ لَيسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيءٌ ﴾ الآية وفي رواية « يَدعُو عَلى صَفْوانِ بن أُمَيَّةَ وَسُهَيْلِ بن عَمروٍ وَالحَارِثِ بنِ هِشامٍ » فنزلت ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيءٌ ﴾ وأسلم هؤلاء وحسن إسلامهم .

قوله : (في الصحيح) أي الصحيحين علقه البخاري عن حميد عن ثابت عن أنسٍ ، ووصله أحمد والترمذي والشافعي عن حميد عن أنس ، وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِله ﴾ . وقال تعالى : ﴿ أَلا لهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تبارَكَ الله رَبُّ العالمينَ ﴾ . والآيات في هذه المعنى كثيرة ، والمقصود أن الذي له الأمر كله والملك كله لا يستحق غيره شيئاً من العبادة ، ولهذا المعنى قال لنبيه ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ آللهَ يَهْدي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمَ بِالمُهْتَدينَ ﴾ فالذي ليس له من الأمر شيء هو وخيرة الله من خلقه ما زال يدعو الناس أن يخلصوا العبادة للذي له الأمر كله وهو الله تعالى ، فهذا دينه ﷺ الذي بعث به وأمر أن يبلغه أمته ويدعوهم إليه ، كما تقدم في باب الدعاء الى شهادة أن لا إله إلا الله ، فاياك أن تتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين الذي شرعه الله ورسوله لهم ونصهم به .

رَبَاعِيَتُهُ ، فقال : « كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ ؟ » فنزلت : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[1] [آل عمران : ١٢٨-١٢٩] .

و « فيه » عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر : « اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلاناً وفُلاناً » بعدما يقول : « سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ » فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ وفي رواية : « يدعو على صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام ، فنزلت ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[2] .

و« فيه » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قام رسول الله ﷺ حين أُنزل عليه : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] قال : « يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ـ أو

قوله : (وفيه عن أبي هريرة) أي في صحيح البخاري ، واختلف في اسم أبي هريرة وصححه النووي أن اسمه عبد الرحمن بن صخر، وهو دوسي من حفاظ الصحابة ، حفظ من الحديث ما لم يحفظه غيره ، كما في صحيح البخاري عن وهب بن منبه عن أخيه : سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول : ما من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فانه كان يكتب ولا أكتب[3]. مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين ، وهو ابن ثمان وسبعين سنة ، وهذا الحديث له طرق كثيرة في الصحيحين والمسند والسنن وغيرها . قوله (« يا معشرَ قريش » أو كلمة نحوها « اشتروا أنفسَكم ») ،

---

(١) رواه البخاري معلقاً ٣٦٥/٧ في المغازي : غزوة أحد ، باب قوله تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ ، قال البخاري : قال حميد وثابت عن أنس : شج النبي ﷺ يوم أحد فقال : « كيف يفلح قوم شجوا نبيهم » فنزلت ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ . أما حديث حميد فوصله أحمد والترمذي والنسائي من طرق عن حميد ، وأما حديث ثابت فوصله مسلم (١٧٩١) في الجهاد والسير : باب غزوة أحد ، من رواية حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضي الله عنه.

قوله : « شجَّ » : أي حصل جرح في رأسه الشريف ، والجراحة إذا كانت في الوجه أو الرأس تسمى شجة.

(٢) البخاري رقم (٤٠٦٩ ـ ٤٠٧٠) في المغازي : باب قوله تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ ، ورقم (٤٥٥٩) في التفسير : باب ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ ، ورقم (٧٣٤٦) في الاعتصام بالكتاب والسنة : باب قول الله تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ .

(٣) البخاري رقم (١١٣) في العلم: باب كتابة العلم، والترمذي (٢٦٧٠).

كلمة نحوها ـ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، يا عَبَّاسُ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْت مُحَمَّدٍ ، سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً »[1] .

أي بالايمان بالله ورسوله واتباعه فيما جاءكم به ، مما أنزل عليه من توحيد الله تعالى في العبادة، وترك ما كنتم تعبدونه من دونه من الأوثان والأصنام، فانهم بعد ذلك الشرك صاروا عبيداً لمن لا يضر ولا ينفع ، ولا يستجيب ولا يسمع إلا هو وهم قد عرفوا أن ما كانوا يفعلونه من عبادة غير الله شرك بالله ، فانهم كانوا يقولون في تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك » . فسبحان الله كيف جاز في عقولهم أن المملوك يكون شريكا لمالكه ، وقد قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فيما رَزَقْناكُمْ فأَنْتُمْ فيهِ سَواءٌ تَخافونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ؟ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ ، بَلِ اتَّبَعَ الَّذينَ ظَلَموا أَهْواءَهُمْ بِغَيرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدي مَنْ أَضَلَّ الله وَما لهمْ مِنْ ناصِرينَ ﴾ .

قوله: « لا أُغْني عَنْكُمْ مِنَ آللهِ شَيْئاً » هذا هو معنى ما تقدم من أنه تعالى هو المتصرف في خلقه بما شاء مما اقتضته حكمته في خلقه وعلمه بهم ، والعبد لا يعلم إلا ما علمه الله ، ولا ينجو أحد من عذابه وعقابه إلا باخلاص العبادة له وحده والبراءة من عبادة ما سواه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكُ بِاللهِ فقَدْ حَرَّمَ آلله عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْواهُ النَّارُ وما للظّالمينَ مِنْ أَنْصارٍ ﴾ ، والنبي ﷺ في هذا الحديث أنذر الاقربين نذارة خاصة ، وأخبر أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً ، وبلغهم وأعذر إليهم ، فأنذر قريشاً ببطونها وقبائل العرب في مواسمها ، وأنذر عمه وعمته وابنته وهم أقرب الناس إليه ، وأخبر أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً ، إذا لم يؤمنوا به ويقبلوا ما جاء به من التوحيد وترك الشرك به .

---

(١) البخاري رقم (٢٧٥٣) في الوصايا : باب هل يدخل النساء والأولاد في الأقارب ، ورقم (٣٥٣٧) في الأنبياء : باب من انتسب إلى آبائه في الاسلام والجاهلية ، ورقم (٤٧٧١) في تفسير سورة الشعراء : باب ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ، ومسلم رقم (٢٠٦) في الإيمان : باب قوله تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ، والترمذي رقم (٣١٨٤) في التفسير : باب ومن سورة الشعراء ، والنسائي ٢٤٨/٦ ، في الوصايا : باب إذا أوصى لعشيرته الأقربين .

فيه مسائل :

الأولى تفسير الآيتين .

الثانية : قصة أحد .

الثالثة : قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء يؤمِّنون في الصلاة .

الرابعة : أن المدعو عليهم كفار .

الخامسة : أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار . منها : شجهم نبيهم وحرصهم على قتله ، ومنها التمثيل بالقتلى مع أنهم بنو عمهم .

السادسة : أنزل الله عليه في ذلك ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ** ﴾ [آل عمران : ١٢٨] .

السابعة : قوله : ﴿ **أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِم أَوْ يُعَذِّبَهم فَإِنَّهُم ظَالِمُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٢٨] ، فتاب عليهم فآمنوا .

الثامنة : القنوت في النوازل .

التاسعة : تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم .

العاشرة : لعنة المعيَّن في القنوت .

قوله : (سَليني مِنْ مالي مَا شِئْتِ) لأن هذا هو الذي يقدر عليه ﷺ وما كان أمره الى الله سبحانه فلا قدرة لأحد عليه كما في هذا الحديث . ولما مات أبو طالب وكان يحوط رسول الله ﷺ ويحميه ولم ينكر ملة عبد المطلب من الشرك بالله . وقال ﷺ : « لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك » ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **مَا كانَ لِلنَّبِيِّ وَالّذينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِروا لِلمُشْرِكينَ وَلَوْ كانوا أُولي قُرْبى مِنْ بَعْدِما تَبَيَّنَ لهمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الجحيمِ** ﴾ فأخبر أن أبا طالب من أصحاب النار لما مات على غير شهادة أن لا إله إلا الله فلم ينفعه حمايته النبي ﷺ من أن يكون من المشركين ولا الاعتراف بأن النبي ﷺ على الحق بدون البراءة من الشرك لأنه لم يبرأ من ملة أبيه ، فكل تعلق على غير الله ، من طلب لشفاعة أو غيرها ، شرك بالله يكون عليه وبالاً في الدنيا والآخرة ، والشفاعة لا تكون إلا لأهل الاخلاص خاصة كما قال تعالى : ﴿ **وَأَنْذِرْ بِهِ الّذين يَخافونَ أَنْ يُحْشَروا إلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفيعٌ** ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة ، وكذلك الأحاديث ، والله أعلم ، وسيأتي في باب الشفاعة شاء الله تعالى .

الحادية عشرة : قصته ﷺ لما أنزل عليه : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] .

الثانية عشرة : جدّه ﷺ في هذا الأمر ، بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون ، وكذلك لو يفعله مسلم الآن .

الثالثة عشرة : قوله للأبعد والأقرب : « لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً » حتى قال : « يَا فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئاً » فإذا صرح ﷺ وهو سيد المرسلين أنه لا يغني عن سيدة نساء العالمين ، وأمن الانسان أنه لا يقول إلا الحق ، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس الآن ، تبين له التوحيد وغربة الدين .

* * *

١٦ - باب [في بيان الحجة على ابطال الشرك]

قول اللهِ تَعالَى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِم قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُم قَالُوا : الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ ﴾ [سبأ :٢٣].

قوله : ﴿ حَتَّى إذا فُزِّعَ عَنْ قلوبِهِمْ ﴾ أي زال عنها الفزع قاله ابن عباس وغيره . ذكر تعالى هذه الآية في سياق قوله : ﴿ قُلِ ادْعوا الّذينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دونِ اللهِ لا يَملِكونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ وَلا في الأَرْضِ ﴾ وقال ابن جرير : قال بعضهم : الذين فزع عن قلوبهم الملائكة قالوا : وإنما فزع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماع كلام الله عز وجل بالوحي . قال ابن كثير : وهو الحق الذي لا مرية فيه لصحة الاحاديث فيه والآثار ، وقال أبو حيان تظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أن قوله : ﴿ حتى إذا فُزِّعَ عَنْ قلوبِهِمْ ﴾ إنما هي في الملائكة إذا سمعت الوحي الى جبريل وأمر الله تعالى به سمعت كجر السلسلة الحديد على الصفوان فتفزع عند ذلك تعظيماً وهيبة قال : وبهذا المعنى من ذكرالملائكة في صدر الآيات تتسق هذه الآية على الأولى، ومن لم يشعر أن الملائكة مشار إليهم من أول قوله : ﴿ الذينَ زَعَمْتُمْ ﴾لم تتصل هذه الآية بما قبلها . وهذه الآيات تقطع عروق الشرك بأمور أربعة : (الاول) أنهم لا يملكون مثقال ذرة مع الله ، والذي لا يملك مثقال ذرة في السموات والارض لا ينفع ولا يضر فهو تعالى هو الذي يملكهم ويدبرهم ويتصرف فيهم

وفي «الصحيح»[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذَا قَضَى الله الأَمْرَ في السَّمَاءِ ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِها خُضْعَاناً لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ

....

وحده. (الثاني) قوله: ﴿وَمَا لهم فِيهما مِنْ شِرْكٍ﴾ أي في السموات والأرض أي وما لهم شرك مثقال ذرة من السموات والارض. (الثالث) قوله: ﴿ وَمَا لهُ مِنهُم مِنْ ظَهيرٍ ﴾ والظهير المعين فليس لله معين من خلقه بل هو الذي يعينهم على ما ينفعهم لكمال غناه عنهم، وضرورتهم إلى ربهم فيما قل وكثر من أمور دنياهم وأخراهم. (الرابع) قوله: ﴿ وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إلاّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ فلا يشفع عنده أحد إلا باذنه. وأخبر تعالى أن من اتخذ شفيعاً من دونه حرم شفاعة الشفعاء قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدونَ مِنْ دونِ ٱللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقولونَ هٰؤُلاءِ شُفَعاؤنا عِنْدَ ٱللهِ * قلْ أَتنبِّئونَ ٱللهَ بِما لا يَعْلَمُ في السَّمٰواتِ وَلا في الأَرْضِ ؟ سُبْحانَهُ وتعالى عَما يُشْرِكونَ ﴾ لان اتخاذ الشفعاء شرك لقوله تعالى في حقهم ﴿ سُبْحانَهُ وتَعالى عَما يُشركونَ ﴾ والمشرك مَنفية عنه الشفاعة في حقه كما قال تعالى: ﴿ فما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعينَ ﴾ وقال: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمونا فرادى كما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلناكُم وَراءَ ظُهورِكُم وَمَا نرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُم الَّذينَ زَعَمتُمْ أَنَّهُمْ فيكُمْ شُرَكاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمونَ ﴾ وذلك أن متخذ الشفيع لا بد أن يرغب إليه ويدعوه ويرجوه ويخافه ويحبه لما يؤمله منه، وهذه من أنواع العبادة التي لا يصرف منها شيء لغير الله وذلك هو الشرك الذي ينافي الاخلاص.

قوله: (في الصحيح) أي صحيح البخاري ففي هذا الحديث ان من عرف الله تعالى ذل له تعظيماً ومهابة وخوفاً لا سيما عند سماع كلامه تعالى لان قوله «إذَا قَضى الله الأَمرَ» أي بكلامه ووحيه الى جبريل، وقوله « في السماءِ » يدل على العلو ففيه إثبات كلام الله وعلوّه على خلقه على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل، وهذا الحديث ونحوه مما احتج به أهل السنة على الجهمية والأشاعرة والكلابية وغيرهم من أهل البدع ممن ألحد بالتعطيل في أسماء الله وصفاته. قوله: « خَضَعاناً » مصدر خَضَع. قوله: « لِقَوْلِهِ » صريح في أنهم سمعوا قوله وأنه بصوت وأن ذلك ينفذ جميع الملائكة أي

---

(١) البخاري رقم (٤٧٠١) في تفسير سورة الحجر: باب ﴿ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾، ورقم (٤٨٠٠) في تفسير سورة سبأ: باب ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾، ورقم (٧٤٨١)، في التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له . . . ﴾.

سِلْسِلَةٌ عَلَىٰ صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذٰلِكَ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِم قَالُوا مَـاذَا قَالَ رَبُّكُم قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ ﴾ . فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقو السَّمْعِ ـ وَمُسْتَـرِقُ السَّمْعِ ، هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ ، وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَها وَبَدَّدَ أَصابِعَهُ ـ فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيها إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ ، ثُم يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ ، حَتَّىٰ يُلْقِيها عَلىٰ لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الكَاهِنِ ، فَرُبَّما أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيهَـا ، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِئَةَ كِذْبَةٍ . فَيُقَالُ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا [وَكَذَا] : كَذَا وَكَذَا ؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ » .

وعن النَّوَّاسِ بن سمعان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا أَرادَ الله تَعَالَىٰ أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالوَحْيِ ، أَخَذَتِ السَّماواتُ مِنْهُ رَجْفَة ـ أَوْ

....

يسمعونه كلهم ، قـوله : ﴿ حَتَّى إذا فُـزِّعَ عَنْ قلوبِهِمْ ﴾ أي زال عنها الفـزع . قولـه : « فَيَسْمَعُهـا مُسترِقُ السَّمـعِ » أي الكلمة التي سمعتهـا الملائكـة وتحدثـوا بها ، قـوله : « وَمُسترِقُ السَّمْعِ بَعضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ هَكَذَا وَصَفَهُ سُفْيانُ » راوي الحديث وهـو ابن عيينة (بِكَفِهِ) . .

قوله : (فيسمع الكلمة) يعني مسترق السمع (فيلقيها إلى من تحته) من الشياطين (ثم يلقيها الآخر إلى مَنْ تحتَه حتى يلقيَها على لسان الساحر أو الكاهنِ) الحديث قوله : (فيكذب معها) أي الساحر أو الكاهن مائة كذبة(فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ التي سُمِعَتْ مِنَ السَّماءِ) لقبول الناس للباطل.

قوله : (وعن النَّواسِ بن سِمعان) وسمعان بكسر السين ، ابن خالد الكلابي ويقال له الانصاري ، صحابي ويقال إن أباه صحابي أيضاً . وقوله : (إذا أرادَ الله تَعالى) فالارادة صفة من صفات الله عز وجل وهي نوعان شرعية وقدرية كما قال تعالى : ﴿ وَإذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفيها ﴾ الأية ﴿ فأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما ﴾ وقال : ﴿ إنَّما أَمْرُهُ إذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقولَ لهُ كُنْ فيكونُ ﴾ ونحو هذه الأيات . قوله : (أن يُوحِيَ بِالأمْرِ) فيه بيان معنى ما تقدم في الحديث قبله من قوله « إذا قضى الله الامر » .

قوله : (تَكلَّمَ بِالوَحْي) فيه التصريح بأنه يتكلم بالوحي فيوحيـه الى جبريـل عليه السلام ففيه الرد على الأشاعرة في قولهم إن القرآن عبارة عن كلام الله . قوله : (أَخَذَتِ

قَالَ رَعْدَةً شَدِيدَةً ـ خَوْفاً مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ . فَإِذَا سَمِعَ ذٰلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صَعِقُوا وَخَرُّوا للهِ سُجَّداً ، فَيَكُونُ أولَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ ، فَيُكَلِّمَهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَىٰ المَلَائِكَةِ كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا : مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ : قَالَ : ﴿ **الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ** ﴾ فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ . فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالوَحْيِّ إِلَىٰ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ »(١) .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآية .

....

السَّمٰواتِ منه رَجْفَةٌ ـ أَوْ قالَ رِعْدَةٌ شديدَةٌ ـ خَوْفاً مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ) في هذه معرفة عظمة الله ويوجب للعبد شدة الخوف منه تعالى وفيه إثبات العلو . قوله: (فإذا سَمِعَ ذلكَ أَهْلُ السَّمٰواتِ صَعِقوا وَخَرُّوا للهِ سُجَّداً) هيبة وتعظيماً لربهم وخشية لما سمعوا من كلامه تعالى وتقدس . قوله : « فَيكونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رأسَهُ جبريلُ » لانه ملك الوحي عليه السلام . قوله : (فَيُكَلِّمُهُ آللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِما أَرادَ) فيه التصريح بأنه تعالى يوحي الى جبريل بما أراده من أمره كما تقدم في أول الحديث . قوله : (ثمَّ يَمُرُّ جبريلُ على المَلائِكَةِ كُلَّما مَرَّ بِسَماءٍ سَأَلَهُ مَلائِكَتُها) وهذا أيضاً من أدلة علو الرب تعالى وتقدس . قوله : « مَاذا قالَ رَبُّنا يا جبريلُ ؟ فيَقول : ﴿ **قالَ الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبيرُ** ﴾ فيَقولون كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قالَ جِبريلُ فَيَنْتَهي جِبريلُ بِالْوَحْيِ إلى حَيْثُ أَمَرَهُ آللهُ عَزَّ وَجَلَّ) وهذا دليل بأنه تعالى قال ويقول . وأهل البدع من الجهمية ومن تلقى عنهم كالأشاعرة جحدوا ما أثبته الله تعالى في كتابه وأثبته رسوله ﷺ في سنته من علوه وكلامه وغير ذلك من صفات كماله التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله والمؤمنون من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أهل السنة والجماعة على ما يليق بجلال الله وعظمته ـ تشبيهات اختلقوها ما أنزل الله بها من سلطان .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم والطبراني من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه قال ابن كثير رحمة الله : وقد روى ابن أبي حاتم من حديث العوفي عن ابن عباس وعن قتادة أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله تعالى الى محمد ﷺ ، بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى عليه السلام ، ولا شك أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية.

الثانية : ما فيها من الحجة على إبطال الشرك ، خصوصاً من تعلق على الصالحين ، وهي الآية التي قيل : إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب .

الثالثة : تفسير قوله : ﴿ قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ ﴾ .

الرابعة : سبب سؤالهم عن ذلك .

الخامسة : أن جبريل هو الذي يجيبهم بعد ذلك بقوله : «قال كذا وكذا» .

السادسة : ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل

السابعة : أنه يقوله لأهل السماوات كلهم ، لأنهم يسألونه .

الثامنة : أن الغشي يعم أهل السماوات كلهم .

التاسعة : ارتجاف السماوات لكلام الله .

العاشرة : أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله .

الحادية عشرة : ذكر استراق الشياطين .

الثانية عشرة : صفة ركوب بعضهم بعضاً .

الثالثة عشرة : إرسال الشهب .

الرابعة عشرة : أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وتارة يلقيها في أذن وليه من الأنس قبل أن يدركه .

الخامسة عشرة : كون الكاهن يصدق في بعض الأحيان .

السادسة عشرة : كونه يكذب معها مائة كذبة .

السابعة عشرة : أنه لم يصدق كذبه إلَّا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء .

الثامنة عشرة : قبول النفوس للباطل ، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة ؟!

التاسعة عشرة : كونهم يلقي بعضهم إلى بعض تلك الكلمة ويحفظونها ويستدلون بها .

العشرون : إثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة .

الحادية والعشرون : التصريح بأن تلك الرجفة والغشي خوفاً من الله عز وجل .

الثانية والعشرون : أنهم يخرُّون لله سجداً .

١٧ ـ باب الشفاعة

وقول الله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِم لَيْسَ لَهُم مِن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ ﴾ [الأنعام: ٥١] .

قوله : (باب الشفاعة) الشفاعة نوعان ، شفاعة منفية في القرآن ، وهي الشفاعة للكافر والمشرك . قال تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ ﴾ وقال : ﴿ فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ . وقال : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجزي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنها عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرونَ ﴾ ونحو هذه الآيات كقوله : ﴿ وَيَعْبُدونَ مِنْ دونِ آللهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقولونَ هٰؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ آللهِ * قُلْ أَتُنَبِّئونَ آللهَ بِما لا يَعْلَمُ في السَّمواتِ وَلا في الأَرْضِ ﴾ . يخبر تعالى أن من اتخذ هؤلاء شفعاء عند الله ، أنه لا يعلم أنهم يشفعون له بذلك وما لا يعلمه لا وجود له ، فنفى وقوع هذه الشفاعة وأخبر أنها شرك بقوله : ﴿ سُبْحانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكونَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَالذينَ اتَّخَذوا مِنْ دونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهم إلاّ لِيُقَرِّبونا إلى آللهِ زُلْفى ﴾ . الى قوله : ﴿ إنَّ آللهَ لا يَهْدي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفّارٌ ﴾ فأبطل شفاعة من اتخذ شفيعاً يزعم أنه يقرِّبه الى الله وهو يبعده عنه وعن رحمته ومغفرته ، لأنه جعل لله شريكاً يرغب إليه ويرجوه ويتوكل عليه ويحبه ، كما يحب الله تعالى أو أعظم .

(النوع الثاني) الشفاعة التي أثبتها القرآن ، وهي خالصة لأهل الاخلاص وقيدها تعالى بأمرين . (الاول) إذنه للشافع أن يشفع ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ ذا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاّ بِإِذْنِهِ ﴾ . وإذنه تعالى لا يصدر إلا إذا رحم عبده الموحد المذنب ، فاذا رحمه تعالى أذن للشافع أن يشفع له .

(الأمر الثاني) رضاه عمن أذن للشافع أن يشفع فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلا يَشْفَعونَ إلاّ لِمَنِ ارْتَضى ﴾ . فالاذن بالشفاعة له بعد الرضا ، كما في هذه الآية ، وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد .

قوله: ﴿ وأنذر ﴾ الانذار هو الاعلام بأسباب المخالفة والتحذير منها. قوله: ﴿به﴾ أي القرآن ﴿ الذينَ يَخافونَ أنْ يُحْشَروا الى رَبِّهِمْ ﴾ وهم أهل الاخلاص الذين لم يتخذوا لهم شفيعاً ، بل أخلصوا قصدهم وطلبهم وجميع أعمالهم لله وحده ، ولم يلتفتوا إلى أحد

وقوله : ﴿ قُل لِلهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴾ [الزمر: ٤٤] .

سواه فيما يرجون نفعه ويخافون ضره . قال الفضيل بن عياض : ليس كلَّ خلقه عاتَبَ إنما عاتب الذين يعقلون .

قوله : ﴿ لَيْس لَهمْ مِنْ دونِهِ وَلِيٌّ ولاَ شَفيعٌ ﴾ . قال الزجاج : موضع ليس نصب على الحال كأنه قال متخلين من ولي وشفيع ، والعامل فيه يخافون .

قوله : ﴿ لعلَّهُمْ يَتَّقونَ ﴾ أي فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به من عذاب يوم القيامة ، وتركوا التعلق على الشفعاء وغيرهم ، لأنه ينافي الاخلاص الذي لا يقبل الله من أحد عملاً بدونه .

قوله : ﴿ قُلْ للهِ الشَّفاعَةُ جَميعاً ﴾ دلت الآية أن الشفاعة له سبحانه ، لأنها لا تقع إلا لأهل التوحيد باذنه سبحانه وتعالى ، كما قال تعالى في الآية السابقة . وقال تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفيعٍ إلاّ مِنْ بَعْدِ إذْنِهِ ذٰلِكُمُ الله رَبُّكُمْ ﴾ الآية ، فلا شفاعة إلا لمن هي له سبحانه ، ولا تقع إلا ممن أذن له فيها ، فتدبر هذه الآيات العظيمة في اتخاذ الشفعاء[1] .

وقوله : ﴿ لهُ مُلكُ السَّمواتِ والأَرْضِ ﴾ يبطل التعلق على غيره سبحانه ، لانه الذي انفرد بملك كل شيء فليس لأحد في ملكه مثقال ذرة دونه سبحانه وبحمده ، والاسلام هو أن تسلم قلبك وجوارحك لله بالاخلاص ، كما في المسند عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال لرسول الله ﷺ : فبِالَّذي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا بَعَثَكَ بِه ؟ قالَ : « الإِسْلامُ » قال : وما

---

(١) الشفاعة أنواع : منها ما هو متفق عليه بين الأمة ، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع .

النوع الأول : الشفاعة الأولى ، وهي العظمى الخاصة بنبينا ﷺ من بين سائر أخوانه من الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين .

النوع الثاني والثالث : شفاعته ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة ، وفي أقوام آخرين قد أمر به الى النار ألا يدخلوها .

النوع الرابع : شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم .

النوع الخامس : الشفاعة في أقوام يدخلوا الجنة بغير حساب .

النوع السادس : الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه .

النوع السابع : شفاعته ﷺ أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة .

النوع الثامن : شفاعته في أهل الكبائر من أمته ممن دخل النار فيخرجون منها .

اهـ ملخصاً « شرح العقيدة الطحاوية » بتحقيقنا ص ٢٢٣ ـ ٢٣١ طبعة دار البيان بدمشق .

وقوله : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .

وقوله : ﴿ وَكَم مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمٰوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُم شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم: ٢٦] .

وقوله : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ ﴾ الآيتين [سبأ : ٢٢ - ٢٣] .

الإسلامُ ؟ قال : « أَنْ تُسَلِّمَ قَلْبَكَ وَأَنْ توَجِّهَ وَجهَكَ إلى آللهِ ، وَأَنْ تُصَلي الصَّلاةَ المكْتوبَةَ ، وَتؤَدِّيَ الزَّكاةَ المفْروضَةَ»[1] والآيات في بيان الاخلاص كثيرة، وهو أن لا يلتفت القلب ولا الوجه في جميع الاعمال كلها إلا لله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ فَادْعوا الله مُخْلصينَ له الدِّين ﴾ . فأمره تعالى باخلاص الدعاء له وحده ، وأخبر أنه الدين الذي تصح معه الأعمال وتقبل . قال شيخ الاسلام : الاخلاص محبة الله وإرادة وجهه .

قوله : ﴿ مَنْ ذا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلا بِإذْنِهِ ﴾ تقدم معنى هذه الآية .

قوله : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ في السَّمٰواتِ لا تُغْني شفاعَتُهُمْ شيْئاً إلاّ مِنْ بَعْدِ أنْ يَأْذَنَ آلله لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى ﴾ . فاذا كان هذا في حق الملائكة الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمونَ لا يَسْبِقونَهُ بِالقَوْلِ وهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلونَ يَعْلَمُ ما بَينَ أَيْدِيهِمْ وما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعونَ إلاّ لِمن ارْتضى وهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إنّي إلهٌ مِنْ دونِهِ فذٰلِكَ نَجزيهِ جهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجزي الظّالِمينَ ﴾ ، فظهر من هذه الآيات المحكمات ما يبين حقيقة الشفاعة المثبتة في القرآن التي هي ملك لله لا يملكها غيره ، وقيد حصولها بقيدين كما في هذه الآية وغيرها ، كما تقدم قريباً إذنه للشافع أن يشفع ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ ذا الـذي يَشْفَعُ عِنـده إلا بإذْنِـهِ ﴾ ، ورضاه عمن أراد رحمتـه ممن أذنب من الموحـدين ، فاختصت الشفاعة بأهل الاخلاص خاصة ، وأن اتخاذ الشفعاء من دين المشركين قد أنكره الله عليهم فيما تقدم من الآيات .

قوله : ﴿ قُلْ ادْعو الذينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دونِ آللهِ لا يَملِكونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ في السَّمٰواتِ وَلا في الأَرْضِ ﴾ الآيتين . قـال أبـو العبـاس : نَفى الله عَمَّـا سـواهُ كـلَّ مَـا يتعلَّقُ بـهِ المشرِكونَ) . . . الخ .

---

(١) رواه أحمد ٥/٣، واسناده حسن.

وقال أبو العباس : نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه ، أو يكون عوناً لله ، ولم يبق إلا الشفاعة ، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨] . فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون ، هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن ، وأخبر النبي ﷺ « أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدَ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ ، لَا يَبْدَأ بِالشَّفَاعَةِ أولاً ، ثم يقال له : ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ تُسْمَعْ ، وَسَلْ تُعْطَ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ »[1] .

وقال له أبو هريرة : مَن أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ؟ قال : « مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا الله خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ »[2] فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ، ولا تكون لمن أشرك بالله .

وحقيقته : أن الله سبحانه وهو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ، ليكرمه وينال المقام المحمود ، فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع ، وقد بيَّن النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص . انتهى كلامه .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآيات .

---

(١) هو جزء من حديث الشفاعة العظمى الطويل الذي رواه البخاري رقم (٣٣٤٠) في أحاديث الأنبياء : باب قول الله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ ورقم (٣٣٦١) باب قوله تعالى : ﴿ واتخذ الله ابراهيم خليلاً ﴾ ، ورقم (٤٧١٢) في تفسير سورة بني اسرائيل : باب قوله تعالى : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾ ، ومسلم (١٩٤) في الإيمان : باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ، والترمذي رقم (٢٤٣٦) في صفة القيامة : باب ما جاء في الشفاعة ، وأحمد في « المسند » ٢/٤٣٦ و٥٤٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري رقم (٩٩) في العلم : باب عظة الإمام النساء ، ورقم (٦٥٧٠) في الرقاق : باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ، وأحمد في « المسند » ٢/٣٧٣ .

الثانية : صفة الشفاعة المنفيَّة .

الثالثة : صفة الشفاعة المثبتة .

الرابعة : ذكر الشفاعة الكبرى ، وهي المقام المحمود .

الخامسة : صفة ما يفعله ﷺ ، وأنه لا يبدأ بالشفاعة أولاً ، بل يسجد ، فإذا أذن الله له شفع .

السادسة : مَن أسعد الناس بها ؟ .

السابعة : أنها لا تكون لمن أشرك بالله .

الثامنة : بيان حقيقتها .

* * *

١٨ - باب [في أن الأعمال بالخواتيم ، ومضرة تعظيم الأسلاف والأكابر]

قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** ﴾ الآية [القصص: ٥٦] . وفي « الصحيح » عن ابن المسيب عن أبيه قال : « لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه

قوله : باب قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ ٱلله يَهْدي مَنْ يَشاءُ** ﴾ . قال ابن كثير رحمه الله تعالى : يقول تعالى لرسوله ﷺ ، وإنك يا محمد لا تهدي من أحببت ، أي ليس إليك ذلك إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، كما قال تعالى : ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلَكِنَّ ٱلله يَهْدي مَنْ يَشاءُ وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ وقال : ﴿ **وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْت بِمؤْمِنينَ** ﴾ . قلت : والمنفى ها هنا هداية التوفيق والقبول، فان أمر ذلك الى الله وحده وهو القادر عليه. وأما الهداية المذكورة في قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدي إِلى صراطٍ مُسْتقيمٍ** ﴾ . فانها هداية الدلالة والبيان ، فهو المبين عن الله والدال على دينه وشرعه .

قوله : (وفي الصحيح عن ابن المسيب) أي في الصحيحين ، وابن المسيب هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي

رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل ، فقال له : « يَا عَمِّ ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، كَلِمَةً أُحَاجُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ » ، فقالا له : أترغب عن ملة عبد

المخزومي ، أحد العلماء والفقهاء الكبار السبعة من التابعين ، اتفق أهل الحديث أن مراسليه أصح المراسيل ، وقال ابن المديني : لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه ، مات في التسعين وقد ناهز الثمانين ، وأبوه المسيب صحابي بقي الى خلافة عثمان رضي الله عنه ، وكذلك جده حزن صحابي استشهد باليمامة .

قوله : « لما حضرتْ أبَا طَالِبِ الوَفاةُ » أي علاماتها ومقدماتها.

قوله : (جَاءَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ) يحتمل أن يكون المسيب حضر مع الاثنين ، فانهما من بني مخزوم وهو أيضاً مخزومي ، وكان الثلاثة إذ ذاك كفاراً فَقُتِل أبو جهل على كفره وأسلم الآخران .

قوله : « يَا عَمَّ قلْ لا إله إلا الله » أمره بقولها لعلم أبي طالب بأنها دلت على نفي الشرك بالله ، وإخلاص العبادة له وحده ، فان من قالها عن علم ويقين وقبول ، فقد أنكر الشرك وتبرأ منه ، وكذلك الحاضرون يعلمون بما دلت عليه من نفي الشرك والبراءة منه ، ولهذا عارضوا قول النبي ﷺ بقولهم : أتَرغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المطَّلب ؟ لأن ملة عبد المطلب الشرك بعبادة الأوثان ، كما كانت قريش وغيرهم في جاهليتهم كذلك . قوله : (كَلِمَة) قال القرطبي بالنصب على أنه بدل من لا إله إلا الله ، ويجوز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف.

قوله : (أُحَاجُّ لكَ بِها عِنْدَ اللهِ) لانه لو قالها في تلك الحال لقبلت منه ودخل بها في الاسلام.

قوله : (فَقالا لهُ : أتَرغَبُ عَنْ مِلَّةِ عبد المطلب ؟) ، ذكراه الحجة الملعونة التي يحتج بها المشركون على المرسلين ، كقول فرعون لموسى : ﴿ فَما بَالُ القُرونِ الأولى ﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ وَكَذٰلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ في قَرْيَةٍ مِنْ نذيرٍ إلّا قال مُترَفوها إنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدونَ ﴾ .

قوله : (فأَعادَ عَليه النَّبيُّ ﷺ فأَعَادا) ، فيه مضرة أصحاب السوء والحذر من قربهم والاستماع لهم ، ففيه معنى قول لناظم :

إذا ما صحبتَ القوم فاصحبْ خيارَهُمْ ولا تصحَبِ الأرْدَى فتردَى مع الرَّدى

قوله :(فكان آخر ما قال: هو عَلى مِلَّةِ عبد المطلب،وَأبى أن يَقولَ: لا إله إلّا الله)

المطلب ؟! فأعاد عليه النبي ﷺ ، فأعادا ، فكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب ، وأبي أن يقول : لا إله إلاَّ الله . فقال النبي ﷺ : « لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ » فأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية [التوبة: ١١٣] . وأنزل الله في أبي طالب : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنِ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾(١) [القصص: ٥٦].

قال الحافظ هو تأكيد من الرواي في نفي وقوع ذلك من أبي طالب ، قال المصنف رحمه الله تعالى وفيه الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه .

قوله : (فقال النبي ﷺ : لأستغفرَنَّ لكَ ما لم أُنْهَ عَنْكَ) اللام لام القسم . قال النووي : فيه جواز الحلف من غير استحلاف . قال ابن فارس : مات أبو طالب ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً ، وتوفيت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بعد موت أبي طالب بثمانية أيام .

قوله : فأَنزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ مَا كانَ لِلنَّبيِّ وَالذينَ آمَنوا أَن يَسْتَغْفِروا لِلمُشْرِكينَ وَلَوْ كانوا أُولي قُربى مِنْ بَعْدِ ما تبيَّنَ لهمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الجَحيمِ ﴾ والظاهر أن هذه الآية نزلت في أبي طالب ، فان الاتيان بالفاء المفيدة للترتيب في قوله (فَأَنْزَلَ الله) بعد قوله (لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ) يفيد ذلك ، وقد ذكر العلماء لسبب نزول هذه الآية أسباباً أخر فلا منافاة ، الآية الواحدة قد يتعدد نزولها ، وفيه تحريم الاستغفار للمشركين وموالاتهم ومحبتهم .

---

(١) البخاري رقم (١٣٦٠) في الجنائز : باب إذا قال المشرك عند الموت : لا إله إلا الله ، ورقم (٣٨٨٤) في مناقب الأنصار : باب قصة أبي طالب ، ورقم (٤٦٧٥) في تفسير سورة براءة : باب قوله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ ، ورقم (٤٧٧٢) في تفسير سورة القصص ، ورقم (٦٦٨١) في الأيمان والنذور : باب إذا قال : والله لا أتكلم اليوم فصلى أو قرأ . . . الخ ، ومسلم رقم (٢٤) في الايمان : باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع . . . الخ ، والنسائي ٤/٩٠ ـ ٩١ في الجنائز : باب النهي عن الاستغفار للمشركين ، وأحمد في « المسند » ٥/١٦٨ و ٤٣٣ ، من حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه .

قوله : « لما حضرت أبا طالب الوفاة » المراد قربت وفاته وحضرت دلائلها ، وذلك قبل المعاينة والنزع ، ولو كان في حال المعاينة والنزع لما نفعه الايمان .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِن اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

الثانية : تفسير قوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يُسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية .

الثالثة : ـ وهي المسألة الكبرى ـ تفسير قوله ﷺ : « قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله » بخلاف ما عليه من يدعي العلم .

الرابعة : أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال للرجل : « قل لا إله إلا الله » فقبح الله مَنْ أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام .

الخامسة : جدّه ﷺ ومبالغته في إسلام عمه .

السادسة : الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه .

السابعة : كونه ﷺ استغفر له فلم يُغفر له ، بل نهي عن ذلك .

الثامنة : مضرَّة أصحاب السوء عن الإنسان .

التاسعة : مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر .

العاشرة : الشبهة للمبطلين في ذلك ، لاستدلال أبي جهل بذلك .

الحادية عشرة : الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم ، لأنه لو قالها لنفعته .

الثانية عشرة : التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين ، لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها ، مع مبالغته ﷺ وتكريره، فلأجل عظمتها ووضوحها عندهم ، اقتصروا عليها .

* * *

١٩ ـ باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

وقول الله عز وجل : ﴿ يَـا أَهْـلَ الكِتَـابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُم ﴾ [النساء: ١٧٠] .

وفي « الصحيح » عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُم وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوث وَيَعُوق وَنَسْراً ﴾

....

قوله : (باب ما جاء أنّ سَبَبَ كُفْرِ بَني آدَمَ وَتَركِهِمْ دينَهُمْ هُوَ الغلوُّ في الصَّالحينَ) قد أنذر ﷺ أمته من الغلو وأبلغ في الانذار تحذيراً عما وقع من جهالة هذه الأمة كما سيأتي ذكره.

قوله : ﴿ يا أَهْلَ الكتابِ لا تَغْلوا في دينِكُمْ ﴾ الآية . الغلو هو الافراط في التعظيم بالقول والاعتقاد ، أي لا ترفعوا المخلوق عن منزلته التي أنزله الله ، والخطاب وإن كان لأهل الكتاب فهو تحذير لهذه الامة أن يفعلوا مع نبيهم ﷺ كما فعلت النصارى مع المسيح وأمه، واليهود مع العُزَيْر، وقد وقع ذلك الشرك في العبادة في هذه الأمة نظماً ونثراً كما في كلام البوصيري والبرعي وغيرهما وفيما فعلوه من الغلو والشرك محادّة لله ولكتابه ولرسول الله ﷺ فأين ما وقع فيه هؤلاء الجهلة من قول منْ قال للنبي ﷺ أنت سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا . فكره ذلك ﷺ أشد الكراهة ـ كما سيأتي في الكلام على هذا الحديث إن شاء الله تعالى(١) ، وقول القائل : ما شاء الله وشئت ـ فقال : « أَجَعَلْتَني لِلهِ نِدًّا ؟ بَلْ ما شاءَ آللهُ وَحْدَهُ »(٢) قال شيخ الاسلام : ومن تشبه من هذه الامة باليهود والنصارى وغلا في الدين بافراط فيه أو تفريط فقد شابههم قال : وعلي رضي الله عنه حرق الغالية من الرافضة فأمر بأخاديد خدت لهم عند باب كندة فقذفهم فيها ، واتفق الصحابة على قتلهم، لكن ابن عباس مذهبه أن يقتلوا بالسيف من غير تحريق، وهو قول أكثر العلماء

قوله : (في الصحيح) أي صحيح البخاري وهذا الأثر اختصره المصنف رحمه الله ، والذي في البخاري عن ابن عباس : صارت الأوثان التي في قوم نوح في العرب بعد ، أما

---

(١) انظر ص (٢٥٨).
(٢) انظر ص (٢١١).

[نوح: ٢٣] قال : « هَٰذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ . فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَىٰ الشَّيْطَانُ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَىٰ مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَاباً وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ ، فَفَعَلُوا ، وَلَمْ تُعْبَدْ ، حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَٰئِكَ وَنُسِخَ الْعِلْمُ ، عُبِدَتْ »(١) .

وقال ابن القيم : قال غير واحد من السلف : لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثليهم ؛ ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم .

ود فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع . أسماء رجال صالحين في قوم نوح ، الى آخره.

قوله (ان انصبوا) بكسر المهملة قوله (أنْصاباً) جمع نصب وهي الأصنام التي صوروها على صور الصالحين.

قوله : (ففَعَلوا وَلَمْ تُعْبَدْ حتى إذا هَلَكَ أُولئِكَ وَنُسِيَ العِلْمُ عُبِدَتُ) الذي في البخاري (وَنُسِخَ العِلْمُ) فلعل الذي هنا رواية ، فصارت هذه الاصنام بهذا التصوير على صور الصالحين سلَّماً الى عبادتها ، وكل ما عبد من دون الله من قبر أو مشهد أو صنمٍ أو طاغوت فالأصل في عبادته هو الغلو كما لا يخفى على ذوي البصائر كما جرى لأهل مصر وغيرهم فان أعظم آلهتهم أحمد البدوي وهو لا يعرف له أصل ولا فضل ولا علم ولاعبادة ، ومع هذا فصار أعظم آلهتهم مع أنه لا يعرف إلا أنه دخل المسجد يوم الجمعة فبال فيه ثم خرج ولم يصل ، ذكره السخاوي عن أبي حيان ، فزين لهم الشيطان عبادته فاعتقدوا أنه يتصرف في الكون ويطفيء الحريق وينجي الغريق وصرفوا له الآلهية والربوبية وعلم الغيب وكانوا يعتقدون أنه يسمعهم ويستجيب لهم من الديار البعيدة وفيهم من يسجد على عتبة حضرته وكان أهل العراق ومن حولهم كأهل عمان يعتقدون في عبد القادر الجيلاني كما يعتقد أهل مصر في البدوي ، وعبد القادر من متأخري الحنابلة وله كتابة الغنية ، وغيره ممن قبله وبعده من الحنابلة من هو أفضل منه في العلم والزهد ، لكن فيه زهد وعبادة وفتنوا به أعظم فتنة كما جرى من الرافضة مع أهل البيت ، وسبب ذلك الغلو دعوى أن له كرامات وقد جرت

---

(١) البخاري رقم (٤٩٤٠) في تفسير سورة نوح .

وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابنَ مَرْيَمَ ؛ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، فَقُولُوا : عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُه »[1] أخرجاه .

....

الكرامات لمن هو خير منه وأفضل كبعض الصحابة والتابعين ، وهكذا حال أهل الشرك مع من فتنوا به ، وأعظم من هذا عبادة أهل الشام لابن عربي وهو إمام أهل الوحدة الذين هم أكفر أهل الأرض وأكثر من أن يعتقد فيه هؤلاء لا فضل له ولا دين كأناس بمصر وغيرها ، وجرى في نجد قبل هذه الدعوة مثل هذا وفي الحجاز واليمن وغيرهما من عبادة الطواغيت والأشجار والاحجار والقبور ما عمت به البلوى كعبادتهم للجن وطلبهم الشفاعة منهم والأصل في ذلك الغلو تزيين الشيطان . وذكر أهل السير أن التلبية من عهد ابراهيم عليه السلام (لَبَّيْكَ اللهُمَّ لبَّيْكَ لا شَريكَ لَكَ لبَّيْكَ) حتى كان عمرو بن لحي الخزاعى فبينما هو يلبي تمثل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه فقال : لبيك لا شريك لك ، فقال الشيخ : إلا شريكا هو لك . فأنكر ذلك عمرو وقال : ما هذا ؟ فقال الشيخ : تملكه وما ملك . فانه لا بأس بهذا ، فقالها عمرو فدانت بها العرب .

قوله : (عن عمر) هو ابن الخطاب بن نفيل ـ بنون وفاء مصغر ـ العدوي أمير المؤمنين وأفضل الصحابة بعد الصديق رضي الله عنه ولي الخلافة عشر سنين ونصفاً فامتلأت الدنيا عدلاً وفتحت في أيامه ممالك كسرى وقيصر واستشهد في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة .

قوله : (لا تُطْرُوني) الاطراء هو الغلو ، (كما أطرت النصارى ابن مريم) ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يا أَهلَ الكِتابِ لا تَغْلُوا في دينِكُمْ وَلا تقولوا عَلى آللهِ إلاّ الحَقَّ إنَّما المسيح عيسى بنُ مَرْيَم رَسولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقاهَا إلى مَرْيَمَ وَروحٌ مِنْهُ ﴾ . قوله: (إنّما أَنا عَبْدٌ فقولوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ) أمرهم ﷺ أن لا يتجاوزوا هذا القول ، وقد أمر الله عباده بالصلاة والسلام عليه لان أشرف مقامات الانبياء العبودية الخاصة والرسالة .

---

(١) البخاري فقط رقم (٣٤٤٥) في أحاديث الأنبياء : باب قول الله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت ﴾ ورقم (٦٨٣٠) في المحاربين : باب رجم الحبلى في الزنا إذا أحصنت ، وليس عند مسلم ، وقد أخطأ في ذلك أيضاً صاحب « المشكاة » الخطيب التبريزي ، ورواه أيضاً الدارمي رقم (٢٧٨٧) في الرقاق باب قول النبي ﷺ : «لا تطروني» ، وأحمد في « المسند » ١/٢٣ و٢٤ و٤٧ و٥٥ .

ولمسلم عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ »(١) .

ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » قالها ثلاثاً(٢) .

فيه مسائل :

الأولى : أن من فهم هذا الباب وبابين بعده ، تبيَّن له غربة الإسلام ، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب .

قوله : وقال : قال رسول الله ﷺ : « إِيَّاكُمْ والغُلُوَّ فإِنَّما أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمُ الغلُوُّ » . هذا الحديث ذكره المصنف رحمه الله تعالى بدون ذكر رواية ، وقد رواه الامام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس وهذا اللفظ رواية أحمد عن ابن عباس ، قال شيخ الاسلام : هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال .

قوله : (ولمسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ » قالها ثلاثاً) . قال الخطابي : المتنطع المتعمق في الشيء المتكلف في البحث عنه على مذهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيهم الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم ، وقال أبو السعادات : هم المتعمقون الغالون في الكلام المتكلمون بأقصى حلوقهم ، وقال النووي : فيه كراهة التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف الفصاحة واستعمال وحشي اللغة ودقائق الاعراب في مخاطبة القوم ونحوهم . قوله : (قالها ثلاثاً) أي قال هذه الكلمة ثلاث مرات مبالغة في التعليم والابلاغ ، فقد بلّغ البلاغ المبين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . ووجه مناسبة هذا الحديث للترجمة أن الغلو من التنطع والزيادة لما فيه من الخروج الى ما يوصل الى الشرك بالله .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ١/٢١٥ و ٣٤٧ ، والنسائي ٥/٢٦٨ في المناسك : باب التقاط الحصى ، وابن ماجه رقم (٣٠٢٩) في المناسك : باب في قدر حصى الرمي ، وصححه ابن حبان رقم (١٠١١) والحاكم ١/٤٦٦ ووافقه الذهبي ، وهو حديث صحيح . انظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٢٨٣) .

(٢) مسلم رقم (٢٦٧٠) في العلم : باب هلك المتنطعون ورواه أيضاً أحمد في « المسند » ١/٣٨٦ ، وأبو داود رقم (٤٦٠٨) في السنة : باب في لزوم السنة .

الثانية : معرفة أول شرك حدث على وجه الأرض أنه بشبهة الصالحين .

الثالثة : أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء ، وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم .

الرابعة قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردُّها .

الخامسة : أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل : فالأول محبة الصالحين ، والثاني فعل أناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا به خيراً ، فظن مَن بعدهم أنهم أرادوا به غيره .

السادسة : تفسير الآية في سورة نوح .

السابعة : جبلَّة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه ، والباطل يزيد .

الثامنة : أن فيه شاهداً لما نُقل عن السلف أن البدعة سبب الكفر .

التاسعة : معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل .

العاشرة : معرفة القاعدة الكلية ، وهي النهي عن الغلوِّ ، ومعرفة ما يؤول إليه .

الحادية عشرة : مضرَّة العكوف على القبر لأجل عمل صالح .

الثانية عشرة : معرفة النهي عن التماثيل ، والحكمة في إزالتها .

الثالثة عشرة : معرفة عظم شأن هذه القصة ، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها .

الرابعة عشرة : وهي أعجب وأعجب : قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث ، ومعرفتهم بمعنى الكلام ، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات ، واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه ، فهو الكفر المبيح للدم والمال .

الخامسة عشرة : التصريح أنهم لا يريدوا إلا الشفاعة .

السادسة عشرة : ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك .

السابعة عشرة : البيان العظيم في قوله ﷺ : « لَا تَطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابنَ مَرْيَمَ » فصلوات الله وسلامه على من بلّغ البلاغ المبين .

الثامنة عشرة : نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين .

التاسعة عشرة : التصريح بأنها لم تُعبد حتى نُسخ العلم ، ففيها معرفة قدر وجوده ومضرّة فقده .

العشرون : أن سبب فقد العلم موت العلماء .

* * *

٢٠ ـ باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده ؟!

في « الصحيح » عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض بالحبشة وما فيها من الصور . فقال « أُوْلَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ ـ أَوْ العَبْدُ الصَّالِحُ ـ بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِداً ،

قوله : (باب ما جاء من التّغليظِ فيمن عَبَدَ الله عند قبرِ رجلٍ صالحٍ فكيف إذا عَبَدَهُ) ، فكل ما كان وسيلة الى الشرك فهو حرام لكونه يوقع في الشرك بالله وعبادة ما سواه ، كما في الأحاديث .

قوله : (في الصحيح) أي الصحيحين . قوله : (أن أم سلمة) هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية ، تزوجها النبي ﷺ بعد أبي سلمة سنة أربع ، وقيل ثلاث ، وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلى الحبشة ، توفيت سنة اثنتين وستين . قوله : (ذكرت لرسول الله ﷺ) . وفي الصحيحين أن أم حبيبة وأم سلمة ، ذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ : « والكَنيسة » بفتح الكاف وكسر النون : متعبد النصارى .

قوله : (رَأتْها بِأَرْضِ الحَبَشَةِ وَمَا فيها مِنَ الصُّوَرِ) ، لأن أم سلمة هاجرت مع زوجها أبي سلمة إلى الحبشة ، ثم رجعا الى مكة فهاجرا منها الى المدينة ، والحبشة دينهم النصرانية وفيهم من أسلم . قوله : (فقال : أولئكِ) بكسر الكاف خطاب للمرأة . قوله : (إذا ماتَ فيهم الرجلُ الصالحُ أو العبدُ الصالح) ، هذا ـ والله أعلم ـ شك من الراوي .

وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ ، أُوْلَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ ﴾ فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين ، فتنة القبور ، وفتنة التماثيل(١) .

و « لهما » عنها : قالت : « لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَإِذَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ ، فَقَالَ وَهُوَ كَذلِـكَ : « لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ اليَهُودِ وَالنَّصارَى ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا ، لَوْلاَ ذٰلِكَ

....

قوله : (أولئكِ شِرارُ الخَلْقِ عند الله) ، ولم يذكر غير بناء المساجد والتصوير لكونه ذريعة إلى عبادة من بنوا عليه المسجد وصوروا صورته ، فبذلك صاروا اشرار الخلق ، فانظر الى ما وقع في هذه الأمة من ذرائع الشرك والوقوع فيه ، مما هو أعظم من هذا ، كالبناء على القبور وتعظيمها وعبادتها ، ومع ذلك يعتقدونه ديناً ، وهو الشرك الذي حرمـه الله وأرسل الرسل وأنزل الكتب بالنهي عنه .

قوله : (فهؤلاء جمعوا بين الفِتْنَتَينِ فِتْنَةِ القبور وَفِتْنَةِ التماثيل) . هذا من كلام شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، لم يذكره المصنف رحمه الله تعالى ، لان ذلك معلوم عند من يقرأ هذا الكتاب .

قوله : (الخميصة) كساء له أعلام ، والشاهد للترجمة قوله ﷺ : (لعنة الله على اليهود والنَّصارى اتَّخذوا قبور أنبيائِهِمْ مَساجِدَ) فلعنهم ﷺ على تحري الصلاة عندها وإن كان المصلي إنما يصلي لله ، فمن كان يصليْ عند القبور ويتخذها مساجد فهو ملعون لانه ذريعة الى عبادتها فكيف اذا عبد أهل القبور والغائبين بأنواع العبادة وسألهم ما لا قدرة لهم عليه ؟ وهذا هو الغاية التي يكون اتخاذ القبور مساجد ذريعة إليها ، واللعنة ليست مختصة باليهود والنصارى بل تعم من فعل فعلهم وما هو أعظم منه ، هذا هو الذي أراده ﷺ من لعنة

---

(١) البخاري رقم (٤٢٧) في الصلاة : باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ، ورقم (٤٣٤) في الصلاة : باب الصلاة في البيعة ، ورقم (١٣٤١) في الجنائز : باب بناء المسجد على القبر ، ورقم (٣٨٧٣) في مناقب الأنصار : باب هجرة الحبشة ، ومسلم رقم (٥٢٨) في المساجد ومواضع الصلاة : باب النهي عن بناء المسجد على القبور واتخاذ الصور فيها ، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد ، والنسائي ٤٢/٢ في المساجد : باب النهي عن اتخاذ القبور مساجد ، وأحمد في « المسند » ٥١/٦ من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

أُبْرِزَ قَبْرُهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً ، أخرجاه[1] .

ولمسلم عن جُندب بن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ قبل موته بخمس وهو يقول : « إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً ، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً ، لأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً ، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ

....

اليهود والنصارى على هذا الفعل تحذيراً لأمته أن يفعلوا ما فعلته اليهود والنصارى فيقع بهم من اللعنة ما وقع بهم . قوله : (وَلَوْلا ذٰلكَ) أي ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبي ﷺ مسجداً (لأبرِزَ قَبرُهُ) مع قبور أصحابه بالبقيع .

قوله : « غيرَ أَنَّهُ خشيَ أَنْ يُتَّخَذَ مسجداً » روي بفتح الخاء وضمها فعلى الفتح يكون هو الذي خشي ﷺ وأمرهم أن يدفنوه في المكان الذي قبض فيه ، وعلى رواية الضم يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الامة فلم يبرزوا قبره خشية أن يقع ذلك من بعض الامة غلواً وتعظيماً لما أبدى وأعاد من النهي والتحذير ولعن فاعله ، قال القرطبي : ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فاعلوا حيطان تربته ، وسدوا المداخل إليها وجعلوها محدقة بقبره ﷺ خافوا أن يُتَّخَذَ موضع قبره قِبْلَةً إذا كان مستقبل المصلين فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة ، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره ، ا هـ .

(قلت) فبذلك صان الله قبره وقبل دعوته بقوله : « اللَّهُمَّ لا تَجعَلْ قبري وَثَناً يُعْبَدُ اشْتَدَّ غَضَبُ ٱللهِ عَلى قَوْمٍ اتخذوا قُبورَ أَنْبِيائِهِمْ مَساجِدَ » .

قوله : (عن جندب بن عبد الله) أي ابن سفيان البجلي وينسب الى جده ، صحابي مشهور مات بعد الستين ، قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى : أما بناء المساجد على القبور

---

(١) البخاري رقم (٤٣٥) في الصلاة : باب الصلاة في البيعة ، ورقم (١٣٣٠) في الجنائز : باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ، ورقم (١٣٩٠) باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ورقم (٣٤٥٣) في أحاديث الأنبياء : باب ما ذكر عن بني اسرائيل ، ورقم (٤٤٤١ و٤٤٤٣) في المغازي : باب مرض النبي ﷺ ووفاته ، ورقم (٥٨١٥) في اللباس : باب الأكسية والخمائص ، ومسلم رقم (٥٣١) في المساجد ومواضع الصلاة .

مَسَاجِدَ ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذٰلِكَ »[1] .

فقد نهى عنه في آخر حياته ، ثم إنه لعن ـ وهو في السياق ـ من فعله ، والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبنِ مسجد ، وهو معنى قولها : خشي أن يتخذ مسجداً ، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً . وكل موضع قصد الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً ، بل كل موضع يصلي فيه يسمى مسجداً ، كما قال ﷺ : « جُعِلَتْ لي الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً »[1] .

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : « إِنَّ مِنْ شِرَارِ

فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عنه للأحاديث الصحيحة وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه ، قال : ولا ريب في القطع بتحريمه ، ثم ذكر الاحاديث في ذلك ـ الى أن قال ـ وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين والملوك وغيرهم تتعين إزالتها بهدم أو غيره ، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين .

قوله : فقد نهى عنه في آخر حياته ثُمَّ إِنَّهُ لعن ـ وهو في السياق ـ من فعله . والصلاة عندها من ذلك وإن لم يُبْنَ مسجدٌ . وهو معنى قولها : « خُشِيَ أَن يُتَّخَذَ مَسجداً : فان الصحابة لم يكونوا ليَبنوا حول قبره مسجداً وكل موضع قُصِدَتِ الصلاةُ فيه فقد اتُّخِذَ مسجداً بل كلُّ موضع يُصَلَّى فيه يُسَمَّى مسجداً كما قال ﷺ : « جُعِلتْ لي الأرْضُ مسجداً وطَهوراً » .

هذا ذكره شيخنا وهو من تقرير شيخ الاسلام ابن تيمية رحمهما الله تعالى على هذه الاحاديث .

قوله : (ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً « إِنَّ منْ شِرارِ النَّاسِ

---

(١) رقم (٥٣٢) في المساجد ومواضع الصلاة : باب النهي عن بناء المساجد على القبور .

(١) البخاري رقم (٣٣٥) في التيمم ، ورقم (٤٣٨) في الصلاة : باب قول النبي ﷺ : جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، ومسلم رقم (٥٢١) في المساجد ومواضع الصلاة ، والنسائي ١ / ٢١٠ - ٢١١ في الغسل : باب التيمم بالصعيد ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، وفي الباب عن أبي هريرة وحذيفة وأبي أمامة وأبي ذر وعبد الله بن عمرو ، وعبد الله بن عباس ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم . انظر « الإرواء » رقم (٢٨٥) .

النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُم أَحْيَاءٌ وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ »(١) ورواه أبو حاتم ابن حبان في « صحيحه » .

فيه مسائل :

الأولى : ما ذكر الرسول فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح . ولو صحت نية الفاعل .

الثانية : النهي عن التماثيل ، وغلظ الأمر في ذلك .

الثالثة : العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك كيف بيَّن لهم هذا أولاً ، ثم قبل موته بخمس قال ما قال ، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم .

الرابعة : نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر .

الخامسة : أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم .

السادسة : لعنة إياهم على ذلك .

السابعة : أن مراده تحذيره إيانا عن قبره .

الثامنة : العلة في عدم إبراز قبره .

مَنْ تَدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْياءٌ ، والـذِينَ يَتَّخِذونَ القُبـورَ مَساجِـدَ » ورواه أبو حـاتم في صحيحه) .

قلت : وقد وقع هذا في الأمة كثيراً كما وقع في أهل الجاهلية قبل مبعث النبي ﷺ كما لا يخفي على ذوي البصائر ، وقد زاد هؤلاء المتأخرون من هذه الامة على ما وقع من أهل الجاهلية من هذا الشرك بأمور (منها) أنهم يخلصون عند الاضطرار لغير الله وينسون الله (ومنها) أنهم يعتقدون أن آلهتهم من الأموات يتصرفون في الكون دون الله وجمعوا بين نوعي الشرك في الالهية والربوبية ، وقد سمعنا ذلك منهم مشافهة ، ومن ذلك قول ابن كمال

(٢) رواه أحمد في « المسند » ١/٤٣٥ واسناده جيد كما قال الشارح ، وصححه ابن حبـان (٣٤٠) في الصلاة : باب ما جاء في الصلاة في الحمام والمقبرة .

التاسعة : في معنى اتخاذها مسجداً .

العاشرة : أنه قرن بين من اتخذها مساجد وبين من تقوم عليهم الساعة ، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته .

الحادية عشرة : ذكره في خطبته قبل موته بخمس : الرد على الطائفتين اللتين هما شر أهل البدع ، بل أخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة ، وهم الرافضة ، والجهمية وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور ، وعم أول من بنى عليها المساجد .

الثانية عشرة : ما بلي به ﷺ من شدة النزع .

الثالثة عشرة : ما أكرم به من الخلَّة .

الرابعة عشرة : التصريح بأنها أعلى من المحبة .

الخامسة عشرة : التصريح بأن الصدِّيق أفضل الصحابة .

السادسة عشرة : الإشارة إلى خلافته .

* * *

٢١ ـ باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله

روى مالك في « الموطأ » : أن رسول الله ﷺ قال: « اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ

من أهل عمان وأمثاله : إن عبد القادر الجيلاني يسمع من دعاه ومع سماعه ينفع ، فزعم أنه يعلم الغيب وهو ميت فلقد ذهب عقل هذا وضل فكفر بما أنزله الله في كتاب كقوله : ﴿ إنْ تَدْعوهُمْ لا يَسْمَعوا دُعاءَكُمْ وَلوْ سمعوا ما اسْتَجابوا لكم وَيَوْمَ القِيامَةِ يَكفُرونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبيرٍ ﴾ فما صدقوا الخبير فيما أخبر به عن آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ، ولا آمنوا بما أنزله الله في كتابه ، بل بالغوا وعاندوا في رده وكذبوا وألحدوا وكابروا المعقول والمنقول فالله المستعان .

قوله : (باب ما جاء أَنَّ الغُلُو في قبور الصَّالحينَ يُصيِّرها أَوثاناً تُعْبَدُ مِنْ دونِ آللهِ) روى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال : « اللَّهُمَّ لا تجعَلْ قَبري وَثَناً يُعْبَدُ ، اشْتَدَّ

قَبْرِي وَثَناً يُعْبَدُ ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ »[1] .

ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم اللَّاتَ وَالعُزَّىٰ ﴾ [النجم: ١٩] قال : كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره . وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس : كان يلت السويق للحاج .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَائِرَاتِ

غَضَبُ آللهِ عَلى قَوْمٍ اتَّخذوا قبورَ أَنْبِيائِهِمْ مَساجِدَ » .

وذلك أن ﷺ خاف أن يقع من أمته في حقه كما وقع من اليهود والنصارى في حق أنبيائهم من عبادتهم من دون الله وسبب ذلك الغلو فيهم كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يا أَهْلَ الكِتابِ لا تَغْلوا في دينِكم غيرَ الحَقِّ ، وَلا تَتْبِعوا أَهْواءَ قَوْمٍ قدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثيراً وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبيل ﴾ وكذلك رغب ﷺ الى ربه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد ، وقد عبدت القبور بأنواع العبادة كما لا يخفى وتقدم في حديث عائشة رضي الله عنها : « ولولا ذلك لأُبْرِزَ قَبْرُهُ غيرَ أَنَّهُ خشيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً » وقد استجاب الله دعوة نبيه ﷺ وصان قبره وأحاطه بثلاثة جدران كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى .

فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران

قوله : (ولابن جَريرٍ) هو أبوجعفر ابن جرير صاحب التفسير الكبير وهو أجل التفاسير وأحسنها وهو من أئمة المسلمين المجتهدين وله كتاب الاحكام رحمه الله تعالى .

قوله : (كانَ يَلُتُّ لهم السَّويقَ فماتَ فعَكَفوا عَلى قبرِهِ) فيه شاهد للترجمة فانهم غلوا فيه لأجل صلاحه واتخذوه وثناً بتعظيمه وعبادته ، وصار من أكبر أوثان أهل الجاهلية .

قوله : « وعن ابن عباس رضي الله عنهما . قال : (لعَنَ رَسولُ الله ﷺ زائِراتِ القُبور

(١) رواه مالك في « الموطأ » رقم (٨) في قصر الصلاة في السفر : باب جامع الصلاة مرسلاً ، ورواه أحمد في « المسند » ٢/٢٤٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مسنداً بلفظ : « اللهم لا تجعل قبري وثناً ، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، ورواه أيضاً ابن سعد وأبو نعيم في « الحلية » ٧/٣١٧ ، وهو حديث صحيح .

القُبُورِ ، وَالمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا المَسَاجِدَ ، وَالسُّرُجَ » رواه أهل السنن[1].

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الأوثان .

الثانية : تفسير العبادة .

الثالثة : أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه .

الرابعة : قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد .

الخامسة : ذكر شدة الغضب من الله .

السادسة ، وهي من أهمها : معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان .

السابعة : معرفة أنه قبر رجل صالح .

الثامنة : أنه اسم صاحب القبر ، وذكر معنى التسمية .

التاسعة : لعنة زوَّارات القبور .

العاشرة : لعنة من أسرجها .

والمتَّخِذينَ عَليها المساجِدَ والسُّرُجَ) رواه أهل السنن » .

وهذا الحديث صحيح صححه شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ويكفيك في الاحتجاج به رواية أهل السنن له ، ولم يذكر أحد منهم له علة ، ولا معارض له .

---

(١) رواه أبو داود (٣٢٣٦) في الجنائز : باب في زيارة القبور ، والترمذي (٣٢٠) في الصلاة : باب كراهية أن يتخذ على القبر مسجداً ، والنسائي ٤/ ٩٤ و٩٥ في الجنائز : باب التغليظ في اتخاذ السرج على القبور ، وابن ماجه (١٥٧٥) في الجنائز : باب ما جاء في النهي عن زيارة القبور ، ورواه أيضاً أحمد في « المسند » ١/ ٢٢٩ و٢٨٧ و٣٢٤ و٣٣٧ ، وفيه أبو صالح مولى أم هانىء ، وهو ضعيف ، ولكن الفقرة الأولى من الحديث « لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور » صحيحة ، فقد رواها من حديث أبي هريرة أحمد في « المسند » ٢/ ٣٣٧ و٣٥٦ ، والترمذي (١٠٥٦) وابن ماجه (١٥٧٦) ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، ورواها من حديث حسان أحمد ٣/ ٤٤٢ و ٤٤٣ ، وابن ماجه (١٥٧٤) ، والحاكم ١/ ٣٧٤ وهو حديث صحيح بشواهده . انظر « الإرواء » رقم (٧٦١) و (٧٧٤) وعلى كل فإن إيقاد السرج على القبور وثنية لا يرضاها الإسلام .

٢٢ ـ باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسدّه كل طريق يوصل إلى الشرك

وقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُم قُبوراً ، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيداً ، وَصَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي

....

قوله : (باب ما جاء في حمايةِ المصطفى ﷺ جَنابَ التَّوحيدِ وسَدِّهِ كلَّ طريقٍ يوَصِّل الى الشِّرْكِ) قد تقدم فيما سلف من الأبواب قبل هذا.

قوله : وقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جاءَكُمْ رَسولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَريصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنينَ رَءُوفٌ رَحيمٌ ﴾ ووجه الدلالة بالآية أنه ﷺ يعزّ عليه كل ما يؤثم الأمة ويشق عليهم ، وأعظم ما يؤثم الامة ويشق عليهم الشرك بالله قليله وكثيره ووسائله وما يقرب منه من كبائر الذنوب ، وقد بالغ ﷺ في النهي عن الشرك وأسبابه أعظم مبالغة كما لا يخفى ، وقد كانت هذه حال أصحابه رضي الله عنهم في قطعهم الخيوط التي رقي للمريض فيها ونحو ذلك من تعليق التمائم.

قوله : (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تَجْعَلوا بُيوتَكُمْ قُبوراً وَلا تَجعَلوا قَبري عِيداً وَصَلُّوا عَليَّ فإِنَّ صَلاتكُمْ تَبْلغُني حَيْثُ كُنْتُمْ »[1] رواه أبو داود باسناد حسن ، ورواته ثِقاتٌ) قال الحافظ محمد بن عبد الهادي : هو حديث حسن جيد الاسناد وله شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحة ، نهاهم ﷺ أن يهجروا بيوتهم عن الصلاة فيها كما تهجر القبور عن الصلاة إليها مخافة الفتنة بها وما يفضي الى عبادتها من دون الله لأن النهي عن ذلك قد تقرر عندهم فنهاهم أن يجعلوا بيوتهم كذلك.

قوله : (وَلا تَجْعَلوا قَبري عِيداً) فيه شاهد للترجمة ، قال شيخ الاسلام : العيد اسم

---

(١) رواه أبو داود رقم (٢٠٤٢) في المناسك : باب في زيارة القبور ، ورواه أيضاً أحمد في « المسند » ٣٦٧/٢ ، والحسن بن أحمد بن ابراهيم بن فيل البالسي أبو طاهر في جزئه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، واسناده حسن ، ورواه أيضاً اسماعيل القاضي في « فضل الصلاة على النبي ﷺ » رقم (٢٠) و (٣٠) وغيره وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده .

حَيْثُ كُنْتُمْ » رواه أبو داود بإسناد حسن ، ورواته ثقات .

وعن علي بن الحسين : أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ ، فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه ، وقال : ألا أُحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال : « لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيداً ، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُوراً ، وَصَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ » . رواه في « المختارة » .

....

لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد ، عائداً إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر أو نحو ذلك ، وقال ابن القيم رحمه الله : العيد ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان ، مأخوذ من المعاودة والاعتياد فاذا كان اسماً للمكان فهو الذي يقصد فيه الاجتماع وانتيابه للعبادة أو لغيرها، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفه والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة . كما جعل أيام العيد فيها عيداً ، وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية فلما جاء الله بالآسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى كما عوضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفه والمشاعر.

قوله : (وعن علي بنَ الحسين رضي الله عنهما أنه رأى رجلاً يجيء الى فُرْجَةٍ كانت عند قبر النبي ﷺ فَيدْخُلُ فيها فَيَدْعو فنهاه . . .) الحديث . هذا الحديث رواه أبو يعلى والقاضي اسماعيل والحافظ الضياء في المختارة.

قال شيخ الاسلام : فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار لأنهم الى ذلك أحوج من غيرهم فكانوا له أضبط ، انتهى.

قوله : (عن علي بن الحسين) أي ابن علي بن أبي طالب المعروف بزين العابدين رضي الله عنهم أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم ، قال الزهري ما رأيت قرشياً أفضل منه ، مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح.

قوله : « أنَّهُ رأى رجلاً يَجيءُ إلى فُرْجَةٍ) بضم الفاء وسكون الراء ، وهي الكوّة في

---

(١) تقدم تخريجه ص ( ) رقم (١) .

الجدار والخوخة ونحوهما ، قوله : (فَيَدْخُلُ فيها فيدعُو فَنَهاهُ) وهذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها . قال شيخ الاسلام : ماعلمت أحدا رخص فيه لأن ذلك نوع منْ اتخاذه عيداً ، ويدل ايضاً على أن قصد القبر للسلام إذا دخل ليصلي منهي عنه لأن ذلك لم يشرع وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل إنسان المسجد أن يأتي قبر النبيﷺ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك . قال : ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها وكان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يأتون إلى مسجد النبي ﷺ فيصلون فاذا قضوا الصلاة قعدوا وخرجوا ولم يكونوا يأتون القبر للسلام لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه عند دخول المسجد هو السنة ، وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم بل نهاهم عنه في قوله : « لا تتَّخِذوا قَبْري عيداً وَصَلوا عليَّ فإنَّ صَلاتكُمْ تبْلُغُني » فبين أن الصلاة تصل إليه من بعد وكذلك السلام ، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب لما كانت عائشة رضي الله عنها فيها وبعد ذلك إلى أن بني الحائط الآخر ، وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون إليه لا لسلام ولا لصلاة ولا لدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم ولا لسؤال عن حديث أو علم ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلاما أو سلاماً فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم وبين لهم الأحاديث ، وأنه قد ردّ عليهم السلام بصوت يسمع من خارج كما طمع الشيطان في غيرهم فأضلهم عند قبره وقبر غيره حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويحدثهم في الظاهر ، وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجا من القبر ، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم ، وأن أرواح الموتى تجسدت لهم فرأوها ، والمقصود أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره كما يفعل من بعدهم من الخلوف .

قال سعيد بن منصور في « سننه » حدثنا عبد العزيز بن محمد : أخبرني سهيل بن أبي سهيل قال : رآني الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند قبر النبي ﷺ فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشَّى فقال : هَلُمَ إلى العشاء قلتُ : لا أُريدُه . قال : ما لي رأيتُكَ عند القبرِ ؟ فقلت : سلَّمْتُ على النبي ﷺ ، فقال : إذا دخلتَ المسجد فسلِّم ، ثم قال لي : إن رسولَ الله ﷺ قال : « لا تَتَّخِذوا قبْري عيداً ولا تتَّخِذوا بُيوتَكمْ قُبوراً وَصَلوا عَليَّ فإنَّ صَلاتَكُمْ تَبْلُغُني حَيْثُما كُنتُمْ . لعَنَ آللهُ اليهودَ والنَّصارى اتَّخذوا قبورَ أَنْبيائِهِمْ مَساجِدَ » ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء .

(قلت) وهو أيضاً له قرب النسب وقرب الدار فنهى عن المجيء إلى القبر للدعاء

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية براءة .

الثانية : إبعاده أمته عن هذا الحِمَى غاية البعد .

الثالثة : ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته .

الرابعة : نهيه عن زيادة قبره على وجه مخصوص ، مع أن زيـارته من أفضل الأعمال .

الخامسة : نهيه عن الإكثار من الزيارة .

السادسة : حثه على النافلة في البيت .

السابعة : أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة .

الثامنة : تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بُعد فـلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب .

التاسعة : كونه ﷺ في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصـلاة والسلام عليه .

***

عنده فالمجيء إلى القبر للسلام عليه وتحري إجابة الدعاء ليس مما شرعه الله ورسوله لهذه الأمة ولو كان مشروعا لما تركه الخلفاء والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان من سادات أهل البيت وأئمة التابعين ولما أنكروا على من فعله ، وقولهم هو الحجة وهو الذي دلت عليه الأحاديث كحديث عائشة وحديث الباب وغيرهما ، لعلم السلف بما أراده النبي ﷺ بنهيه عن الغلو وخوفه مما وقع ممن غـلا في الدين واتبـع غير سبيـل المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسول مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لهُ الهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيرَ سَبيلِ المُؤْمِنينَ نُولِّهِ ما تَولَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وساءَتْ مَصيراً** ﴾ ولما حدث الشرك بأرباب القبور في هذه الأمة وتعظيمها وعبادتها صارت تشد الرحال إليها لقصد دعائها والاستغاثة بهـا وبذل نفيس المال تقريباً إليها وتعظيم سدنتها . فـيالها مصيبة ما أعظمها نسأل الله السلامة من هذا الشرك وما يقرب منه أو يوصل إليه .

٢٣ ـ باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ [النساء: ٥١].

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَن لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ [المائدة: ٦٠].

قوله : (باب ما جاء أن بعض هذه الأمَّة تَعْبُدُ الأوْثــانَ). الـوثن يطـلق على كل من قصد بنوع من أنواع العبادة من دون الله من صنم أو قبر أوغيره لقول الخليل عليه السلام ﴿ إنّما تعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ أَوْثاناً وَتَخلُقونَ إفْكاً ﴾ مع قوله : ﴿ قالوا نَعْبُدُ أَصْناماً فنَظَلُّ لها عاكِفينَ ﴾.

قوله : وقول الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الّذينَ أُوتوا نصيباً مِنَ الكِتابِ يُؤْمِنونَ بالجِبْتِ والطّاغوتِ ﴾ روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا : أنتم أهل الكتاب وأهل العِلْمِ فأخْبِرُونا عنّا وعن محمد ، فقالوا : ما أنتم ومحمد ؟ فقالوا : نحن نَصِل الأرحام وننحر الكوماء ونسقي المـاء على اللبن ونفك العناة ونسقي الحجيج ، ومحمد صنوبر ، قطع أرحامنا واتَّبعه سرّاق الحجيج من غفار فنحن خير أم هو؟ فقالوا : أنتم خيرٌ وأهْدى سبيلا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الّذينَ أُوتوا نصيباً مِنَ الكِتابِ ﴾ إلى قوله : ﴿ هَؤُلاءِ أَهدى مِنَ الّذينَ آمَنوا سبيلاً ﴾.

وقوله : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلكَ مثوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالخَنازيرَ وَعَبَدَ الطّاغوتَ ﴾ الآية قال البغوي في تفسيره ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكم ﴾ أخبركم ﴿ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ ﴾ يعني قولهم : لم نر أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم ولا دينا شراً من دينكم فذكر الجواب بلفظ الابتداء كقوله ﴿ قُلْ أَفأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلكُمْ النّارُ ﴾.

وقوله : ﴿ مَثوبَةً ﴾ ثواباً وجزاء نصب على التفسير ﴿ عِنْد اللهِ ؟ مَنْ لعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ القِرَدَةَ وَالخنازير ﴾ فالقردة : أصحاب السبت ، والخنازير : كفار مائدة عيسى ، وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن المسخين كلاهما من أصحاب السبت ،

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِم لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِداً ﴾[الكهف: ٢١].

عن أبي سعيد رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ » . قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فَمَنْ ؟ » أخرجاه[1] .

فشبابهم مسخوا قردة ، ومشايخهم مسخوا خنازير ﴿ وعَبَدَ الطَّاغوتَ ﴾ أي وجعل منهم من عبد الطاغوت أي اطاع الشيطان فيما سول له . وفي تفسير الطبري قرأ حمزة ﴿ وعَبُدَ الطاغوتِ ﴾ بضم الباء وجر التاء ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم النخعي والأعمش وأبان بن تغلب وعبد الطاغوت بضم العين والباء وفتح الدال وخفض التاء .

قوله : ﴿ أولئكَ شَرٌّ مَكاناً﴾ مما تظنون بنا ﴿وأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشارك كقوله : ﴿ أَصْحابُ الجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيرٌ مُسْتَقَراً وَأَحْسنُ مَقيلاً ﴾ قاله ابن كثير .

قوله : (عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺقال : « لَتَتَّبِعُنَّ سَننَ مَنْ كانَ قَبلكمْ حَذْوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ حَتَّى لَوْ دَخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدَخلْتموه قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » أخرجاه) وهذا سياق مسلم ، فبين ﷺ في هذا أن كل ما وقع من أهل الكتاب ممَّا ذمّهم الله به في هذه الآيات وغيرها لابد أن يقع جميعه في هذه الامة وهو الشاهد للترجمة .

قوله : (سَنَنَ) بفتح المهملة أي طريق من كان قبلكم .

قوله : (حَذْوَ القُذَّةِ) بنصب حَذو على المصدر والقذة بضم القاف واحدة القذذ وهو ريش السهم أي لتتبعنّ طريقهم في كل ما فعلوه وتشبهوهم في ذلك كما تشبه قذة السهم القذة الأخرى كما أخبر ﷺ . قال سفيان بن عينية : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبّادنا ففيه شبه من النصارى ، انتهى .

---

(١) البخاري رقم (٣٤٥٦) في أحاديث الأنبياء : باب ما ذكر عن بني اسرائيل ، ورقم (٧٣٢٠) في الاعتصام بالكتاب والسنة : باب قول النبي ﷺ : « لتتبعن سنن من كان قبلكم » ، ومسلم رقم

ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ الله زَوَى لِي الأَرضَ ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي

قوله : (عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ آلله زوى لِيَ الأَرْضَ فـرَأَيْتُ مَشارِقها وَمَغارِبها ، وَإِنَّ أُمَّتي سَيَبْلُغ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها ، وَأُعْطِيتُ الكِنزَيْن . . .) الحديث . هذا الحديث رواه أبو داود في سننه وابن ماجه[1] بالزيادة التي ذكرها المنصف رحمه الله .

قوله : (عن ثوبان) وهو مولى النبي ﷺ ولازمه ونزل بعده الشام ومات بحمص سنة أربع وخمسين .

قوله (زوَى لي الأرْضَ) قال التوربشتي زويت الشيء جمعته وقبضته ، يريد تقريب البعيد منها حتى اطَّلع عليه اطِّلاعه على القريب ﷺ ، وحاصله أنه طوي له الأرض وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظره . قال الطيبي : جمعها لي حتى أبصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها .

قوله : (وإنَّ أُمَّتي سَيَبْلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي مِنها) قال القرطبي : هذا الخبر وجد مخبره كما قال ، وكان ذلك من دلائل نبوته ﷺ وذلك أن ملك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طنجة بالنون والجيم ، الذي هو منتهى عمارة المغرب ، إلى أقصى المشرق مما وراء

= (٢٦٦٩) في العلم : باب اتباع سنن اليهود والنصارى ، وأحمد في « المسند » ٨٤/٣ و٨٩ و٩٤ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وليس السياق لمسلم ، ولا اللفظ لأحدهما ، ورواه البخاري رقم (٧٣١٩) في الاعتصام : باب قول النبي ﷺ: « لتتبعن سنن من كان قبلكم » ، وابن ماجه في « سننه » رقم (٣٩٩٤) في الفتن : باب افتراق الأمم ، وأحمد في « المسند » ٣٢٧/٢ و٤٥٠ و١١٥ و٥٢٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وجملة « حذو القذة بالقذة » ليست في « الصحيحين » وإنما هي عند أحمد في « المسند » ١٢٥/٤ من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه بلفظ « ليحملن شرار هذه الأمة على سنن الذين خلوا من قبلكم أهل الكتاب ، حذو القذة بالقذة » ولفظه عند مسلم « لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم ، قلنا يا رسول الله ! اليهود والنصارى قال : فمن ؟! » .

(١) أبو داود رقم (٤٢٥٢) في الفتن والملاحم : باب ذكر الفتن ودلائلها ، وابن ماجه رقم (٣٩٥٢) في الفتن : باب ما يكون من الفتن ، وأحمد في « المسند » ٢٧٨/٥ و ٢٨٤ من حديث ثوبان رضي الله عنه ، وإسناده صحيح ، ورواه الترمذي مختصراً من حديث ثوبان رضي الله عنه ، رقم (٢٢٣٠) في الفتن : باب ما جاء في الأئمة المضلين ، ورواه أحمد في « المسند » ١٢٣/٤ من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه .

مِنْهَا ، وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ : الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لاَ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ ، وَأَنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَـدُوّاً مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ . وَإِنَّ رَبِّي قَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لاَ يُرَدُّ ، وَإِنِّي

....

خراسان والنهر وكثير من بلاد الهند والسند والصين ، ولم يتسع ذلـك الاتساع من جهـة الجنوب والشمال ولذلك لم يذكر عليه السلام أنه أُريه ، ولا أخبر أن ملك أمته يبلغه .

قوله : (زُوِيَ لي منها) يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل وأن يكون مبنياً للمفعول .

قوله : (وَأُعْطِيتُ الكَنزَيْنِ الأَحْمرَ وَالأَبْيضَ) قال القرطبي يعني به كنز كسرى وهو ملك الفرس وقيصر وهو ملك الروم وقصورهما وبلادهما ، وقد قال ﷺ : « والذي نَفسي بِيدِهِ لتنفقن كنوزهما في سبيل الله » وعبر بالأحمر عن كنز قيصر لأن الغالب عندهم كان الذهب وبالأبيض عن كنز كسرى لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة ووجد ذلك في خلافة عمر .

قوله : (وَإِنِّي سَأَلتُ رَبِّي لأُمَّتي أَنْ لا يُهْلِكَها بِسَنَةٍ بِعامَّـةٍ) هكذا ثبت في أصـل المصنف بالباء وهي رواية صحيحة في صحيح مسلم وفي بعضها بحذفها قال القرطبي : وكأنها زائدة لأن عامة صفة السنة، والسنة: الجدب الذي يكون به الهلاك العام .

قوله : (مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ) أي من غيرهم من الكفار من إهلاك بعضهم بعضاً وسبى بعضهم بعضاً كما هو مبسوط في التاريخ .

قوله : (فَيَسْتَبيحَ بَيْضَتَهُمْ) قال الجوهري : بيضـة كل شيء حـوزته وبيضـة القوم ساحتهم ، وعلى هذا فيكون معنى الحديث أن الله لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيـح جميع مـا جازوه من البـلاد والأرض ولو اجتمـع عليهم من بأقـطار الأرض وهي جوانبها ، وقيل بيضتهم معظمهم وجماعتهم وإن قلوا .

قوله : (حتَّى يَكونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً ، وَيَسْبي بَعْضُهُمْ بَعْضاً) الظاهر أن حتى هنا لانتهاء الغاية أي أن أمر أمته ينتهي إلى أن يكون بعضهم يهلك بعضاً .

قوله : (وَإِنَّ رَبِّي قال : يا محمدُ إذا قضيتُ قضاءً فإِنَّه لا يُرَدُّ) هذا كما في الحديث « وَلا رادَّ لما قَضَيْتَ » (١) .

---

(١) قطعة من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، **ولا راد لما قضيت**، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» رواه البزار واسناده حسن، كما قال الهيثمي في «المجمع» ١٠/١٠٣ . انظر «الفتح» ٢/٣٣٣ و١١/٥١٢.

أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ بِأَقْطَارِهَا ـ أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا ـ حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً »[1] .

ورواه البرقاني في « صحيحه » وزاد : « وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ

....

قوله : (ورواه البرقاني في صحيحه) هو الحافظ الكبير أبو بكر أحمد بن محمد بن غالب الخوارزمي الشافعي ، ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، ومات سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، قال الخطيب : كان ثبتاً ورعاً ، ولم نرى في شيوخنا أثبت منه ، عارفاً بالفقه كثير التصانيف مسنداً ضمنه ما اشتمل عليه الصحيحان ، وجمع حديث الثوري وحديث شعبة وطائفة .

قوله : (وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَةَ المُضِلِّينَ) أي الأمراء والعلماء والعباد فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّون بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالمعْتَدِينَ ﴾ وقال : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ ﴾ وأمثال هذه الآيات كثير ، وعن زياد بن حدير قال : قال لي عمر : هل تعرف ما يهدم الاسلام ؟ قلت : لا ، قال : يهدمه زلة العالم وجدال المنافق بالكتاب ، وحكم الأئمة المضلين ، رواه الدارمي [2] .

قوله : (وَإِذا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إلى يَوْمِ القيامةِ) وقد وقع ذلك ومازالت الأمة كذلك ، نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة ، وفيه ما هو حق كقتال أهل التوحيد لأهل الشرك بالله وجهادهم على تركهم الشرك ، وقد مَنَّ الله بذلك على من أقامهم في آخر هذا الزمان بالدعوة إلى توحيده ، لكن أهل الشرك بدءُوهم بالقتال وأظهرهم الله عليهم كما لا يخفى على من تدبر آيات هذا الدين في هذه الأزمنة .

قوله : (وَلا تَقومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلحقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتي بالمشركينَ) الحيُّ واحد الأحياء وهي القبائل : وفي رواية أبي داود (حتى يلحق قَبائلُ مِنْ أمتي بالمشركين وَكَمْ وَكَمْ) .

قوله : (وحتى تعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتي الأَوْثان) والفئام مهموز : الجماعات الكثيرة ، قاله

---

(١) مسلم رقم (٢٨٨٩) في الفتن وأشراط الساعة : باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض .

(٢) الدارمي رقم (٢٢٠) في المقدمة : باب في كراهية أخذ الرأي ، واسناده ضعيف .

حَتَّىٰ يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالمُشْرِكِينَ ، وَحَتَّىٰ يَعبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلاثُونَ ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي . وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الحَقِّ مَنْصُورَةٌ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ

أبو السعادات ، وهذا هو شاهد الترجمة ، وقد استحكمت الفتنة بعبادة الأوثان حتى أنه لا يعرف أحد في هذه القرون المتأخرة أنكر ما وقع من ذلك ، حتى أقام الله شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى الذي أنكره ونهى عنه ودعا الناس إلى تركه ، وإلى أن يعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، فرماه الملوك وأتباعهم بقوس العداوة فأظهره الله بالحجة وأعز أنصاره على من ناوأهم ، وبلغت دعوته مشارق الأرض ومغاربها ولكن من الناس من عرف ومنهم من أنكر ، فانتفع بدعوته الكثير ، من أهل نجد والحجاز وعمان وغيرها ، فلله الحمد على هذه النعمة العظيمة جعلنا الله شاكرين .

قوله : (وَأنهُ سَيكونُ في أُمَّتي كَذّابونَ ثلاثونَ كُلهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبيٌّ) قال القرطبي : قد جاء عددهم معيناً في حديث حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « يَكونُ في أُمَّتي كَذّابونَ دَجّالونَ سَبْعٌ وَعِشْرونَ مِنْهُمْ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ»(١) أخرجه أبو نعيم وقال : هذا حديث غريب، وحديث ثوبان أصح من هذا . قال القاضي عياض : عدّ من تنبّأ من زمن رسول الله ﷺ إلى الآن ممن اشتهر بذلك وعرف واتبعه جماعة على ضلالته فوجد هذا العدد فيهم ، ومن طالع كتب الأخبار والتاريخ عرف صحة هذا وآخرهم الدجال الأكبر .

قوله : (وَأنا خاتَمُ النَّبِيِّينَ) قال الحسن : الخاتم الذي ختم به ، يعني أنه آخر النبيين كما قال تعالى : ﴿ ما كانَ مُحمدٌ أبا أحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِنْ رَسولَ اللهِ وَخاتَمَ النَّبيين ﴾ وإنما ينزل عيسى عليه السلام في آخر الزمان حاكماً بشريعة محمد ﷺ . مصلياً إلى قبلته فهو كآحاد أمته ، بل هو أفضل هذه الأمة .

قوله : (وَلَا تزالُ طائِفَةٌ مِنْ أُمَّتي عَلى الحَقِّ مَنْصورَةً لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خالَفَهُمْ) قال النووي : يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب ، وفقيه ومحدث ومفسر وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزاهد وعابد ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد ، بل يجوز اجتماعهم في قطر

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع» ٧/٣٣٢ : رواه أحمد [٥/٣٩٦] والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح .

حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ » .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية النساء .

الثانية : تفسير آية المائدة .

الثالثة : تفسير آية الكهف .

الرابعة : ـ وهي أهمها ـ : معنى الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع ؟ : هل هو اعتقاد قلب ، أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها ؟ .

واحد وافتراقهم في أقطار الأرض ، ويجوز أن يجتمعوا في بلد واحد وأن يكونوا في بعض دون بعض منه ، ويجوز إخلاء الأرض منهم أولاً فأولاً إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد ، فاذا انفرضوا جاء أمر الله ، انتهى ملخصاً مع زيادة فيه قاله الحافظ .

قال المصنف : وفيه الآية العظيمة أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم والبشارة بأن الحق لا يزول بالكلية .

قوله : (حتى يَأتي أَمْرُ اللهِ) الظاهر أن المراد به ما روى من قبض من بقي من المؤمنين بالريح الطيبة ووقوع الآيات العظام ، ثم لا يبقى إلَّا شرار الناس.

وقوله : (تَبارَكَ وتعَالَى) قال ابن القيم رحمه الله : البركة هي فعلة والفعل منها بارك ويتعدى بنفسه تارة وبأداة « على » تارة ، وبأداة « في » تارة . والمفعول منها مبارك وهو ما جعل منها كذلك فكان مباركاً بجعله تعالى « والنوع الثاني » بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة والفعل منها تبارك ، ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصح إلا له عز وجل فهو سبحانه المتبارك وعبده ورسوله المبارك ، وأما صفته تبارك فمختصة به كما أطلقها على نفسه في قوله : ﴿ **تبارَكَ الله رَبُّ العالمينَ** ﴾ ﴿ **تبارَكَ الَّذي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلى كلِّ شَيء قَدِيرٌ** ﴾ أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لا تطلق على غيره ، وجاءت على بناء السعة والمبالغة كتعالي وتعاظم ونحوه ، فجاء بنا تبارك على بناء تعالى الذي هو دالٌ على كمال العلوّ ونهايته ، فكذلك تبارك دالٌّ على كمال بركته وعظمتها وسعتها ، وهذا معنى قول من قال السلف : تبارك تعاظم . وقال ابن عباس : جاء بكل بركة .

الخامسة: قولهم: إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين.

السادسة: ـ وهي المقصود بالترجمة ـ أن هذا لا بد أن يوجد في هذه الأمة، كما تقرر في حديث أبي سعيد.

السابعة: التصريح بوقوعها، أعني عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة.

الثامنة العجب العجاب: خروج من يدعي النبوة، مثل المختار، مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق وفيه أن محمداً خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله مع التضاد الواضح. وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة.

العاشرة: الآية العظمى أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.

الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة.

الثانية عشرة: ما فيه من الآيات العظيمة. منها: إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك فوقع كما أخبر، بخلاف الجنوب والشمال. وإخباره بأنه أعطي الكنزين، وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين، وإخباره بأنه منع الثالثة، وإخباره بوقوع السيف، وأنه لا يرفع إذا وقع، وإخباره بإهلاك بعضهم بعضاً وسبي بعضهم بعضاً، وخوفه على أمته من الأئمة المضلين، وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة وكل هذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحد منها من أبعد ما يكون في العقول.

الثالثة عشرة: حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين.

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان.

* * *

٢٤ ـ باب ما جاء في السحر

وقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن خَلاَقٍ ﴾ [البقرة: ١٠٢] ، وقوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ [النساء: ٥١].

قال عمر : ﴿ الجبت ﴾ : السحر ، ﴿ والطاغوت ﴾ : الشيطان . وقال جابر : الطواغيت : كهان كان ينزل عليهم الشيطان ، في كل حي واحد .

قوله : (باب ما جاء في السِّحرِ) أي والكهانة ـ السحر في اللغة عبارة عما خفي ولطف سببه، ولهذا جاء في الحديث: «إنَّ مِنَ البيَانِ لسِحْراً»[1] وهذا من التشبيه البليغ شبهه بالسحر لكونه بالبيان يحصل منه ما يحصل من السحر قال أبو محمد المقدسي في الكافي : السحر عزائم ورقي ، ومنه ما يؤثر في القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه ، قال تعالى : ﴿ فيَتَعلمونَ مِنْهُمَا ما يُفَرِّقونَ بِهِ بَينَ المرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ وقال : ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفاثاتِ في العُقَدِ ﴾ يعني السواحر اللاتي ينفثن في سحرهن . ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر بالاستعاذة منه ، واختلفوا هل يكفر الساحر أو لا ؟ فذهب طائفة من السلف الى أنه يكفر ، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد ، قال أصحابه الا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقي شيء يضر فلا يكفر.

ومما يدل على أنه كفر قوله تعالى : ﴿ وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إنَّما نَحنُ فِتْنَةٌ فَلا تكْفُرْ ﴾.

وقوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ قال عُمرُ : (الجبت : السحر . والطاغوت : الشيطان) وتقدم كلام ابن القيم رحمه الله تعالى في حد الطاغوت وأن له أفراداً منها عبادة غير الله ، فالمعبود طاغوت كما دلت عليه الآيات ، ومنهم الكهان ومن يحكم بغير الحق أو يأمره بما يخالف الحق ، أو يرضى به وغير ذلك.

قوله : (الطَّواغيتُ كُهَّانٌ) أراد أن الكهان من الطواغيت .

قوله : (كَانَ يَنْزلُ عَليْهمُ الشَّيطانُ) أراد الجنس لا الشيطان الذي هو إبليس خاصة بل تنزل عليهم الشياطين ويخاطبونهم ويخبرونهم بما يسترقونه من السمع فيصدقون مرة ، ويكذبون مائة.

---

(١) سيأتي تخريجه ص (١٣٩)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ » قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : « الشِّرْكُ باللهِ ، والسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبا ، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيم ، والتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلاَتِ المُؤْمِنَاتِ » .

قوله : (وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ » قالوا يا رسولَ اللهِ وَمَا هُنَّ ؟ قال : « الشِّرْكُ بِاللهِ ، وَالسِّحْرُ وَقتلُ النَّفْسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبا وَأَكْلُ مَالِ اليَتيمِ وَالتَّوَلِّي يَـوْمَ الزَّحْفِ وَقَـذْفُ المحصناتِ الغافِلاتِ المُؤْمِناتِ)[1] .

كذا أورده المصنف رحمه الله تعالى غير معزو ، وقد رواه البخاري ومسلم .

(اجتنبوا) أي ابعدوا وهو أبلغ من قوله دعوا أو اتركوا لأن النهي عن القربان أبلغ كقوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْرَبوا الفَواحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْها وَمَا بَطَنَ ﴾ .

قوله (الموبِقاتِ) بموحّدة وقاف أي المهلكات ، وسُميت هذه موبقات لأنها تهلك فاعلها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات ، وفي الآخرة من العذاب ، وفي حديث ابن عمر عند البخاري في الادب المفرد مرفوعا قال : « الكَبائرُ تِسْعٌ »[2] وذكر السبعة المذكورة « وَالإلْحاد في الحَرَمِ وعُقوقُ الوالِدَيْنِ » .

قوله : (قال : الشِّرْكُ بِاللهِ) هو أن يجعل لله ندًا يدعوه أو يرجوه كما يرجوه الله قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :

والشـرك فاحـذره فشركُ ظـاهـرٌ ‏ ‏ ‏ ذا القسمُ ليس بقـابـل الغفـرانِ

---

(١) البخاري رقم (٢٧٦٦) في الوصايا : باب قول الله تعالى : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم نـاراً وسيصلون سعيراً ﴾ ورقم (٥٧٦٤) في الطب : باب الشرك والسحر من الموبقات ، ورقم (٦٨٥٧) في المحاربين : باب رمي المحصنات ، ومسلم رقم (٨٩) في الإيمان : باب بيان الكبائر واكبرها ، وابو داود رقم (٢٨٧٤) في الوصايا : باب ما جاء في التشديد في أكل مال اليتيم ، والنسائي ٢٥٧/٦ في الوصايا : باب اجتناب أكل مال اليتيم .

(٢) أبو داود رقم (٢٨٧٥) في الوصايا : باب التشديد في أكل مال اليتيم ، والنسائي ٢٥٧/٦ في الوصايا : بـاب اجتناب أكـل مال اليتيم ، والحـاكم ٥٩/١ و٢٥٩/٤ ، والبيهقي ٤٠٨/٣ - ٤٠٩ من طريق عبد الحميد بن سنان عن عبيد بن عمير عن أبيه أنه حدثه وكانت له صحبة أن رسول الله ﷺ قال في =

وهـو اتخـاذ النِّـدِّ للرحْمنِ أيّـا كـان من حَجَـر ومـن إنسـانِ
يـدعـوه أو يـرجـوه ثم يخـافُـه ويـحبّـه كـمـحبـة الـدَّيّـانَ

وبدأ به لأنه أعظم ذنب عُصِيَ الله به كما قال تعالى : ﴿ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عظِيمٌ ﴾ .
(والسِّحْرُ) تقدم تعريفه .

قوله : (وَقَتْل النَّفْس التي حَرَّمَ الله إلاّ بـالحَقِّ) أي نفس المسلم المعصوم وقتـل المعاهد كما في الحديث « مَنْ قتَلَ مَعاهداً لمْ يَرحْ رائحةَ الجَنَّةِ »[1] وذهب ابن عباس وأبو هريرة إلى أنه لا توبة لمن قتل مؤمناً متعمداً ، وذهب جمهور الامة سلفا وخلفا إلى أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله فان تاب وأناب وعمل صالحا بدل الله سيئاته حسنات كما قال تعالى : ﴿ وَالذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ الله إلٰهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلونَ النَّفسَ التي حَرَّمَ الله إلاّ بِالحَقِّ وَلا يَزْنونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذلكَ يَلْقَ أثاماً ﴾ إلى قوله ﴿ إلاّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالحـاً فأولئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ الله غَفوراً رَحيماً ﴾ .

قوله : (وَأَكْلُ الرِّبا) أي تناوله بأي وجه كما قال تعالى ﴿ الَّـذينَ يَأْكُلُونَ الـرِّبا لا يَقومونَ إلا كما يَقومُ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المسِّ ﴾ الآيات . قال ابن دقيق العيد : وهو يجر لسوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك . قال تعالى :﴿ يا أَيها الَّذينَ آمَنوا لا تأْكُلوا الرِّبا أَضْعافاً مُضاعَفَةً واتَّقُوا الله لعَلَّكُمْ تفْلِحونَ ﴾ وفي الحديث « الرِّبا نَيِّفٌ وَسَبْعونَ حُوباً أَيسَرُها مِثْلُ أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّهُ » .

قوله : (وأكْلُ مَالِ اليَتيمِ) يعني التعدي فيه وعبّر بالأكل لأنه أعم وجوه الانتفاع كما قال تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ يَأْكُلونَ أَمْوالَ اليَتامى ظُلْماً إِنَّما يأْكُلونَ في بُطونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعيراً ﴾ .

قوله : (وَالتَّولي يَوْمَ الزَّحْفِ) أي الادبار عن الكفار وقت التحام القتـال كما قـال

= حجة الوداع : « ألا إن اولياء الله المصلون من يقيم الصلوات الخمس التي كتبن عليه ، ويصوم رمضان يحتسب صومه ، يرى أنه عليه حق ، ويعطي زكاة ماله يحتسبها ويجتنب الكبائر التي نهى الله عنها ، ثم إن رجلاً سأله فقال : يا رسول الله ما الكبائر ، فقال هن تسع : اشراك بـالله . . . » الحديث ، وهو حديث حسن كما قال الألباني في « الارواء » رقم (٦٩٠) .

(١) البخاري رقم (٣١٦٦) في الجزية والموادعة : باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم ، من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنه ، وتتمته « . . . وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً » .

وعن جندب مرفوعاً : « حَدُّ السَّاحِرُ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ » . رواه الترمذي ، وقال : الصحيح أنه موقوف.

وفي « صحيح البخاري » عن بَجَالَةَ بنِ عَبَدَةَ قَالَ : كتب عمر بن

....

تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمئِذٍ دُبُرَهُ إلاّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصيرُ ﴾.

قوله : (وَقَذْفُ المُحْصَناتِ الغافِلاتِ المُؤْمِناتِ) وهو بفتح الصاد المحفوظات من الزنا ، وبكسرها الحافظات فروجهن منه ، والمراد الحرائر العفيفات قال تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ يَرْمونَ المحْصَناتِ الغافِلاتِ المُؤْمِناتِ لُعِنوا في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ ﴾ الآية.

قوله : (عن جندب) رواه الطبراني في ترجمة جندب بن عبد الله البجلي قال الحافظ : والصواب أنه غيره وقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين عن الحسن عن جندب الخير : أَنَّهُ جاءَ إلى ساحِرٍ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ حَتى مَاتَ وَقالَ : سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ . . فذكره.

قوله : (حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيفِ) روى بالهاء وبالتاء وكلاهما صحيح : وبهذا الحديث أخذ احمد ومالك وأبو حنيفة فقالوا : يقتل الساحر . وروى ذلك عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وجندب بن عبد الله وجندب بن كعب وقيس بن سعد وعمر بن عبد العزيز ، ولم ير الشافعي عليه القتل بمجرد السحر إلا إن عمل في سحر ما يبلغ الكفر به . قال ابن المنذر : وهو رواية عن أحمد والأول أولى للحديث والأثر عن عمر ، وعمل به الناس في خلافته من غير نكير.

قوله : (وَفي صَحيحِ البُخاريّ عَنْ بَجالَةَ بن عَبدَةَ قال : كَتَبَ عمَرُ أَنِ اقْتُلوا كُلَّ ساحرة فَقَتَلْنا ثلاثَ سَواحِرَ).

هذا الاثر رواه البخاري كما قال المصنف لكن لم يذكر قتل السواحر.

---

(١) رواه الترمذي رقم (١٤٦٠) في الحدود : باب ما جاء في حد الساحر ، والحاكم ٣٦٠/٤ في الحدود : باب حد الساحر وضربه بالسيف ، والدارقطني ١١٤/٣ ، والبيهقي ١٣٦/٨ ، وفي إسناده اسماعيل بن مسلم المكي ابو اسحاق ، وهو ضعيف الحديث .

الخطاب : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة . قال : فقتلنا ثلاث سواحر[1] .

وصح عن حفصة رضي الله عنها : أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها ،

....

قوله : (عن بجالة) بفتح الموحدة بعدها جيم (ابن عبدة) بفتحتين التميمي العنبري بصري ثقة .

قوله : (كَتَبَ عُمرُ بْنُ الخطاب أَنِ اقْتُلوا كلَّ سَاحِرٍ وَسَاحرةٍ) . وظاهره أنه يقتل من غير استتابة ، وهو كذلك على المشهور عن أحمد ، وبه قال مالك لأن علم السحر لا يزول بالتوبة ، وعن أحمد يستتاب فان تاب قبلت توبته : وبه قال الشافعي لأن ذنبه لا يزيد على الشرك والمشرك يستتاب وتقبل توبته ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم .

قوله : (وصح عن حفصة رضي الله عنها أنُّها أَمَرَتْ بِقَتْلِ جارِيَةٍ لها سَحَرَتْها فَقُتِلَتْ)[2] هذا الأثر رواه مالك في الموطأ وحفصة هي أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب تزوجها النبي ﷺ بعد خنيس بن حذافة وماتت سنة خمس وأربعين .

وقوله : (وكذا صَحَّ عن جُنْدَبٍ) أشار المصنف بهذا إلى قتل الساحر كما رواه البخاري في تاريخه عن أبي عثمان النَهدي قال : كان عند الوليد رجل يلعب فذبح إنسانا وأبان رأسه فعجبنا فأعاد رأسه فجاء جندب الأزدي فقتله . ورواه البيهقي في الدلائل مطولا وفيه : فأمر به الوليد فسجن فذكر القصة بتمامها ولها طرق كثيرة .

---

(١) رواه البخاري مختصراً ، ولم يذكر قتل السحرة رقم (٣١٥٦) في فرض الخمس : باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب ، ولفظه : عن بجالة بن عبدة قال : كنت كاتباً لجزء بن معاوية الأحنف ، فأتانا كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل موته بسنة : فرقوا بين كل ذي محرم من المجوس ، ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر ، وبنحوه رواه الترمذي رقم (١٥٨٦) في أبواب السير : باب ما جاء في أخذ الجزية من المجوس ، ورواه باللفظ الذي ذكره المصنف أحمد في « المسند » ١/١٩٠ و ١٩١ ، ورواه بنحوه أبو عبيد القاسم بن سلام في « الأموال » صفحة (٤٠) وأبو داود رقم (٣٠٤٣) في الخراج والإمارة والفيء : باب في أخذ الجزية من المجوس ، وإسناده حسن .

(٢) رواه مالك في « الموطأ » ٨٧٢/٢ بلاغاً ، واسناده منقطع .

فقتلت . وكذلك صحَّ عن جندب . قال أحمد : عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية البقرة .

الثانية : تفسير آية النساء .

الثالثة : تفسير الجبت والطاغوت ، والفرق بينهما .

الرابعة : أن الطاغوت قد يكون من الجن ، وقد يكون من الإنس .

الخامسة : معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي .

السادسة : أن الساحر يكفر .

السابعة : أنه يقتل ولا يستتاب .

الثامنة : وجود هذا في المسلمين على عهد عمر ، فكيف بعده ؟!

* * *

٢٥ - باب بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا عوف عن حيان بن العلاء ،

قوله : (قال أحمد عن ثَلاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبيِّ ﷺ) أحمد هو الامام أحمد بن حنبل أي صح قتل الساحر عن ثلاثة .

باب بيان شيء من أنواع السحر

قوله (قال أحمد حدثنا محمد بن جعفر : حدثنا عوف عن حيان بن العلاء حدثنا قطن ابن قبيصه) هو الامام أحمد بن محمد بن حنبل ؛ ومحمد هو ابن جعفر المشهور بغندر الهذلي البصري ثقة مشهور مات سنة ست ومائتين . وعوف هو ابن أبي جميلة بفتح الجيم العبدي البصري المعروف بعوف الأعرابي ثقة مات سنة ست أو سبع وأربعين وله ست وثمانون سنة . وحيان بن العلاء بالتحتية ويقال حيان بن مخارق أو العلاء البصري مقبول . وقطن بفتحتين أبو سهلة البصري صدوق.

حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال : « إِنَّ العِيَافَةَ وَالطَّرْقَ والطِّيَرَةَ مِنَ الجِبْتِ »[1] .

قال عوف : العيافة : زَجر الطير ، والطرق : الخط يخط بالأرض . والجبت ، قال الحسن : رنة الشيطان . إسناده جيد ولأبي داود والنسائي وابن حبان في « صحيحه » المسند منه .

....

قوله (عن أبيه) هو قبيصة بفتح أوله ابن مخارق بضم الميم أبو عبد الله الهلالي صحابي نزل البصرة .

قوله : (إِنَّ العِيافَةَ والطَّرْقَ والطِّيَرَةَ مِنَ الجِبْتِ ، قال عوف : العيافة : زَجْرُ الطَّيرِ ، وَالطَّرْقُ : الخَطُّ يُخَطُّ بِالأَرْضِ) وَالطِّيَرَةُ التّفاؤُلِ بِأَسْمائها وأصواتها وممرها وهو من عادة العرب وكثير في أشعارهم يقال : عاف يعيف إذا زجر وحدس وظن .

قوله : « شُعْبَةً » أي طائفة ومنه الحديث « الحيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الايمَانِ » أي جزء منه .

قوله : (والطرق الخَطُّ يُخطُّ بِالأَرْضِ) هكذا فسره عوف وهو كذلك قال أبو السعادات : هو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء .

قوله : (والجبت) أي السحر .

قوله : (قال الحسن رنَّة الشيطان) (قلت) ذكر إبراهيم بن محمد بن مفلح أن في تفسير بقي بن مخلد أن إبليس رنّ أربع رنات ، رنة حين لُعِنَ ورنة حين أهبط ، ورنة حين ولد رسول الله ﷺ ، ورنة حين أنزلت فاتحة الكتاب . وروى الحافظ الضياء في المختارة :

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ٤٧٧/٣ و ٦٠/٥ ، وأبو داود رقم (٣٩٠٧) في الطب : باب في الخط وزجر الطير ، وابن حبان (١٤٢٦) « موارد » في الطب : باب ما جاء في الطيرة ، وفي سنده حيان بن العلاء ، وقيل : عن عوف بن حيان لم ينسب ، وقيل : عن حيان أبي العلاء ، وقال ابن حبان : حيان ابن مخارق أبو العلاء ، وهو مجهول ، لم يوثقه غير ابن حبان ، وباقي رجاله ثقات ، ومع ذلك فقد حسنه الامام النووي في « رياض الصالحين » رقم (١٦٨٤) طبعة دار البيان بدمشق .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ ، فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ ، زَادَ مَا زَادَ »[1] رواه أبو داود ، وإسناده صحيح .

وللنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ

الرنين : الصوت ، وقد رن يرن رنينا ، وبهذا يظهر معنى قول الحسن رضي الله عنه .

قوله : (المسند منه) لم يذكروا قول عوف .

قوله : (وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : رسول الله ﷺ « مَنْ اقتبسَ شُعبةً مِنَ النُّجومِ فقد اقتبس شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ » رواه أبو داود باسناد صحيح) ولذا صححه النووي والذهبي ورواه أحمد وابن ماجه .

قوله : « مَنِ اقتَبسَ » قال أبو السعادات : قبست العلم وأقبست إذا علمته . انتهى .

قوله : (فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةَ مِنَ السِّحْرِ) المحرم تعليمه قال شيخ الاسلام فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر . وقد قال تعالى : ﴿ **وَلا يُفْلِحُ السَّاحِـرُ حَيْثُ أَتى** ﴾

قوله : (زَادَ ما زَادَ) أي كلما زاد من تعلم النجوم زاد في السحر وفي الاثم الحاصل بزيادة الاقتباس من شعبه فان ما يعتقدونه في النجوم من التأثير باطل كما أن تأثير السحر باطل والله أعلم .

قوله : (وللنسائي من حديث ، أبي هريرة « مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثمَّ نَفَثَ فيها فَقَدْ سَحَرَ ، وَمَنْ سَحَرَ فقَدْ أَشْرَكَ ، وَمَنْ تَعَلّقَ شَيْئاً وُكِلَ إليْهِ ») هذا الحديث ذكره المصنف رحمه الله تعالى من حديث أبي هريرة وعزاه للنسائي ، وقد رواه النسائي مرفوعا وحسنه ابن مفلح .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ١/ ٢٧٧ و ٣١١ ـ وأبو داود رقم (٣٩٠٥) في الطب : باب في النجوم ، وابن ماجه (٣٧٢٦) : باب تعلم النجوم ، وهو حديث صحيح ، كما قال الألباني في « الأحاديث الصحيحة » رقم (٧٩٣) .

فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً وُكِلَ إِلَيْهِ »[1] .

وعن ابن مسعود ، أن رسول الله ﷺ قال : « أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْةَ ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ ، القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ »[2] رواه مسلم .

قوله : (وللنسائي) هو الامام الحافظ أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار أبو عبد الرحمن صاحب السنن الكبرى والمجتبي وغيرهما روى عن محمد بن المثنى وابن بشار وقتيبة وخلق وكان إليه المنتهى في العلم بعلل الحديث مات سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وله ثمانون سنة.

قوله : (مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثمَّ نَفَثَ فيها فَقَدْ سَحَرَ) قال تعالى : ﴿ **وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ** ﴾ يعني السواحر اللاتي يفعلن ذلك ، والنفث هو دون التفل .

وقوله : ﴿ **وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئاً وُكِلَ إِلَيْهِ** ﴾ أي من علق قلبه بشيء بحيث يرجوه ويخافه وكله الله إلى ذلك الشيء ، ومن قصر تعلقه على الله وحده كفاه ووقاه كما قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ ومن تعلق قلبه بغير الله في رجاء نفع أو دفع ضر فقد أشرك.

قوله : (وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْهُ ؟ هِيَ النَّمِيمَة : القالَةُ بينَ النَّاسِ » رواه مسلم) .

قوله : (أَلا أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْهُ ؟) بفتح المهملة وسكون المعجمة ثم فسرها بقوله :

---

(١) رواه النسائي ١١٢/٧ في تحريم الدم : باب الحكم في السحرة ، وهو حديث ضعيف ، والفقرة الأخيرة « ومن تعلق شيئاً وكل إليه » لها شاهد من حديث عبد الله بن عكيم رضي الله عنه ، عن الترمذي رقم (٢٠٧٣) في الطب : باب ما جاء في كراهية التعليق ، وعند أحمد ٣١٠/٤ و ٣١١ والحاكم ٢١٦/٤ ، وفي سنده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، وهو سيء الحفظ ولكنه يصلح شاهداً لهذه الفقرة فتتقوى هذه الفقرة .

(٢) رقم (٢٦٠٦) في البر والصلة والآداب : باب تحريم النميمة .

قوله : « العضة » هذه اللفظة رددها على وجهين : أحدهما العِضَة والثاني العَضْة ؛ والثاني هو الأشهر في كتب الحديث وغريبه ، والأول أشهر في كتب اللغة . وتقدير الحديث والله أعلم : ألا أنبئكم ما العضة الفاحش الغليظ التحريم .

و «لهما» عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : «إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْراً»(١) .

....

(هيَ النَّميمَةُ) فأطلق عليها العضه لأن النمام يعمل عمل الساحر وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير قال : يُفْسِد النمام والكذاب في ساعة ما لا يفسد الساحر في سنة ، وقال أبو الخطاب في عيون المسائل : ومن السحر السعي بالنميمة والافساد بين الناس ، قال ابن حزم : واتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة في غير النصيحة الواجبة ، وفيه دليل على أنها من الكبائر .

قوله : (القالَةُ بَينَ النَّاسِ) ومنه الحديث « فَفَشَتِ القالَةُ بَينَ النَّاس » أي كثرة القول وإيقاع الخصومة.

قوله : (ولهما عن ابن عمر أن رسول اللّه ﷺ قال : « إنَّ مِنَ البَيانِ لسِحْراً ») البيان الفصاحة والبلاغة . قال ابن عبد البر : تأوله طائفة على الذم لأن السحر مذموم وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب الى أنه على المدح لأن الله تعالى مدح البيان ، قال وقال عمر ابن عبد العزيز رحمه الله تعالى لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله : « هذا والله السحر الحلال » انتهى ، والأولُ أصح والمراد به البيان الذي فيه تمويه على السامع وتلبيس كما قال بعضهم .

في زخرفِ القولِ تَزيينٌ لباطلهِ ... والحقُّ قد يعتريه سُوءُ تعبير

مأخوذ من قول الآخر .

تقول هذا مجاج النحل تمدحه ... وإن تَشا قُلتَ ذا قَيءُ الزَّنانير

مَدْحاً وَذماً وما جاوزت وصفهما ... والحق قد يعتريه سوءُ تعبير

قوله : (إنَّ مِنَ البيَانِ لسِحْراً) هذا من التشبيه البليغ لكون ذلك يعمل عمل السحر فيجعل الحق في قالب الباطل . والباطل في قالب الحق فيستميل به قلوب الجهال حتى يقبل الباطل وينكر الحق ، وأما البيان الذي يوضح الحق ويقرره ، ويبطل الباطل ويبيِّنه ، فهذا هوالممدوح ، وهكذا حال الرسل وأتباعهم ولهذا علت مراتبهم في الفضائل وعظمت حسناتهم .

---

(١) البخاري رقم (٥١٤٦) في النكاح : باب الخطبة ، رقم (٥٧٦٧) في الطب : باب ان من البيان سحراً ،

فيه مسائل :

الأولى : أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت .
الثانية : تفسير العيافة والطرق .
الثالثة : أن علم النجوم نوع من السحر .
الرابعة : أن العقد مع النفث من ذلك .
الخامسة : أن النميمة من ذلك .
السادسة : أن من بعض الفصاحة منه .

* * *

٢٦ ـ باب ما جاء في الكهان ونحوهم

روى مسلم في « صحيحه » عن بعض أزواج النبي ﷺ ، عن النبيِّ ﷺ

....

قوله : (باب ما جاء في الكهّان ونحوهم) الكاهن هو الذي يأخذ عن مسترق السمع وكانوا قبل المبعث كثيراً وأما بعد المبعث فانهم قلوا لأن الله حرس السماء بالشهب وأكثر ما يقع في هذه الامة ما يخبر به الجن مواليهم من الانس عن الاشياء الغائبة مما يقع في الارض من الاخبار فيظنه الجاهل كشفا وكرامة وقد اغتر بذلك كثير من الناس يظنون ذلك المخبرَ لهم عن الجنّ وليّاً لله وهو من أولياء الشيطان كما قال تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ يَحشُرُهُمْ جَميعاً يا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتم مِنَ الإنسِ وقال أَوْلياؤُهُمْ مِنَ الإنْسِ رَبَّنا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وبَلغْنا أجَلَنا الذي أَجَّلْتَ لنا ، قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالدينَ فيها إلاّ مَا شاءَ الله** ﴾ الآية .

= ومالك في « الموطأ » ٢/٩٨٦ في الكلام : باب ما يكره من الكلام ، وأبو داود رقم (٥٠٠٧) في الأدب : باب ما جاء في المتشدق في الكلام ، والترمذي رقم (٢٠٢٩) في البر والصلة : باب ما جاء في ان من البيان سحراً ، وأحمد في « المسند » ٢/١٦ و ٥٩ و ٦٣ و ٩٤ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، ورواه ايضاً مسلم رقم (٨٦٩) في الجمعة : باب تخفيف الصلاة والخطبة ، وأحمد في « المسند » ٤/٣٦٣ ، من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه ، وأبو داود رقم (٥٠١١) ، وأحمد في « المسند » ١/٢٦٩ و ٣٠٣ و ٣٠٩ و ٣١٣ و ٣٢٧ و ٣٣٢ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وأحمد في « المسند » ٣/٤٧٠ من حدث معن بن يزيد السلمي رضي الله عنه ، وأبو داود رقم (٥٠١٢) من حديث بريدة رضي الله عنه .

قال : « مَنْ أَتَىٰ عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْماً »(١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « مَنْ أَتَىٰ كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحمَّدٍ ﷺ »(٢) رواه أبو داود .

قوله : (عن بعض أزواج النبي ﷺ) هي حفصة ، ذكره أبو مسعود الثقفي لأنه ذكر هذا الحديث في «الأطراف» في مسندها قال البغوي: العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك وقيل هو الكاهن والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل ، وقيل : الذي يخبر عما في الضمير ، وقال شيخ الاسلام : العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ، وقال ايضاً ، والمنجم يدخل في اسم العراف ، وقال ابن القيم : من اشتهر باحسان الزجر عندهم سموه عائفاً وعرافاً .

قوله : (لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْماً) قال النووي وغيره ما معناه آنه لا ثواب له فيها وإن كانت مجزية بسقوط الفرض عنه . ولا بد من هذا التأويل في هذا الحديث فان العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين ليلة انتهى ملخصا .

قوله : (وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (مَنْ أَتَى كاهناً فصدَّقَهُ بِما يَقول فَقَدْ كَفرَ بما أُنْزِلَ عَلى محمدٍ ﷺ) رواه أبو داود) وفي رواية أبي داود (أو امرأته) قال مسدد : (امرأته حائضا) (أو أتى امرأة) قال مسدد : (امرأته في دبرها فقد بريء مما أنزل على محمد ﷺ) .

---

(١) مسلم رقم (٢٢٣٠) في السلام : باب تحريم الكهانة ، عن بعض أزواج النبي ﷺ ولفظه « من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » . وجملة « فصدقه بما يقول » ليست عند مسلم ، وانما هي عند أحمد في « المسند » ٤/ ٦٨ و ٥/ ٣٨٠ عن بعض أزواج النبي ﷺ ، ولفظه عند أحمد « من أتى عرافاً فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يوماً » .

(٢) رواه أحمد في « المسند » ٢/ ٤٠٨ و ٤٢٩ و ٤٧٦ ، وأبو داود رقم (٣٩٠٤) في الطب : باب في الكاهن ، والترمذي رقم (١٣٥) في الطهارة : باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض ، والدارمي (١١٤١) ، وابن ماجه رقم (٦٣٩) في الطهارة : باب النهي عن إتيان الحائض من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح ، انظر « الارواء » رقم (٢٠٠٦) .

وللأربعة ، والحاكم وقال : صحيح على شرطهما ، عن [أبي هريرة رضي الله عنه] : « مَنْ أَتَىٰ عَرَّافاً أَوْ كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ »(١) .

ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً(٢) .

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ ، وَمَنْ أَتَىٰ كَاهِناً فَصَدَّقَهُ بِمَا

....

قوله : (وللأربعة والحاكم . وقال : صحيح على شرطهما عن . . .

« من أتى عرافاً أو كاهناً فصدّقَهُ بِما يَقولُ فَقَدْ كَفَرَ بِما أُنْزِلَ عَلى محمدٍ ﷺ ») هكذا بيّض المصنّف لاسم الراوي ، وقد رواه أحمد والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة مرفوعا.

قوله : (مَنْ أَتى كاهِناً أَو عَرَّاف فصَدَّقَهُ بما يَقولُ فقد كفرَ بِما أُنْزِلَ على محمد ﷺ) قال القرطبي المراد بالمنزل : الكتاب والسنة.

قوله : (ولأبي يعلي بسند جيد عن ابن مسعود مثله مرفوعا) أبو يعلى اسمه أحمد بن علي بن المثني الموصلي الامام صاحب التصانيف كالمسند وغيره . روي عن يحيى بن معين وأبي خيثمة وأبي بكر بن أبي شيبة وخلق ، وكان من الأئمة الحفاظ مات سنة سبع وثلثمائة ، وهذا الاثر رواه البزار أيضاً ، ولفظه (مَنْ أَتَى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنْزِلَ على محمد ﷺ) وفي هذه الأحاديث التصريح بكفره.

قوله : (ليس منا) دليل على نفي الايمان الواجب وهو لا ينافي ما تقدم من أن الطيرة شرك والكهانة كفر.

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ٤٢٩/٢ ، والحاكم ٨/١ والبيهقي ١٩٨/٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح كما قال الألباني في « آداب الزفاف » ص (٢٩) .

(٢) قال الهيثمي في « المجمع » ١١٨/٥ : رواه الطبراني في « الكبير » و« الأوسط » والبزار ، ورجال « الكبير » والبزار ثقات .

يَقُولُ ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ » رواه البزار بإسناد جيد ، ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله : « وَمَنْ أَتَىٰ . . . » إلى آخره[1] .

قال البغوي : العرَّاف : الذي يدَّعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك . وقيل : هو الكاهن . والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل . وقيل : الذي يخبر عما في الضمير .

وقال أبو العباس ابن تيمية : العرَّاف : اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

وقال ابن عباس - في قوم يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم - : ما أرى

....

قوله : (رواه البزار) هو أحمد بن عمرو ابن عبد الخالق أبو بكر البزار البصري صاحب المسند الكبير روى عن ابن المثني وخلق.

مات سنة اثنين وتسعين ومائتين.

قوله : (قال ابن عباس في قومٍ يكتبونَ أبا جادٍ وَيَنْظُرونَ في النُّجوم : مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذلِكَ لَهُ عِنْدَ الله مِنْ خَلاقٍ)[2] هذا الأثر رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً وإسناده ضعيف . قوله : (مَا أرَى) يجوز فتح الهمزة بمعنى لا أعلم ويجوز ضمها بمعنى لا أظن ، وكتابة أبي جاد وتعلمها لمن يدعي بها علم الغيب هو الذي يسمى علم الحروف ، وهو

---

(١) ذكره المنذري في « الترغيب والترهيب » ٤/٣٣ ، وقال : رواه البزار باسناد جيد ، ورواه الطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما دون قوله : « ومن أتى . . . » الخ باسناد حسن ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٥/١١٧ من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه ، وقال في آخره : رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة ، كما ذكره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ٥/١١٧ دون قوله : « ومن أتى . . » وهو حديث صحيح بشواهده كما قال الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٣١١) .

(٢) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٥/١١٨ ، وقال : رواه الطبراني ، وفيه خالد بن يزيد العمري ، وهو كذاب ، وقال الألباني في « الأحاديث الضعيفة » رقم (٤١٧) : موضوع . قوله : « أبا جاد » هو علم الحرف .

من فعل ذلك له عند الله من خلاق.

فيه مسائل :

الأولى : لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن .
الثانية : التصريح بأنه كفر .
الثالثة : ذكر من تكهن له .
الرابعة : ذكر من تطير له .
الخامس : ذكر من سحر له .
السادسة : ذكر من تعلم أبا جاد .
السابعة : ذكر الفرق بين الكاهن والعرَّاف .

* * *

٢٧ ـ باب ما جاء في النشرة

عن جابر ، أن رسول الله ﷺ سئل عن النُّشْرَةِ فقال : « هِيَ مِنْ عَمَلِ

الذي فيه الوعيد ، وأما تعلمها للتهجي وحساب الجمل فلا بأس به .

قوله : (وينظرونَ في النُّجومِ) أي ويعتقدون أن لها تأثيراً في باب التنجيم وفيه الحذر من كل علم لا تُعلم صحته من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وقد ورد النهي عنها والتحذير من قرب أهلها وسؤالهم وتصديقهم فيما أخبروا به من باطلهم ، فما أكثر من يغتر بهذه الأمور .

قوله : (باب ما جاء في النُّشْرَةِ) .

بضم النون كما في القاموس قال أبو السعادات ، النشرة ضرب من العلاج والرقية يعالج به من كان يظن أن به مسّاً من الجن ، سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء أي يكشف ويزال ، قال ابن الجوزي : النشرة حل السحر عن المسحور ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر .

الشَّيْطَانِ»[1] رواه أحمد بسند جيد . وأبو داود ، وقال : سئل أحمد عنها فقال : ابن مسعود يكره هذا كله .

وفي « البخاري » عن قتادة : قلت : لابن المسيب : رجل به طبٌّ أو يؤخذ عن امرأته ، أيحل عنه أن ينشر ؟ قال : لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، فأما ما ينفع فلم ينه عنه . ا هـ[2] .

قوله : (عن جابر أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عن النُّشْرَةِ فقال : « هيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ » رواه أحمد بسند جيد وأبو داود ، وقال سُئِلَ أحمد عنها فقال : ابن مسعود يكره هذا كله) .

هذا الحديث رواه أحمد ورواه عنه أبو داود في سننه وحسّن الحافظ إسناده ، قوله : (سُئِلَ عن النُّشْرَةِ) الألف واللام في النشرة للعهد أي النشرة المعهودة التي كان أهل الجاهلية يصنعونها وهي من عمل الشيطان .

قوله : (عن قتادة) . هو ابن دِعامة بكسر الدال ، ثقة فقيه حافظ من أحفظ التابعين وأئمة التفسير قالوا : إنه ولد أكمه ، مات سنة بضع عشرة ومائة .

قوله : (رَجُلٌ به طبٌّ) . بكسر الطاء أي سحر يقال طب الرجل بالضم إذا سحر .

قوله : (يُؤَخَّذُ) بفتح الواو مهموزاً وتشديد الخاء المعجمة وبعدها ذال معجمه أي يحبس عن امرأته لا يصل إلى جماعها ، والأخذة بضم الهمزة والكلام الذي قاله الساحر . قوله : (أيُحَلُّ) بضم الياء وفتح الحاء مبني للمفعول . قوله : (أوْ يُنَشَّرُ) بتشديد المعجمة . قوله : (لابَأسَ به) يعني ان النشرة لابأس بها لأنهم يريدون بها الاصلاح ، وهذا من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم أن سحر .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ٣/٢٩٤ ، وأبو داود رقم (٣٨٦٨) في الطب ، : باب في النشرة ، وإسناده حسن .

(٢) رواه البخاري تعليقاً ١٠/٢٣٢ في الطب : باب هل يستخرج السحر ، قال الحافظ ي « الفتح » ١٠/٢٣٣ وصله أبو بكر الأثرم في « كتاب السنن » من طريق إبان العطار عن قتادة ، ومثله عن طريق هشام الدستوائي عن قتادة بلفظ « يلتمس من يداويه ، فقال : انما نهى الله عما يضر ، ولم ينه عما ينفع » .

وروي عن الحسن أنه قال : لَا يَحُلُّ السِحْرَ إلَّا سَاحِرٌ[1] .

قال ابن القيم : النشرة : حل السحر عن المسحور ، وهي نوعان :

أحدهما : حل بسحر مثله ، وهو الذي من عمل الشيطان ، وعليه يحمل قول الحسن ، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يجب ، فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني : النشرة بالرقية والتعوُّذات والأدوية والدعوات المباحة ، فهذا جائز.

....

قوله : (ورُويَ عن الحسنِ أنه قال : لا يَحِلُّ السحرَ إلا ساحرٌ) .

هذا الاثر ذكره ابن الجوري في جامع المسانيد ، والحسن هو ابن أبي الحسن واسمه سيار بالتحتية والمهملة ، البصري الأنصاري مولاهم ثقة فقيه إمام من خيار التابعين ، مات سنة عشر ومائة وقد قارب التسعين .

ومما جاء في صفة النشرة الجائزه ما روى ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبي سليم قال : بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر باذن الله تعالى ، تقرأ في إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور : الآية التي في سورة يونس ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ آللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ آللهَ لا يُصْلِحُ عَملَ المُفْسِدينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ المُجرِمون ﴾ وقوله : ﴿ فَوَقَعَ الحَقُّ وَبَطَلَ مَا كانوا يَعْمَلونَ ﴾ الى آخر الآيات الاربع ، وقوله : ﴿ إنّما صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى ﴾ وقال ابن بطال : في كتاب وهب بن منبه : أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل ثم يحسو منه ثلاث حسوات ثم يغتسل به يذهب عنه كل ما به وهو جيد للرجل اذا حَبس عن أهله .

---

(١) قال الحافظ في « الفتح » ١٠/٢٣٣ : أخرجه الطبري في « التهذيب » من طريق يزيد بن زريع عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يرى بأساً إذا كان بالرجل سحر أن يمشي إلى من يطلق عنه ، فقال : هو صلاح ، قال الحافظ : قال قتادة : وكان الحسن يكره ذلك ، يقول : لا يعلم ذلك إلا ساحر ، قال : فقال سعيد بن المسيب : إنما نهى الله عما يضر ولم ينه عما ينفع .

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن النشرة .

الثانية : الفرق بين المنهى عنه والمرخص فيه مما يزيل الإشكال .

* * *

٢٨ ـ باب ما جاء في التطير

وقول الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُم عِندَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لَا يَعْلَمُونَ ﴾

....

قوله : (باب ما جاء في التَّطيُّرِ) .

أي من النهي عنه والوعيد . والطِّيرة بكسر الطاء ، وفتح الياء وقد تسكَّن اسم مصدر من تطير طيرة ، وأصله التطير بالسوانح والبوارج من الطير والظباء وغيرهما ، وكان ذلك التطير يصدهم عن مقاصدهم فنفاه الشرع وأبطله وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع ودفع ضر . قال المدائني : سألت رؤبة بن العجاج قلت : ما السانح ؟ قال ما ولاك ميامنه ، قلت : فما البارح ؟ قال : ما ولاك مياسره والذي يجيء من أمامك هو الناطح والنطيح ، والذي يجيء من خلفك هو القاعدة والقعيد .

قوله : (وقول الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ ٱللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمون ﴾ وذكر تعالى هذه الآية في سياق قوله : ﴿ فإِذا جاءَتْهُمُ الحَسنَةُ قالوا لنا هٰذِهِ ﴾ أي نحن الجديرون والحقيقون به ونحن أهله ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي بلاء وقحط ﴿ يَطَّيَّروا بِموسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾ فيقولون : هذا بسبب موسى وأصحابه أصابنا بشؤمهم .

فقال تعالى : ﴿ ألَا إنّما طَائِرُهُمْ عِنْدَ ٱللهِ ﴾ قال ابن عباس : طائرهم ما قضى عليهم وقدر لهم . وفي رواية : شؤمهم عند الله ومن قِبَلِهِ . أي إنما جاءهم الشؤم من قِبلِهِ بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله .

قوله : ﴿ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمونَ ﴾ أي أن أكثرهم جهال لا يدرون ، ولو فهموا وعقلوا لعلموا أنه ليس فيما جاء به موسى عليه السلام إلا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبع قوله .

[الأعراف: ١٣١] . وقوله : ﴿ قَالُوا طَائِرُكُم مَعَكُم ﴾ الآية [يس: ١٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لَا عَدْوَى ، وَلَا

....

وقوله: ﴿ قالوا طائِرُكُمْ مَعَكم ﴾ الآية المعنى حظكم وما نالكم من شرٍّ معكم بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين ، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا بل ببغيكم وعدوانكم ، فطائر الباغي الظالم معه ، فما وقع به من الشرور فهو سببه الجالب له ، وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله .

قوله : ﴿ أئِنْ ذُكِّرْتُمْ ﴾ أي من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله قابلتمونا بهذا الكلام ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفونَ ﴾ .

قوله : (لا عَدْوى) قال أبو السعادات العدوى اسم من الاعداء كالدعوى يقال : أعداه الداء يعديه أعداء إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء .

قوله : (ولا طيرة) قال ابن القيم يحتمل أن يكون نفياً أو نهياً أي لا تطّيروا ولكن قوله في الحديث : « ولا عدوى ولا صفر ولا هامة »، يدل على أن المراد النفي وإبطال هذه الامور التي كانت الجاهلية تعانيها ، والنفي في هذا أبلغ من النهي لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره والنهي إنما يدل على المنع منه . قال عكرمة : كنا جلوساً عند ابن عباس فمر طائر يصيح ، فقال رجل من القوم : خير ، خير ، فقال له ابن عباس : لا خير ولا شر ، فبادره بالانكار عليه لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر . وخرج طاووس مع صاحب له في سفر فصاح غراب فقال الرجل : خير ، فقال طاووس : وأي خير عند هذا ، لا تصحبني . انتهى ملخصاً .

قوله : (ولَا هَامَةَ) بتخفيف الميم على الصحيح . قال الفراء : الهامة طير من طير الليل ، كان يعني البومة . قال ابن الاعرابي : كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم يقول : نعت إليَّ نفسي أو أحداً من أهل داري ، فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله .

وقوله : (ولَا صَفَرَ) بفتح الفاء ، روى أبو عبيدة في غريب الحديث عن رؤبة أنه قال : هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس وهي أعدى من الجرب عند العرب ، وعلى هذا فالمراد بنفيه . ما كانوا يعتقدونه من العدوى ، وممن قال بهذا سفيان بن عيينة والامام أحمد والبخاري وابن جرير وقال : المراد به شهر صفر . والنفي لما كان أهل

طِيَرَةَ ، وَلَا هَامَّةَ ، وَلَا صَفَرَ » أخرجاه . زاد مسلم : « وَلَا نَوْءَ ، وَلَا غولَ »[1] .
و« لهما » عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا عَـدْوَى وَلَا طِيَرَةَ ؛

الجاهلية يفعلونه في النسيء ، وكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه . وهذا قـول مالك . وروى أبو داود عن محمد بن راشد عمن سمعه يقول : إن أهل الجاهلية يتشائمون بصفر ويقولون إنه شهر مشؤوم ، فأبطل ذلك النبي ﷺ قال ابن رجب : ولعل هـذا أشبه الاقوال ، والتشاؤم بصفر كتشاؤم أهل الجاهلية بشوال بالنكاح فيه خاصة .

قوله : (ولا نوء) سيأتي الكلام عليه في بابه .

قوله : (ولاَ غولَ) هو بالضم اسم وجمعه أغوال وغيلان وهو المراد هنـا والمعنى بقوله : « لا غُول » أنها لا تستطيع أن تضل أحداً مع ذكر الله والتوكل عليه ومنه الحديث « إذا تَغَوَّلَتِ الغِيلانُ فَبادِروا بِالأذانِ »[2] أي ادفعوا شرها بذكر الله تعالى .

قوله : (ولهما عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا عَدْوَى وَلا طِيرَةَ ويعجبني الفَأْلُ » قالوا : وما الفَأْلُ ؟ قال : « الكَلمَةُ الطيِّبَةُ ») .

قال أبو السعادات : الفأل مهموز فيما يسر ويسوء ، والطيرة لا تستعمل إلا فيما يسوء وربما استعملت فيما يسر .

قوله : (قالوا : وما الفَأْلُ ؟ قال : الكَلمَةُ الطَّيِّبَةُ » بيَّنَ ﷺ أن الفأل يعجبه ، فـدل على أنه ليس من الطيرة المنهي عنها . قال ابن القيم : ليس الاعجاب بالفأل ومحبته بشيء من الشرك بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة وموجب الفطرة الانسانية التي تميل إلى مـا

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٧٥٧) في الطب : باب لا هامة ، ومسلم رقم (٢٢٢٠) (١٠٢) في السلام : باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
والرواية الثـانية رواهـا مسلم رقم (٢٢٢٠) (١٠٦) من حديث أبي هـريرة رضي الله عنـه بزيـاد « ولا نوء » ، ومن حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما بزيادة « ولا غول » رقم (٢٢٢٢) (١٠٧).

(٢) أحمـد في « المسند » ٣/٣٨١ - ٣٨٢ ، وابن أبي شيبـة في « المصنف » (١/٤٤/١٢) وأبـو يعلى (٥٩٣ - ٥٩٤) ، وابن السني في « عمـل اليوم والليلة » رقم (٥٢٣) من حـديث جابـر بن عبد الله رضي الله عنهما ، واسناده ضعيف ورجاله ثقات وإنما علته الانقطاع بين الحسن البصري وجابر فإنه لم يسمع منه كما قال الألباني في « الأحاديث الضعيفة » رقم (١١٤٠).

وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ » قالوا : يا رسول الله وما الفأل ؟ قال : « الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ »[1] .

ولأبي داود بسند صحيح عن عروة بن عامر قال : ذُكِرَتْ الطِّيرة عند رسول الله ﷺ فقال : « أَحْسَنُها الفَأْلُ ، وَلاَ تَرُدُّ مُسْلِماً ، فَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ لاَ يَأْتِي بِالحَسَنَاتِ إِلاَّ أَنْتَ ، وَلاَ يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلاَّ أَنْتَ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِكَ »[2] .

يوافقها ويلائمها ، والله تعالى جعل في غرائز الناس من الاعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته وميل نفوسهم إليه ، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر ونحو ذلك . فاذا سمعت الاسماع أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال فأحزنتها وأثار ذلك لها خوفاً وتطيراً وانكماشاً وانقباضاً عما قصدته وعزمت عليه ، فأورث لها ضرراً في الدنيا ونقصاً في الايمان ومقارفة للشرك .

قوله : (عن عقبة بن عامر) هكذا وقع في نسخ التوحيد وصوابه « عن عروة بن عامر » القرشي كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما . وهو مكي اختلف في نسبه فقال أحمد : عن عروة بن عامر القرشي ، وقال غيره الجهني واختلف في صحبته ، فقال الماوردي : له صحبة ، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين . وقال المزي : لا صحبة له تصح ، قال ابن القيم : أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد ونفع أحدهما ومضرة الآخر .

قوله : (ولاَ تَرُدُّ مسلماً) قال الطيبي : تعريض بأن الكافر بخلافه . قوله : (اللَّهُمْ لاَ يَأْتِي بِالحَسَنَاتِ إلاَّ أَنْتَ ، ولا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إلاَّ أَنْتَ وَلاَ حَوْلَ وَلا قُوَّة إلاَّ بِكَ) أي لا تأتي الطيرة بالحسنات ولا تدفع المكروهات بل أنت وحدك لا شريك لك الذي تأتي بالحسنات وتدفع السيئات . والحسنات هنا : النعم ، والسيئات : المصائب ، ففيه نفي تعلق القلب

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٧٥٦) في الطب : باب الفأل ورقم (٥٧٧٦) : باب لا عدوى ، ومسلم رقم (٢٢٢٤) في السلام : باب الطيرة والفأل ، وأبو داود رقم (٣٩١٦) في الطب : باب في الطيرة ، والترمذي رقم (١٦١٥) في السير : باب ما جاء في الطيرة ، وابن ماجه رقم (٣٥٣٧) في الطب : باب من كان يعجبه الفأل . . . الخ ، وأحمد في « المسند » ١١٨/٣ و١٣٠ و١٥٤ و١٧٣ و١٧٨ و٢٧٦ .

(٢) رواه أبو داود رقم (٣٧١٩) في الطب : باب في الطيرة ، واسناده ضعيف وعروة بن عامر ، قال الحافظ : مختلف في صحبته وانظر جامع الأصول (٥٨٠١).

وعن ابن مسعود مرفوعاً : « الطيرة شرك ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ ، وَمَا مِنَّا إلاَّ ، وَلَكِنَّ الله يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ »[1] رواه أبو داود ، والترمذي وصححه وجعل آخره من قول ابن مسعود.

....

بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر ، وهذا هو التوحيد وهو دعاء مناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة وتصريح بأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً ، ويعدّ من اعتقدها سفيهاً مشركاً .

قوله : (ولا حَوْلَ وَلا قوَّةَ إلاّ بِكَ) والحول التحول والانتقال من حال إلى حال والقوة على ذلك بالله وحده ففيه التبري من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته ، وهذا هو التوحيد في الربوبية وهو الدليل على توحيد الألهية الذي هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة وهو توحيد القصد والارادة وقد تقدم بيان ذلك بحمد الله .

قوله : (وعن ابن مسعود مرفوعاً : الطِّيرَةُ شِرْكٌ . الطِّيرَةُ شِرْكٌ وَمَا مِنَّا إلاّ . . . وَلكِنَّ آلله يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكّلِ ، رواه أبو داود والترمذي وصححه ، وجعل آخره من قول ابن مسعود) ولفظ أبي داود « الطِّيَرَةُ شِرْكٌ » ثلاثاً ، وهذا صريح في تحريم الطيرة وأنها من الشرك لما فيها من تعلق القلب بغير الله ، قال ابن مفلح : الأولى القطع بتحريمها لأنها شرك وكيف يكون الشرك مكروهاً الكراهة الاصطلاحية .

قوله : (وَما مِنَّا إلاَّ) قال أبو القاسم الأصبهاني والمنذري : في الحديث إضمار التقدير : وما منا إلاّ وقد وقع في شيء من ذلك . انتهى .

---

(١) رواه أبو داود رقم (٣٩١٠) في الطب : باب في الطيرة : والترمذي رقم (١٦١٤) في السير : باب ما جاء في الطيرة ، وأحمد ٤٣٨/١ وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وهو كما قال ، ورواه ابن حبان (١٤٢٧) « موارد » وابن ماجه رقم (٣٥٣٨) ، قال الحافظ في « الفتح » ١٨١/١٠ : « وما منا إلا » من كلام ابن مسعود رضي الله عنه أدرج في الخبر ، وقد بينه سليمان بن حرب شيخ البخاري فيما حكاه الترمذي عن البخاري عنه ، قال الحافظ : وإنما جعل ذلك شركاً لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعاً أو يدفع خيراً فكأنهم أشركوا مع الله تعالى

وقوله : « ولكن الله يذهب بالتوكل » اشارة إلى أن من وقع له ذلك ، فسلم لله ولم يعبأ بالطيرة أنه لا يؤاخذ بما عرض له من ذلك . انظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (٤٣٠).

قال الخطابي : « قوله وما منا إلاّ » معناه إلا من يعتريه التطير . وقال محمد بن اسماعيل البخاري : كان سليمان بن حرب ينكر هذا ويقول : هذا الحرف ليس من قول رسول الله ﷺ وكأنه قول ابن مسعود رضي الله عنه.

ولأحمد من حديث ابن عمرو : « وَمَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ » . قالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال : « أَنْ تَقُولَ : اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ »[1] .

قوله : (وَلَكِنَّ آللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ) لكن إذا توكلنا على الله في جلب النفع ودفع الضر أذهبه الله تعالى عنا بتوكلنا عليه وحده .

قوله : (وَجَعَل آخِرَهُ مِنْ قولِ ابنِ مسعودٍ) قال ابن القيم : وهو الصواب فان الطيرة نوع من الشرك .

قوله : (ولأحمد من حديث ابن عمرو « مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقد أَشْرَكَ » قالوا : فَما كَفَّارَةُ ذلِكَ ؟ قالَ : أَنْ يَقولَ : اللَّهُمَّ لا خيرَ إلاّ خيرُكَ ، وَلا طَيرَ إلاّ طَيرُكَ ، وَلا إله غيرُكَ) هذا الحديث رواه أحمد والطبراني عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وفي اسناده ابن لهيعة وبقية رجاله ثقات .

قوله : (مِنْ حَديثِ ابْنِ عَمْرٍو) هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي أبو محمد ، وقيل أبو عبد الرحمن أحد السابقين المكثرين من الصحابة . وأحد العبادلة الفقهاء ، مات في ذي الحجة ليالي الحرة على الصحيح بالطائف . قوله : (مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقدْ أَشْرَكَ) . وذلك أن الطيرة هي التشاؤم بالمرئي والمسموع ، فاذا ردته عن سفر أو عمل أو حاجة فقد أشرك بما يخامر قلبه من الخوف من ذلك فيكون شركاً بهذا الاعتبار . قوله : (قَالُوا فَما كَفَّارَةُ ذلِكَ ؟ قالَ : أَنْ يَقولَ اللَّهُمَّ لا خيرَ إلاّ خيرُكَ) . . الخ . فيه تفويض الأمور إلى الله تقديراً وتدبيراً وخلقاً . والبراءة مما فيه تعلُّقٌ بغير الله تعالى كائناً من كان .

قوله : (ولاَ إلَهَ غَيْرُكَ) أي لا معبود مستحق سواك . فاذا قال ذلك وأعرض عما وقع

---

(1) رواه أحمد في « المسند » ٢/٢٢٠ ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٥/١٠٥ من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، وقال : رواه أحمد والطبراني ، وفي سنده ابن لهيعة ، وهو ضعيف ، وباقي رجاله ثقات.

قال الألباني في « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٠٦٥) : قلت : الضعف في حديث ابن لهيعة إنما هو في غير رواية العبادلة عنه ، وإلا فحديثهم عنه صحيح ، فالحديث صحيح .

وله من حديث الفضل بن العباس رضي الله عنهما : إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ(١) .

فيه مسائل :

الأولى : التنبيه على قوله : ﴿ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُم عِنْدَ اللهِ ﴾ مع قوله : ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُم ﴾ .

الثانية : نفي العدوى .

الثالثة : نفي الطيرة .

الرابعة : نفي الهامة .

الخامسة : نفي الصفر .

السادسة : أن الفأل ليس من ذلك بل مستحب .

السابعة : تفسير الفأل .

في قلبه ولم يلتفت إليه واستمر على فعل ما عزم عليه توكلا على الله وتفويضاً إليه ، كَفَّر الله عنه ما وقع في قلبه من ذلك .

قوله : (وله من حديث الفضل بن العباس رضي الله عنهما « إنَّما الطِّيرَةَ مَا أمْضَاكَ أوْ رَدَّكَ » هذا الحديث عند الامام أحمد من حديث الفضل بن العباس قال : خرجت مع رسول الله ﷺ ، فساقه الى أن قال : « إنما الطيرة ما أمضاك أوْ رَدَّكَ » و « الفضل » هو ابن العباس بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ ، قال ابن معين : قتل يوم اليرموك وقال غيره : قتل يوم مرج الصفر سنة ثلاث عشرة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، وقال أبو داود : قتل بدمشق ، وكان عليه درع النبي ﷺ ، قوله : (إنَّمَا الطِّيرَةُ مَا أمْضَاكَ أوْ رَدَّكَ) هذا حَدُ الطيرة المنهي عنها أنها ما يحمل الانسان على المضي فيما أراد ، أو يمنعه من المضي فيه كذلك ، وأما الفأل الذي كان يحبه ﷺ فيه نوع بشارة فيسر به العبد ولا يعتمد عليه ، بخلاف الطيرة ، فافهم الفرق .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ٢١٣/١ وفي سنده ضعف وانقطاع .

الثامنة : أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر ، بل يذهبه الله بالتوكل .

التاسعة : ذكر ما يقوله من وجده .

العاشرة : التصريح بأن الطيرة شرك .

الحادية عشرة : تفسير الطيرة المذمومة .

* * *

٢٩ - باب ما جاء في التنجيم

قال البخاري في « صحيحه » : قال قتادة : خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يُهْتَدَىٰ بها . فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به[(١)] . ا هـ .

....

قوله : (باب ما جاء في التنجيم) قال شيخ الاسلام : هو الاستدلال بالأحوال الفلكية ، على الحوادث الأرضية . وقال الخطابي : علم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان كأوقات هبوب الرياح ومجيء المطر وتغير الأسعار وما في معناها من الأمور التي يزعمون أنها تدرك معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها واجتماعها وافتراقها يدعون أن لها تأثيراً في السفليات ، وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاطٍ لعلم قد استأثر الله به فلا يعلم الغيب سواه .

قوله : (قال البخاري في صحيحه : قال قتادة : خَلَقَ آللهُ هٰذِهِ النُّجومَ لِثَلاثٍ : زينَةً للسَّماءِ ، وَرُجوماً للشياطينِ ، وَعَلاماتٍ يُهْتَدى بها ، فَمنْ تَأَوَّلَ فيها غيرَ ذلكَ أَخطَأَ وَأَضاعَ نصيبَهُ وَتكلَّفَ ما لاَ عِلْمَ لهُ بِهِ) انتهى .

هذا الأثر علقه البخاري في صحيحه وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم وأخرجه الخطيب في كتاب النجوم عن قتادة بلفظ أطول من هذا . وقول

---

(١) رواه البخاري ٦/٢٩٥ تعليقاً ، قال الحافظ في « الفتح » وصله عبد بن حميد من طريق شيبان عنه ، وزاد في آخره : « وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة : من غرس بنجم كذا كان كذا ، ومن سافر بنجم كذا كان كذا ، ولعمري ما من النجوم لنجم إلا ويولد به الطويل والقصير والأحمر والأبيض والحسن والدميم ، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر شيء من هذا الغيب . ا هـ .

وكره قتادة تعلم منازل القمر ، ولم يُرَخِّص ابن عيينة فيه . ذكره حرب عنهما ، ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق.

قتادة رحمه الله تعالى يدل على أنّ علم التنجيم هذا قد حدث في عصره فأوجب له إنكاره على من اعتقده وتعلق به ، وهذا العلم مما ينافي التوحيد ويوقع في الشرك لأنه ينسب الحوادث إلى غير من أحدثها وهو سبحانه بمشيئته وإرادته كما قال تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ الله يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ ﴾ وقال : ﴿ قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ في السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إلَّا آللهُ وَمَا يَشْعُرونَ أَيَّانَ يُبْعَثونَ ﴾ .

قوله : (خُلَقَ آللهُ هٰذِهِ النُّجومَ لِثَلاثٍ) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمصابيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّياطينِ ﴾ وفيه إشارة إلى أن النجوم في السماء الدنيا كما روى ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « أما السماء الدُّنْيا فإنَّ آللهَ خَلَقَها مِنْ دُخانٍ [ثم رفعها] وَجَعَلَ فيها سِراجاً وَقمراً منيراً وَزَيَّنَها بِمصابيحَ [النجوم] وَجَعَلَها رُجوماً للشَّياطين، وحَفِظَها مِنْ كلِّ شَيْطانٍ رَجيم »[1] قوله: (وَعَلَامَاتٍ) أي دلالات على الجهات (يُهْتَدَى بِها) أي يهتدي بها الناس في ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمْ النُّجومَ لِتَهْتَدُوا بها في ظُلُماتِ البرِّ وَالبَحْرِ ﴾ أي ليعرفوا بها جهة قصدهم ، فان قيل : المنجم قد يصدق ، قيل صدقه كصدق الكاهن يصدق في كلمة ويكذب في مائة وصدقه ليس عن علم ، بل قد يوافق قدراً فيكون فتنة في حق من صدقه.

قوله : (وكره قتادةُ تعلُّمَ منازِل القمرِ ، ولم يرخِّص فيه ابنُ عيينة ، ذكره حرب عنهما ، ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق) قال الخطابي : أما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة ، والخبر الذي يعرف به الزوال وتعلم به جهة القبلة فانه غير داخل فيما نهي عنه ، وذلك أن معرفة هذا العلم يصح علمه بالمشاهدة .

وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة فانها من الكواكب رصدها أهل الخبرة بها الذين لاشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به مثل أن يشاهدها بحضرة الكعبة ويشاهدها على حال الغيبة عنها فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة ، وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم إذ كانوا عندنا غير متهمين في دينهم ، ولا مقصرين في معرفتهم ، انتهى . وروى ابن المنذر عن مجاهد أنه لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم

---

(١) ذكره الحافظ السيوطي في «الدر المنثور» ٩٥/٤، ونسبه لابن مردويه فقط، ولم يتكلم عليه بشيء، وليس عندنا سنده لنحكم عليه.

وعن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ : مُدْمِنُ الخَمْر ، وَقَاطِعُ الرَّحم ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ » رواه أحمد وابن حبان في « صحيحه » .

....

ما يهتدي به ، قال ابن رجب : والمأذون في تعلمه علم التسيير لا علم التأثير فانه باطل محرم قليله وكثيره ، أما علم التسيير فيتعلم منه ما يحتاج إليه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور .

قوله : (ذكره حربٌ عنهما) هو الامام الحافظ حرب بن إسماعيل أبو محمد الكرماني الفقيه من أجلّة أصحاب الامام أحمد ، روى عن أحمد وإسحاق وابن المديني وابن معين وغيرهم ، وله كتاب المسائل التي سأل عنها الامام أحمد وغيره ، مات سنة ثمانين ومائتين ، وأما إسحاق فهو ابن إبراهيم بن مخلد بن يعقوب الحنظلي النيسابوري الامام المعروف بابن راهويه ، روى عن ابن المبارك وأبي أسامة وابن عيينة وطبقتهم ، قال أحمد : إسحاق عندنا من أئمة المسلمين ، وروى عنه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم وروى هو أيضاً عن أحمد ، مات سنة تسع وثلاثين ومائتين .

قوله : (وعن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ ثَلَاثَةٌ لا يَدْخُلونَ الجَنَّةَ) الحديث ؛ هذا الحديث رواه أيضاً الطبراني والحاكم وقال : صحيح ، وأقره الذهبي .

قوله : (عن أبي موسى) هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حَضَّار بفتح المهملة وتشديد الضاد ، أبو موسى الأشعري صحابي جليل مات سنة خمسين .

قوله : (ثَلَاثَةٌ لا يَدْخُلونَ الجَنَّةَ) الشاهد للترجمة (وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ) وفي هذا الحديث كما تقدم في نظائره كقوله : « مَنْ أَتى كاهِناً فَصَدَّقَهُ بِما يَقولُ فقَد كَفَرَ بِما أُنْزِلَ عَلَى مُحمَّدٍ ﷺ»(٢) واختار الامام أحمد رحمه الله تعالى أن مثل هذه الأحاديث تمر كما جاءت من

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ٣٩٩/٤ ، وابن حبان (١٣٨٠) و(١٣٨١) « موارد » في الأشربة : باب في حد من الخمر ، والحاكم في « المستدرك » ١٤٦/٤ في الأشربة ، باب ذكر ثلاثة لا يدخلون الجنة وصححه الحاكم ١٤٦/٤ ووافقه الذهبي ، قال الألباني في « الأحاديث الصحيحة » رقم (٦٧٨) : حديث حسن.

(٢) تقدم تخريجه ص (١٤١) رقم (٢) .

فيه مسائل :

الأولى : الحكمة في خلق النجوم .
الثانية : الرد على من زعم غير ذلك .
الثالثة : ذكر الخلاف في تعلم المنازل .
الرابعة : الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل .

* * *

٣٠ ـ باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

وقول الله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُم أَنَّكُم تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٢].

غير تأويل . قال الذهبي في الكبائر : ويدخل فيه تعلم السيمياء وعلمها ، وعقد المرء من زوجته ، ومحبة الزوج لامرأته وبغضها وبغضه وأشباه ذلك بكلمات مجهولة ، انتهى باختصار .

قوله : (باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء وقول الله تعالى ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾) أي من الوعيد ، والمراد نسبة السقي ومجيء المطر إلى الأنواء ، جمع نوء وهي منازل القمر . قال أبو السعادات : وهي ثمان وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة منزلة منها كما قال تعالى : ﴿ وَالقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ يسقط في المغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة له مع طلوع الفجر وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت من المشرق وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر وينسبونه إلى النجم الساقط ويقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، وإنما سمي نوءاً لأنه إذا سقط منها الساقط ناء الطالع بالمشرق أي نهض وطلع .

قوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبـونَ ﴾ روى الامام أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم والضياء في المختارة عن عليٍّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (وَتَجعَلونَ رِزْقَكُمْ) يقول شكركم : (أَنَّكُمْ تُكَذِّبونَ) تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا »[١] رُوِيَ ذلك عن علي وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغيرهم

---

(١) الترمذي (٣٢٩١) في التفسير : باب ومن سورة الواقعة ، وأحمد ١/ ٨٩ و١٠٨ و١٣١ وفي اسناده عبد الأعلى بن عامر الثعلبي وهو ضعيف .

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لاَ يَتْرُكُونَهُنَّ : الفَخْرُ بِالأَحْسَاب ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَاب ،

....

وهو قول جمهور المفسرين وبه يظهر وجه استدلال المصنف رحمه الله تعالى بالآية . وقال ابن القيم : أي تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم التكذيب به يعني القرآن ، قال الحسن : تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون ، قال : وخسر عبد لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب .

قوله : (وعن أبي مالك الأشعري) أبو مالك اسمه الحارث الشامي صحابي تفرد عنه بالرواية أبو سلام وفي الصحابة أبو مالك الأشعري اثنان غير هذا.

قوله : (أَرْبَعٌ في أُمَّتي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكونَهُنَّ) ستفعلها هذه الأمة إما مع العلم بتحريمها أو مع الجهل بذلك مع كونها من أعمال الجاهلية . يدل على أنه يجب على كل مسلم أن يجتنبها ، والمراد بالجاهلية هنا ما قبل المبعث وفاعلها آثم يجب أن ينهي عنها ، ومتى وجد الشرك وجدت هذه الأمور المنكرة وغيرها من المنكرات.

قال شيخ الاسلام : أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذماً لمن لم يتركه ، وهذا يقتضي أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها ، ومعلوم أن إضافتها الى الجاهلية خرج مخرج الذم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبرَّجْنَ تَبرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولى ﴾فإن في ذلك ذماً للتبرج ، وذماً لحال أهل الجاهلية الأولى ، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة.

قوله : (والفخْرُ بالأَحْسَابِ) أي التعاظم على الناس بالآباء ومآثرهم وذلك جهل عظيم إذ لا كرم إلا بالتقوى كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ ﴾ ولأبي داود عن أبي هريرة مرفوعاً : « وَإِنَّ الله قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَةَ الجَاهِلية وَفَخْرَها بالآباءِ ، إِنَّما هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ أَوْ فاجِرٌ شَقِيٌّ ، النَّاسُ بَنو آدَمَ وآدم خُلِقَ مِنْ تُرابٍ لَيَدَعَنَّ رِجالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوامٍ إِنَّما هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ أَوْ لَيكونَنَّ أَهْوَنَ على اللهِ مِنَ الجِعْلانِ »[1] الحديث.

---

(١) أبو داود رقم (٥١١٦) في الأدب : باب في التفاخر بالأحساب ، ورواه أيضاً بنحوه واختصر منه أحمد في « المسند » ٢/٥٢٤ ، والترمذي رقم (٢٩٥٠ - ٢٩٥١) في المناقب : باب في فضل الشام واليمن ، وهو حديث حسن ، كما قال الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٧٨٣).

وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ ، والنِّيَاحَةُ » . وَقَالَ : « النَّائِحَةُ إِنْ لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِها تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ »[1] . رواه مسلم .

قوله : (وَالطَّعْنُ في الإنسابِ) أي الوقوع فيها بالعيب والنقص ، ولما عير أبو ذر رجلاً بأمه قال النبي ﷺ : « أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ »[2] متفق عليه ، فدل على أن الطعن في الأنساب من عمل أهل الجاهلية ، وأن المسلم قد يكون فيه شيء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه ، قاله شيخ الاسلام رحمه اللّه تعالى .

قوله : (وَاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ) تقدم معناه ، فإذا قال قائلهم : مطرنا بنجم كذا وبنوء كذا فلا يخلو ، إما أن يعتقد أن له تأثيراً في نزول المطر فهذا شرك وكفر لنسبة المطر لغير من أنزله وهو الله وحده ، وإما مع إطلاق هذا اللفظ فقد صرح ابن مفلح في « الفروع » بتحريمه ، وكذلك صاحب « الأنصاف » ولم يذكرا خلافاً .

قوله : (وَالنِّيَاحَةُ) أي رفع الصوت بالنَّدب على الميت وضرب الخدود وشق الجيوب ونحو ذلك ، وهي من الكبائر لشدة الوعيد والعقوبة كما في هذا الحديث .

قوله : (النَّائِحَةُ إذا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِها) فيه تنبيه على أن التوبة تكفر الذنب .

قوله : (تُقامُ يَوْمَ القِيامَةِ وَعَلَيْها سِرْبالٌ مِنْ قَطِرانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ) السربال واحد السرابيل وهي الثياب والقمص ، هذه سرابيل أهل النار يعني يلطخن بالقطران حتى يكون اشتعال النار بأجسادهن أعظم ، ورائحتهن أنتن ، وروي عن ابن عباس أن القطران هو النحاس المذاب .

---

(١) رقم (٩٣٤) في الجنائز ، باب التشديد في النياحة وأحمد في « المسند » ٣٤٢/٥ و٣٤٣ و٣٤٤ من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

(٢) البخاري رقم (٣٠) في الإيمان : باب المعاصي من أمر الجاهلية ورقم (٢٥٤٥) في العتق : باب قول النبي ﷺ : « العبيد إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون » ، ورقم (٦٠٥٠) في الأدب : باب ما ينهى من السباب واللعن ، ومسلم رقم (١٦٦١) في الإيمان : باب اطعام المملوك مما يأكل . . . » وأبو داود رقم (٥١٥٧) في الأدب : باب في حق المملوك ، والترمذي رقم (١٩٤٦) في البر : باب الإحسان إلى الخدم ، وأحمد في « المسند » ١٦١/٥ .

و« لهما » عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحُدَيْبِيَةِ على أَثْرِ سَمَاءٍ كانت من الليل ؛ فلما انصرف أقبل على الناس فقال : « هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَذٰلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوَاكِبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا ، فَذَلِكَ كَافِرٌ بي ، مُؤْمِنٌ بِالكَوَاكِب » .

قوله : (وعن زيد بن خالد) الجهني صحابي مشهور مات سنة ثمان وستين وقيل غير ذلك وله خمس وثمانون سنة .

قوله : (صَلى لنَا) أي بنا ، قال الحافظ · وفيه إطلاق ذلك مجازاً .

قوله : (بِالحُدَيْبية) بتخفيف يائها وقد تثقَّل .

قوله : (عَلى إِثْرِ) بكسر الهمزة وسكون الثاء المثلثة على المشهور وهو ما يعقب الشيء .

قوله : (سَمَاءٍ) أي مطر .

قوله : (فَلَمَّا انْصرَفَ مِنْ صَلاَتِهِ) أي الى المأمومين .

قوله : (هَلْ تَدْرونَ) لفظ استفهام ومعناه التنبيه ، وفي النسائي (أَلَمْ تَسْمَعوا ما قالَ رَبُّكُمْ اللَّيْلَة) وفيه إلقاء العالم المسئلة على أصحابه ليختبرهم .

قوله : (قالوا : الله وَرَسولُهُ أَعْلَمُ) فيه حسن الأدب للمسؤول إذا سئل عما لا يعلم أن يكل العلم الى عالمه ، وذلك يجب.

قوله : (أَصْبَحَ مِنْ عِبادي مُؤْمِنٌ بِي) لأنه نسب الفعل الى فاعله الذي لا يقدر عليه غيره.

---

(١) البخاري رقم (٨٤٦) في الأذان : باب يستقبل الامام الناس إذا سلم ، ورقم (١٠٣٨) في الاستسقاء : باب قول الله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ ورقم (٤١٤٧) في المغازي : باب غزوة الحديبية ، ورقم (٧٥٠٣) في التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ ومسلم رقم (٧١) في الإيمان : باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء ، وأبو داود رقم (٣٩٠٦) في الطب : باب في النجوم ، والنسائي ١٦٥/٣ في الاستسقاء : باب كراهية الاستمطار بالكوكب ، وأحمد في « المسند » ١١٧/٤ .

و« لهما » من حديث ابن عباس معناه ، وفيه ، قال بعضهم : لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا . فأنزل الله هذه الآية : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُم أَنَّكُم تُكَذِّبُونَ ﴾[1] [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٢] .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الواقعة .

الثانية : ذكر الأربع من أمر الجاهلية .

الثالثة : ذكر الكفر في بعضها .

الرابعة : أن من الكفر ما لا يخرِج عن الملَّة .

الخامسة : قوله : « أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر » بسبب نزول النعمة .

السادسة : التفطن للايمان في هذا الموضع .

السابعة : التفطن للكفر في هذا الموضع .

الثامنة : التفطن لقوله : « لقد صدق نوء كذا وكذا » .

التاسعة : إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها ، لقوله : « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ » .

قوله : (وَكافِرٌ) إذا اعتقد أن للنوء تأثيراً في إنزال المطر فهذا لأنه شرك في الربوبية والمشرك كافر .

قوله : (فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنا بِفضلِ اللهِ ورحمتهِ) فالفضل والرحمة صفتان لله تعالى .

قوله : (ولهما من حديث ابن عباس معناه ، وفيه : قالَ بَعضُهُم : لقد صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذا ، فَأَنزَلَ الله تعالى هذه الآية : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمواقِعِ النُّجومِ (إلى قوله) تُكذِّبونَ ﴾) تقدم معناه قريباً .

---

(١) ليس عند البخاري ، وإنما هو عند مسلم فقط رقم (٧٣) في الايمان : باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء.

٣١ ـ باب [من اتخذ نداً تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر]

قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذَ مِن دُونِ الله أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ الله ﴾ الآية [البقرة: ١٦٥].

وقوله : ﴿ قُلْ إنْ كَانَ آبَاؤُكُم وَأَبْنَاؤُكُم وَإخوانُكم وَأَزْوَاجُكُم وَعَشِيرَتُكُم وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِنَ الله وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ والله لاَ يَهْدِي القَوْمَ الفاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أكونَ أَحَبَّ

قوله : باب قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذَ مِنْ دونِ اللهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾.

قال في شرح المنازل : أخبر تعالى أن من أحب شيئاً من دون الله كما يحب الله فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية فإن أحداً من أهل الأرض لا يثبت هذا الند بخلاف ند المحبة فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في المحبة والتعظيم ، اهـ . (قلت) : وقد وقع الشرك في الربوبية أيضاً في كثير من الخاصة والعامة في آخر هذه الأمة فاعتقدوا أن لهؤلاء الأموات تصرفاً في الكون ونحو ذلك.

قوله : ﴿ قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ ﴾ الى قوله : ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الآية . قال ابن كثير : إن كانت هذه الأشياء أحب إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربّصوا أي انتظروا ماذا يحل بكم من عقابه.

قوله : (لَا يُؤْمِنُ) أي الايمان الواجب والمراد كماله حتى يكون الرسول ﷺ أحب إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين وذلك يقتضي تعظيم أمره ونهيه واتباعه في ذلك دون من سواه ، ومن كان كذلك فقد أحب الله كما في آية المحبة.

قوله : (أخرجاه) أي البخاري ومسلم .

إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »[1] أخرجاه .

و« لهما » عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيه وَجَدَ بِهِنَّ

قوله : (ولهما عنه) أي البخاري ومسلم عن أنس ـ قال : قال رسول الله ﷺ : الحديث .

قوله : (ثَلاَثٌ) أي خصال ،ـ قال شيخ الاسلام : أخبر النبي ﷺ .

أن هذه الثلاث مَنْ كن فيه وجد حلاوة الايمان ، لأن وجود الحلاوة للشيء يتبع المحبة له ، فمن أحب شيئاً واشتهاه إذا حصل له مراده فانه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك ، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهى . قال : فحلاوة الايمان المتضمنة للذة والفرح تتبع كمال محبة العبد لله وذلك بثلاثة أمور : تكميل هذه المحبة وتفريغها ودفع ضدها ، فتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فان محبة الله ورسوله لا يكتفي فيها بأصل الحب بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

(قلت) : ومن لازم محبة الله محبة أنبيائه ورسله وملائكته وكتبه والصالحين من

---

(١) البخاري رقم (١٥) في الإيمان : باب حب الرسول ﷺ من الايمان ، ومسلم رقم (٤٤) في الإيمان : باب وجوب محبة رسول الله ﷺ اكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين ، والنسائي ٨/١١٤ - ١١٥ في الإيمان : باب علامة الإيمان ، وابن ماجة رقم (٦٧) في المقدمة : باب في الإيمان ، والدارمي رقم (٢٧٤٤) في الرقاق : باب رقم ٢٩ .

قال القرطبي : كل من آمن بالنبي ﷺ إيماناً صحيحاً لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة ، غير أنهم متفاوتون ، فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظ الأوفى ، ومنهم من أخذ منها بالحظ الأدنى ، كمن كان مستغرقاً في الشهوات محجوباً في الغفلات في أكثر الأوقات ، لكن الكثير منهم إذا ذكر النبي ﷺ اشتاق إلى رؤيته ، بحيث يؤثرها على أهله وولده ووالده ، ويبذل نفسه في الأمور الخطيرة ، ويجد غيرذلك من نفسه وجداناً لا تردد فيه ، وشوهد من هذا الجنس من يؤثر زيارة قبره ورؤية مواضع آثاره على جميع ما ذكر ، لما وقر في قلوبهم من محبته ، غير أن ذلك سريع الزوال بتوالي الغفلات ، والله المستعان . انتهى ملخصاً . (الفتح ١/٦٠).

قوله : « لا يؤمن » قال العلماء رحمهم الله : معناه لا يؤمن الإيمان التام ، وإلا فأصل الإيمان يحصل لمن لم يكن بهذه الصفة .

قال ابن بطال والقاضي عياض وغيرهما : المحبة ثلاثة أقسام : محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد ، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد ، ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة سائر الناس ، فجمع ﷺ أصناف المحبة في محبته .

حَلاَوَةَ الإِيمانِ : أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُه أَحَبَّ إِلَيْه مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لله ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْر بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ » . وفي رواية : « لاَ يَجِدُ أَحَدٌ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ حَتَّىٰ . . . »[1] إلى آخره .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مَنْ أَحَبَّ فِي الله ، وَأَبْغَض فِي الله ، وَوَالَىٰ فِي الله ، وَعَادَىٰ فِي الله ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلاَيَةُ الله بِذَلِكَ ، وَلَنْ يَجِدَ

....

عباده ، وكراهة ما يكره سبحانه ومعاداة أعدائه ، وموالاة أوليائه ، فلا يحصل كمال محبة الله الواجبة إلا بكمال ذلك وايثاره على ما تهواه النفوس مما يخالف ذلك .

قوله : (أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا) ثنيّ الضمير هنا لتلازم المحبتين والله أعلم .

قوله : (كَما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ) أي يستوي عنده الأمران .

قوله : (وفي رواية لاَ يَجِدُ) هي عند البخاري في الأدب المفرد ولفظه « لاَ يَجِدُ أَحَدٌ حلاوة الايمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه . وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » .

قوله : (مَنْ أَحَبَّ في اللهِ) ، أي أحبَّ أهل الايمان بالله وطاعته من أجل ذلك .
قوله : (وَأَبْغَضَ في اللهِ) أي أبغض من كفر بالله وأشرك به وعصاه لارتكابه ما يسخط الله ، وإن كان أقرب الناس إليه ، كما قال تعالى : ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسولَهُ وَلَوْ كانوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشيرَتَهُمْ ﴾ .

قوله : (وَوَالى في اللهِ) بالمحبة والنصرة بحسب القدرة .

قوله : (وَعَادَى في اللهِ) من كان عدو الله ممن أشرك وكفر وظاهَرَ بالمعاصي ، فتجب عداوته بما يقدر عليه .

قوله : (فَإنما تُنالُ وَلايَةُ آللهِ بِذَلِكَ) ، أي توليه لعبده ، وولاية بفتح الواو . وفي

---

(١) تقدم تخريجه ص (٤٨) رقم (٢) .

عَبْدٌ طَعْمَ الإِيْمَانِ وَإِنْ كَثرت صَلاَتُهُ وَصَوْمُهُ حَتَّىٰ يَكُونَ كَذٰلِكَ . وَقَدْ صَارَتْ عامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاس عَلَىٰ أَمْرِ الدُّنْيَا . وَذٰلِكَ لاَ يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئاً[1] . رواه ابن جرير .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمْ الأَسْبَابُ ﴾ [البقرة: ١٦٦] ، قال : المودة[2] .

الحديث « أَوْثَقُ عُرَى الإِيْمانِ الحُبُّ في ٱللهِ وَالبَغْضُ في ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ » ، رواه الطبراني[3] .

قوله : (وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الايمَانِ . . .) إلى آخره ، أي لا يحصل له ذوق الايمان وبهجته ولذته وسروره والفرح به ، وإن كثرت صلاته وصومه ، حتى يكون كذلك . قال تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيرٌ مِمَّا يَجمَعونَ ﴾ .

قوله : (وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخاةِ النَّاسِ عَلى أَمْرِ الدُّنيا وَذلكَ لا يُجدي عَلى أَهْلِهِ شَيْئاً) ، يعني أنه إذا ضعف داعي الايمان أحب دنياه ، وأحب لها وواخىٰ لأجلها ، وهذا هو الغالب على أكثر الخلق محبة دنياهم وإيثار ما يهوونه على ما يحبه الله ورسوله ، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً ، بل يضر في العاجل والآجل فالله المستعان .

قوله : (وقال ابن عباس في قوله « وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبابُ » قال : المودة) ، أي التي كانت بينهم خانتهم أحْوَجَ ما كانوا إليها ، قال تعالىٰ : ﴿ إنَّما تَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ٣/ ٤٣٠ من حديث عمرو بن الجموح رضي الله عنه بلفظ « لا يحق للعبد حق صريح الإيمان حتى يحب لله تعالى ويبغض لله تعالى ، فإذا أحب لله وأبغض لله فقد استحق الولاء من الله . . . » وإسناده ضعيف ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١/ ٨٩ من حديث عمرو بن الحمق رضي الله عنه بلفظ « لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ، ويبغض لله ، فإذا أحب لله وأبغض لله فقد استحق الولاية . . . » وقال : رواه الطبراني في « الكبير » ، وفيه رشدين بن سعد ، وهو ضعيف . وقد صح الحديث الذي رواه أبو داود (٤٦٨١) ، والترمذي (٢٥٢٣) وأحمد ٣/ ٤٤٠ من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله فقط استكمل الايمان » انظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (٣٨٠) .

(٢) هذا الأثر رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم ٢/ ٢٧٢ وصححه ووافقه الذهبي وهو كما قالا .

(٣) الطبراني (١١٥٣٧) من حديث أبي ذر ، وأبو داود الطيالسي (٣٧٨) من حديث ابن مسعود ، وأحمد ٤/ ٢٨٦ من حديث البراء ، قال في « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٧٢٨) : فالحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الحسن على الأقل ، والله أعلم . اهـ .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية البقرة .

الثانية : تفسير آية براءة .

الثالثة : وجوب محبته ﷺ وتقديمها على النفس والأهل والمال .

الرابعة : أن نفي الايمان لا يدل على الخروج من الاسلام .

الخامسة : أن للايمان حلاوة قد يجدها الانسان وقد لا يجدها .

السادسة : أعمال القلب الأربع التي لا تنال ولاية الله إلا بها ، ولا يجد أحد طعم الايمان إلا بها .

السابعة : فهم الصحابي للواقع : أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا .

الثامنة : تفسير : ﴿ **وَتَقَطَّعَتْ بِهِمِ الأَسْبَابُ** ﴾ .

التاسعة : أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً .

العاشرة : الوعيد على من كانت الثمانية أحب إليه من دينه .

الحادية عشرة : أن من اتخذ نداً تساوي محبته محبة الله ، فهو الشرك الأكبر .

* * *

٣٢ - باب [اليقين يضعف ويقوى]

قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٧٥] .

بَيْنِكُمْ في الحَياةِ الدُّنْيا ثمَّ يَوْمَ القِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ الآية .

قوله : (باب قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّمـا ذَلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ فلا تخافوهُمْ وَخافونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ** ﴾ .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : ومن كيد عدوّ الله أنه يخوف المؤمنين جنده وأولياءه لئلا يجاهدوهم ، ولا يأمروهم بمعروف ، ولا ينهوهم عن منكر ، وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه ، ونهانا أن نخافهم ، قال : والمعنى عند جميع المفسرين : يخوفهم بأوليائه . قال قتادة : يعظمهم في صدوركم فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه

وقوله : ﴿ إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ الله مَن آمَنَ بِالله واليَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إلاَّ الله ﴾ الآية [التوبة: ١٨].

وقوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِالله فَإِذَا أُوذِيَ فِي الله جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ الله ﴾ الآية [العنكبوت: ١٠].

خوف أولياء الشيطان ، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم ، فدلت هـذه الآية على أن الخلاص من الخوف من كمال شروط الايمان. وسبب نزول الآية مذكور في التفاسير والسير.

قوله : (وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ آللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليوم الآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاَةَ وَآتى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إلاَّ آلله ﴾) أخبر تعالى : أن مساجد الله لا يعمرها إلا أهل الايمان بالله واليوم الآخر ، الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا بجوارحهم ، وأخلصوا له الخشية دون من سواه ، فلا تكون المساجد عامرة إلا بالايمان الذي معظمه التـوحيد مـع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع ، وذلك كله داخل في مُسمّى الايمان المطلق عند أهل السنة والجماعة.

قوله : (وَلَمْ يَخْشَ إلاّ آلله) قال ابن عطية : يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة ، ولا محالة أن الانسان يخشى المحاذير الدنيوية ، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه.

(قلت) : لأن النفع والضر إنمايكون بمشيئته وإرادته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وقال ابن القيم رحمه الله تعالى : والخوف عبودية القلب ، فـلا يصلح إلا الله : كالذل والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب.

قوله : ﴿ فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكونوا مِنَ المُهْتَدينَ ﴾ . قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس يقول : إن أولئك هم المهتدون ، وكل عسى في القرآن فهي واجبة.

قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقولُ آمَنَّا بِاللهِ فإذا أُوذِيَ في آللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ آلله ﴾ الآية . قال ابن القيم : الناس إذا أرسل اليهم الرسل بين أمرين ، إما أن يقول أحدهم آمنا ، وإما أن لا يقول ذلك ، بل يستمر على السيئات والكفر ، فمن قال آمنا امتحنه ربه وابتلاه ، والفتنة : الابتلاء والاختبار ، ومن لم يقل آمنا ، فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه ، فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت ، أو رغبت عن الايمان ، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء ، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة ، والمعرض عن

الايمان تحصل له اللذة ابتداء ، ثم يصير له الألم الدائم ، والانسان لا بد أن يعيش مع الناس ، والناس لهم تصورات وإرادات ، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها ، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه ، وإن وافقهم حصل له العذاب تارة منهم وتارة من غيرهم - إلى أن قال : فالحزم كل الحزم في الأخذ بما قالت أم المؤمنين لمعاوية :«من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يُغْنُوا عنه من الله شيئاً»[١]. فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه شر نفسه امتنع من الموافقة على فعل المحرم وصبر على عداوتهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة ، كما كانت للرسل وأتباعهم . ثم أخبر تعالى عن حال الداخل في الايمان ، وأنه إذا أوذي في الله جعل فتنة الناس له ، هي أذاهم ، ونيلهم إياه بالمكروه - وهو الألم الذي لا بد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم - جعل ذلك في فراره منه ، وتركه السبب الذي يناله به كعذاب الله الذي فر منه المؤمنون بالايمان ، فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلى الايمان ، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قريب ، وهذا من ضعف بصيرته فر من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله ، فجعل ألم فتنة عذاب الناس في الفرار منه بمنزلة عذاب الله ، وغبن كل الغبن إذا استجار من الرمضاء بالنار ، وفر من ألم ساعة الى ألم الأبد ، وإذا نصر الله جنده وأولياءه ، قال : إني كنت معكم والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق . اهـ .

قوله : (وعن أبي سعيد مرفوعاً « إن مِن ضَعْفِ اليَقِينِ أَن تُرْضي النَّاسَ بِسَخَطِ آللهِ ، وَأَنْ تَحمَدَهُمْ عَلى رِزْقِ آللهِ ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ على مَا لَمْ يُؤْتِكَ الله ، إنَّ رِزْقَ اللهِ لاَ يَجُرُّهُ حِرْصُ حَريصٍ ولاَ تَرُدُّهُ كَراهِيَةُ كَارِهٍ »[٢] .

هذا الحديث رواه أبو نعيم في « الحلية » والبيهقي وأعَلَّه بمحمد بن مروان السدي ، وقال الضعف ، وتمام هذا الحديث : « وَأَنَّهُ بِحكْمِتِه جَعَلَ الرَّوحَ وَالفَرَحَ في الرِّضا وَاليقينِ ، وَجَعَلَ الهمَّ وَالحُزْنَ في الشَّكِّ وَالسَّخَطِ » .

قوله : (إنَّ مِنْ ضَعْفِ اليَقِينِ) الضعف بفتح وسكون وتضم ضاده مع سكون العين

---

(١) سيأتي تخريجه ص (١٧٢) .

(٢) أبو نعيم في « الحلية » ١٠٦/٥ و ٤١/١٠ ، والبيهقي في « شعب الايمان » وفي اسناده محمد بن

النَّاسَ بِسَخَطِ الله ، وَأَنْ تَحْمِدهُمْ عَلَىٰ رِزْقِ الله ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَىٰ مَا لَمْ يُؤْتِكَ الله ، إِنَّ رِزْقَ اللهِ لاَ يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ ، وَلاَ يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ » .

وتحرك عينه مع فتح الضاد : ضد القوة . قال ابن مسعود : اليقين الايمان كله ، والصبر نصف الايمان .

قوله : (« أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ ») أي أن تؤثر رضاهم على ما يرضي الله وذلك إذا لم يقم بقلبه من عظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من إيثار رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه، ومليكه الذي يتصرف في القلب . وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك لأنه آثر رِضَى المخلوق على رِضَي الله ، وتقرب إليه بما يسخط الله ، ولا يسلم من هذا إلاَّ من سلمه الله تعالى .

قوله : (وَأنَ تَحْمدَهُمْ عَلى رِزْقِ اللهِ) أي على ما وصل إليك من أيديهم بأن تضيفه إليهم وتحمدهم عليه ، والله تعالى هو الذي كتبه لك وسيره لـك فاذا أراد أمـراً قيَّض له أسباباً ، ولا ينافي هذا حديث « مَنْ لاَ يَشْكُرِ النَّاسَ لاَ يَشْكُرِ الله »[1] ، لكون الله ساقه على أيديهم فتدعو لهم أو تكافئهم لحديث « مَنْ صَنَعَ إلَيْكُم مَعْروفاً فكافِئوهُ فَإنْ لَمْ تَجدوا مَـا تُكافِئوه فادْعوا لهُ حَتى تروا أنَّكُم قَدْ كافَئْتموهُ »[2] .

قوله : (وَأنْ تذمَّهُم عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ الله) لأنه لم يقدّر لك ما طلبته على أيديهم فلو قدر ساقه إليك . فمن علم أن الله وحده هو المتفرد بالعطاء والمنع بمشيئته وإرادته وأنه الذي يرزق العبد بسبب وبلا سبب ومن حيث لا يحتسب لم يسأل حاجته إلا من الله وحده ولعل ما منع من ذلك يكون خيراً له ، ويحسن الظن بالله سبحانه ولا يرغب إلا اليه ولا يخاف الا من

= مروان السدي متهم بالكذب، انظر «فيض القدير» ٢/٥٣٩ للمناوي و « ضعيف الجامع » (٢٠٠٧).

(١) البخاري في « الأدب المفرد » رقم (٢١٨) وأبو داود رقم (٣٨٥) وابن حبان رقم (٢٠٧٠) « موارد » وأحمد في « المسند » ٢/٢٩٥ و٣٠٢ و٣٨٨ و٤٩٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وهـو حديث صحيح . انظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (٤١٧) .

(٢) البخاري في « الأدب المفرد » رقم (٢١٦) وأبو داود رقم (١٦٧٢) ، والنسائي (١/٣٥٨) ، وأحمد في « المسند » ٢/٦٨ و٩٦ و٩٩ والبيهقي (٤/١٩٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وصححه ابن حبان رقم (٢٠٧١) والحاكم ١/٤١٢ ووافقه الذهبي وهو كما قالا . انظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (٢٥٤) .

وعن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ التَمَسَ رِضَى اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ ، رَضِيَ الله عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْـهُ النَّاسَ ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَى النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ ، سَخِطَ الله عليه وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ » رواه ابن حبان في « صحيحه »(١)

....

ذنبه وقد قرر هذا المعنى في الحديث بقوله : (إِنَّ رِزْقَ اللهِ لا يَجرُّهُ حِرْصُ حريصٍ ، وَلا تَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كارِهٍ) . وقال شيخ الاسلام : اليقين يتضمن القيام بأمر الله تعالى وما وعد الله به أهل طاعته ، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره . فإذا أرضيتهم بسخط الله ولم تكن موقناً لا بوعده ولا برزقه فإنه إنمايحمل الانسان على ذلك إما ميل إلى ما في أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم . وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفـاك مؤنتهم . وإرضاؤهم بما يسخطه ، إنما يكون خوفاً منهم ورجاء لهم وذلك من ضعف اليقين . وأما إذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم فانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فإذا ذممتهم على ما لم يقدر لك كان ذلك من ضعف يقينك فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك ، ولكن من حمده الله ورسوله منهم فهو المحمود ، ومن ذمه الله ورسوله منهم فهو المذموم ، ودل الحديث على أن الايمان يزيد وينقص ، وأن الأعمال من مسمى الايمان .

قوله :(مَنِ التَمَسَ) أي طلب ، قال شيخ الاسلام : وكتبت عائشة إلى معاوية ويروي أنها رفعته « مَنْ أَرْضَى اللهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفاهُ الله مؤنَةَ النَّاسِ ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً » هذا لفظ المرفوع ، ولفظ الموقوف « مَنْ أَرْضى الله بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ الله عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ ، وَمَنْ أَرْضى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ ذَامَّاً » وهذا من أعظم الفقه في الدين ، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه . وكان عبده الصالح . والله يتولى الصّالحين ، والله كاف عبده . ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجعَلْ لَهُ مَخرَجَاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحتَسِبُ ﴾ والله يكفيه مؤنة النَّاس بلا ريب، ومن أرضى الناس

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢٤١٦) في الزهد : باب رقم ٦٤ وأبو نعيم في « الحلية » ١٨٨/٨ وابن حبان رقم (١٥٤١) و(١٥٤٢) « موارد » من حديث عائشة رضي الله عنها ، وهو حديث صحيح كما قال الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٨٨٦) و(٥٩٧٣) .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية آل عمران .

الثانية : تفسير آية براءة .

الثالثة : تفسير آية العنكبوت .

الرابعة : أن اليقين يضعف ويقوى .

الخامسة : علامة ضعفه ، ومن ذلك هذه الثلاث .

السادسة : أن إخلاص الخوف لله من الفرائض .

السابعة : ذكر ثواب من فعله .

الثامنة : ذكر عقاب من تركه .

* * *

٣٣ - باب [التوكل من شروط الإيمان]

قول الله تعالى : ﴿ وَعَلَىٰ اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣] .

بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً كالظالم الذي يعض على يديه ، وأما كون حامده ينقلب ذاماً فهذا يقع كثيراً ويحصل في العاقبة فإن العاقبة للتقوى لا تحصل ابتداء عند أهوائهم . انتهى .

قوله : (باب قول الله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾) .

قال أبو السعادات يقال : توكل بالأمر إذا ضمن القيام به ، وأراد المصنف بهذه الترجمة بالآية بيان أن التوكل فريضة يجب اخلاصه لله لأنه من أجمع أنواع العبادة الباطنة فإن تقديم المعمول يفيد الحصر فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله كما في هذه الآية . قال الامام أحمد : التوكل عمل القلب.

قال ابن القيم في الآية المترجم بها : فجعل التوكل على الله شرطاً في الإيمان ، فدل على انتفاء الايمان عند انتفائه. قال شيخ الاسلام: وما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه الا خاب ظنه فيه فإنه شرك ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ

وقوله : ﴿ إنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وجِلَتْ قُلُوبُهُم ﴾ الآية [الأنفال: ٢].

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤].

الرِّيحُ في مَكانٍ سَحيقٍ ﴾ا هـ ، والتوكل قسمان : أحدهما التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله كالتوكل على الأموات والغائبين ونحوهم من الطواغيت فهذا شرك أكبر لا يغفره الله الا بالتوبة منه ، وأما التوكل على الأحياء الحاضرين والسلطان ونحوهم فيما أقدرهم الله عليه من رزق أو دفع أذى ونحو ذلك فهو نوع شرك أصغر ، والمباح أن يوكل شخصاً بالنيابة عنه في التصرف فيما له التصرف فيه من أمور دنياه كالبيع والشراء والاجارة والطلاق والعتاق وغير ذلك فهذا جائز بالاجماع ، لكن لا يقول توكلت عليه بل يقول وكلته فإنه لو وكله فلا بد أن يتوكل في ذلك على الله سبحانه.

قوله : (وقول الله تعالى : ﴿ إنَّما المُؤْمِنُونَ الَّذينَ إذا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلوبُهُمْ ﴾ الآية) . قال ابن عباس في الآية : المنافقون لا يدخل في قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه . ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون على الله ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين ثم وصف المؤمنين فقال : ﴿ إنَّما المؤْمنونَ الذين إذا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قلوبُهُمْ ﴾ فأدوا فرائضه ، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، وقال السدي في قوله : ﴿ الَّذينَ إذا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلوبُهُمْ ﴾ : هو الرجل يريد أن يظلم أو قال يهم بمعصية فيقال له : اتق الله فيوجل قلبه ، رواه ابن أبي شيبة وابن جرير .

قوله: (﴿وَإذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إيْماناً﴾) استدل الصحابة والتابعون ومن تبعهم من أهل السنة بهذه الآية ونظائرها على زيادة الايمان ونقصانه.

قوله : ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوكَّلُونَ ﴾ أي يعتمدون عليه ، ويفوّضون إليه أمورهم ، فلا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، وهو من أعظم الأسباب في حصول المطالب الدنيوية والأخروية ، وفي الآية وصف المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الاحسان تستلزم حصول أعمال الايمان الواجبة والمستحبة.

قوله: ﴿ يا أَيُّها النَّبيُّ حَسْبُكَ الله وَمَنِ اتّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ ﴾ قال ابن القيم: أي الله

وقوله: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم ﷺ حين أُلْقِي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم فَاخْشَوْهُم فَزَادَهُم إيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾(١) [آل عمران: ١٧٣] رواه البخاري والنسائي.

وحده كافيك وكافي أتباعك فلا تحتاجون معه الى أحد، وهذا اختيار شيخ الاسلام ابن تيمية.

قوله: (وقوله الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾قال ابن القيم وغيره: أي كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه، فلا مطمع فيه لعدو ولا يضره الا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ به مراده، فلا يكون أبداً، قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته فقال: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ على اللهِ فهوَ حَسْبُهُ ﴾ أي كافيه فلم يقل فله كذا وكذا منم الأجر كما قال في الأعمال بل جعل الله سبحانه نفسه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً وكفاه ونصره، انتهى.

قوله: ﴿ حَسْبُنَا اللهُ ﴾ تقدم معناه.

قوله: ﴿ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾ أي نعم من توكل عليه المتوكلون ومخصوص « نِعْمَ » محذوف تقديره نعم الوكيل الله.

قوله: (قالها إبْراهيم عليه السلام حِينَ أُلقِيَ في النَّارِ) قال تعالى: ﴿ قالوا حَرِّقوهُ وَانْصُروا آلهَتكُم إنْ كُنْتُمْ فاعِلينَ * قُلْنا يا نارُ كُوني بَرْداً وَسَلاماً عَلى إبْراهيمَ ﴾ الآية.

قوله: (وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿ إِنَّ النَّاسَ قدْ جَمعوا لكُم فاخْشَوْهُمْ فزادَهُمْ إيماناً وقالوا حَسْبُنا آللهُ وَنِعْمَ الوَكيل ﴾) وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من أحد فمر بهم ركب من عبد القيس فقالوا: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة. قالوا: هل

---

(١) البخاري رقم (٤٥٦٣ و٤٥٦٤) في التفسير: باب تفسير سورة آل عمران ولم أجده عند النسائي ولعله في « الكبرى ».

فيه مسائل :

الأولى : أن التوكل من الفرائض .
الثانية : أنه من شروط الايمان .
الثالثة : تفسير آية الأنفال .
الرابعة : تفسير الآية في آخرها .
الخامسة : تفسير آية الطلاق .
السادسة : عظم شأن هذه الكلمة ، وأنها قول إبراهيم ومحمد ﷺ في الشدائد .

* * *

٣٤ - باب [في الوعيد من أمن مكر الله]

قول الله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ الله فَلَا يَأْمَنُ مَكَرَ الله إلَّا القَوْمُ الخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٨].

....

أنتم مبلغون عنا محمداً رسالة ؟ قالوا : نعم ، قالوا : فاذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم . فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان فقال : « حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكيلُ » وفي الحديث « إذا وَقَعْتُمْ في الأَمرِ العَظيمِ فقولوا : ﴿ حَسْبُنا آللهُ وَنِعْمَ الوَكيلُ ﴾ »(١) .

باب قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنوا مَكْرَ آللهِ فلا يَأْمَنُ مَكْرَ آللهِ إلّا القَوْمُ الخاسِرونَ ﴾ .

أراد المصنف رحمه الله تعالى أن الأمن من مكر الله يدل على ضعف الايمان فلا يبالي صاحبه بما ترك من الواجبات ، وفعل من المحرمات ، لعدم خوفه من الله بما فعل أو ترك ، وهذا من أعظم الذنوب . وأجمعها للعيوب ، ومعنى الآية أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل ، بين أن الذي حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله وعدم الخوف منه ، وذلك أنهم أمنوا مكر الله لمّا استدرجهم بالسراء والنعم فاستبعدوا أن يكون

---

(١) رواه ابن مردويه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو حديث ضعيف كما قال الألباني في « ضعيف الجامع » رقم (٨٢٩) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّون ﴾ [الحجر: ٥٦].

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر ، فقال : « الشِّرْكُ بالله ، وَاليَأْس مِنْ رَوْحِ الله ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ الله »[1] .

ذلك مكراً ، قال الحسن : من وسع عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له ، وقال قتادة : بغت القوم أمر الله وما أُخذ قوم قطّ إلا عند سلوتهم وغرتهم فلا تغتروا بالله ، وقال اسماعيل بن رافع : من الأمن من مكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة . رواه ابن أبي حاتم .

قوله : ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالون ﴾القنوط استبعاد الفرج واليأس منه . وهو يقابل الأمن من مكر الله ، وكلا الأمرين ذنب عظيم ، لما في القنوط من سوء الظن بالله . قوله : ﴿ إلَّا الضالُّون ﴾ أي عن الهدى .

قوله : (وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عَنِ الكَبائِرِ فقال : « الشِّرْكُ بِاللهِ وَاليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ الله ») هذا الحديث رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر . قال ابن معين : ثقة ، ولينة ابن أبي حاتم . وقال ابن كثير : في إسناده نظر والأشبه أن يكون موقوفاً .

قوله : (الشِّرْكُ بِالله) وهو أكبر الكبائرِ . ولهذا بدأ به . قال ابن القيم رحمه الله تعالى : الشرك هضم للربوبية وتنقص للالهية . وسوء ظن برب العالمين . انتهى .

قوله : (وَاليَأْسُ مِن رَوْحِ اللهِ) أي قطع الرجاء والأمل من الله تعالى فيما يخافه ويرجوه . وذلك إساءة ظن بالله وجهل به وسعة رحمته وجوده ومغفرته .

قوله : (والأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ) أي من استدراجه للعبد وسلبه ما أعطاه من الايمان ، نعوذ بالله من ذلك . وذلك جهل بالله وبقدرته وثقة بالنفس وعجب بها . وهذه الثلاث من

---

(١) ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٠٤/١ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وقال في آخره : رواه البزار والطبراني ورجاله موثقون . أقول : ويشهد له حديث عبد الله بن مسعود الذي سيأتي بعد قليل ، ذكره الشارح من رواية عبد الرزاق وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » من رواية الطبراني في « الكبير » ١٠٤/١ ، وقال : اسناده صحيح .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « أَكْبَرُ الكَبَائِرِ : الإِشْـرَاكُ بالله ، والأَمْنُ مِنْ مَكْـرِ الله ، وَالقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ الله ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ الله »[1] رواه عبد الرزاق.

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الأعراف .

الثانية : تفسير آية الحجر .

الثالثة : شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله .

الرابعة : شدة الوعيد في القنوط.

* * *

٣٥ ـ باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

وقول الله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يُؤمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ [التغابن: ١١].

أكبر الكبائر فهي كبيرة جداً نسأل الله اجتنابها . وذكر هذه الثلاث لجمعها للشر كله وبعدها عن الخير ، وقد وقع فيها الكثير قديماً وحديثاً ، نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة .

قوله : (وَالقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ الله) قال أبو السعادات : هو أشد اليأس وينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف فاذا غلب الرجاء في حال الصحة فسد القلب . قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ لهمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجرٌ كَبيرٌ** ﴾ وقال : ﴿ **يَخافونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فيهِ القُلوبُ وَالأَبْصارُ** ﴾ .

قوله: «باب من الايمان باللهِ الصَّبر على أَقْدارِ اللهِ» قال الامام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من كتابه، وفي الحديث الصحيح « الصَّبْرُ ضِياءٌ » [2] رواه أحمد

---

(١) ذكره الهيثمي « مجمع الزوائد » ١/١٠٤ وقال: رواه الطبراني واساده صحيح.

(٢) مسلم رقم (٢٢٣) في الطهارة : باب فضل الوضوء ، والترمذي رقم (٣٥١٢) في الدعوات : باب رقم =

قال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله ، فيرضى ويسلم .

....

ومسلم . قال عمر رضي الله عنه : « وَجَدْنا خَيرَ عَيْشِنا بِالصَّبرِ » رواه البخاري[1] . قال علي رضي الله عنه : (إنَّ الصَّبرَ مِنَ الإيْمانِ بِمَنزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ » ثم رفع صوته فقال : « إنَّهُ لا إيْمانَ لِمَنْ لا صَبرَ لهُ » واعلم أن الصبر على ثلاثة أقسام : صبر على ما أمر الله به ، وصبر على ما نهى عنه وصبر على ما قدره الله من المصائب ، زاد شيخ الاسلام : والصبر عن الأهواء المخالفة للشرع .

قوله : (وقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾) وأول الآية ﴿ **مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ** ﴾ أي بمشيئته وإرادته كما قال في الآية الاخرى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ** ﴾ .

قوله : (قال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبةُ فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلِّم) هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وروي عن ابن مسعود و (علقمة) هو ابن قيس بن عبد الله النخعي الكوفي ولد في حياة النبي ﷺ وسمع من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وعائشة وغيرهم وهو من كبار التابعين وعلمائهم وثقاتهم مات بعد الستين ، وفي هذا الأثر دليل على أن الأعمال من مسمى الايمان . وفي الآية بيان أن من ثواب الصبر هداية القلب .

= (٩١) والنسائي ٥/٥و٦ في الزكاة : باب وجوب الزكاة ، وفي « عمل اليوم والليلة » رقم (١٦٨ - ١٦٩) وأحمد في « المسند » ٥/٣٤٢ و٣٤٣ و٣٤٤ ، والدارمي رقم (٦٥٩) في الوضوء : باب ما جاء في الطهور ، وابن ماجه رقم (٢٨٠) في المقدمة : باب الوضوء شطر الإيمان ، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، ولفظه : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ - ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو ، فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها » .

(١) البخاري تعليقاً ١١/٣٠٣ في الرقاق : باب الصبر عن محارم الله ﴿ **انما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ .

قال الحافظ في « الفتح » : وقد وصله أحمد في كتاب « الزهد » بسند صحيح عن مجاهد قال : قال عمر ، وأخرجه أبو نعيم في « الحلية » من طريق أحمد كذلك ، وأخرجه عبد الله بن المبارك في « كتاب الزهد » من وجه آخر عن مجاهد به وأخرجه الحاكم من رواية مجاهد عن سعيد بن المسيب عن عمر . اهـ .

وفي « صحيح مسلم » عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ : الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ »[(١)] .

و« لهما » عن ابن مسعود مرفوعاً : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ ، أَوْ شَقَّ

قوله : (وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اثْنَتَانِ في النَّاس هُما بِهِمْ كُفْرٌ : الطَّعْنُ في النَّسَبِ وَالنِّياحَةُ عَلى الميِّتِ ») أي هما بالناس كفر حيث كانتا من أعمال الجاهلية وهما قائمتان بالناس ولا يسلم منهما إلا من سلمه الله ، فأطلق الكفر على من قامت به خصلة من هاتين الخصلتين لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً الكفر المطلق كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الايمان يصير مؤمناً الايمان المطلق ففرق بين الكفر المعروف باللام كما في قوله : « لَيْسَ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ الكُفْرِ أَوِ الشِّرْكِ إلّا تَرْكُ الصَّلاةِ »[(٢)] وبين كفر مُنكَّرٍ في الاثبات .

قوله : (الطَّعْنُ في النَّسَبِ) أي عيبه ويدخل فيه أن يقال : هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه[(٣)] .

قوله : (وَالنِّياحَةُ عَلَى المَيّتِ) أي رفع الصوت بالندب وتعداد فضائله لما فيه من السخط على قدر الله المنافي للصبر .

قوله : (مَنْ ضَرَبَ الخُدودَ) قال الحافظ : خص الخد لكونه الغالب وإلا فضرب بقية الوجه مثله .

---

(١) رقم (٦٧) في الايمان : باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة ، وأحمد في « المسند » ٣٧٧/٢ و ٤٣١ و ٤٤١ و ٥٩٦ .

(٢) مسلم رقم (٨٢) في الإيمان : باب اطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ، أبو داود رقم (٤٦٧٨) في السنة : باب في رد الإرجاء ، والترمذي رقم (٢٦٢٢) في الإيمان : باب ما جاء في ترك الصلاة ، وأحمد في « المسند » ٣٧٠/٣ و ٣٨٩ والدارمي رقم (١٢٣٦) في الصلاة : باب في تارك الصلاة ، وابن ماجه رقم (١٠٧٨) في إقامة الصلاة : باب ما جاء فيمن ترك الصلاة ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، ولفظه عند مسلم « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » .
ليس بين العبد وبين الكفر والشرك إلا ترك الصلاة .

(٣) قال الاستاذ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى : يريد بثبوته عدم وجود دلائل ظاهرة ، أو حكم شرعي ينفيه ، فلا يجوز الطعن بمستور النسب ومجهوله ، بل الناس مأمونون على أنسابهم . اهـ .

الجُيُوبَ ، أَوْ دَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ »(١) .

وعن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقوبَةَ فِي الدُّنْيَا ، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِى بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ »(٢) .

قوله : (وَدعَا بِدَعْوى الجَاهِلِيَّةِ) قال شيخ الاسلام : هو ندب الميت ، وقال ابن القيم : الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ وتفضيل بعض على بعض ، يدعو إلى ذلك ويوالي عليه ويعادي عليه ، فكل هذا من دعوى الجاهلية ، وقد يعفى عن الشيء اليسير من ذلك إذا كان صدقاً كما يعفى عن البكاء إذا كان على غير وجه النوح والتسخط ، نص عليه أحمد .

قوله : (إذا أَرادَ آلله بِعَبْدِهِ الخَيرَ عَجَّلَ لهُ العُقوبَةَ في الدُّنْيا) قال شيخ الاسلام : المصائب نعمة لأنها مكفرات للذنوب وتدعو إلى الصبر فيثاب عليها وتقتضي الانابة إلى الله تعالى والذل له والاعراض عن الخلق الى غير ذلك من المصالح ، فنفس البلاء يكفر الله به الخطايا، وهذا من أعظم النعم، فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق إلا أن يدخل

---

(١) البخاري رقم (١٢٩٤) في الجنائز : باب ليس منا من شق الجيوب ، ورقم (١٢٩٧) باب ليس منا من ضرب الخدود ، ورقم (١٢٩٨) باب ما ينهى عن الويل ودعوى الجاهلية عند المصيبة ، ورقم (٣٥١٩) في المناقب : باب ما ينهى من دعوى الجاهلية ، ومسلم رقم (١٠٣) في الايمان : باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب . . ، والترمذي رقم (٩٩٩) في الجنائز : باب ما جاء في النهي عن ضرب الخدود . . . ، والنسائي ٤/٢٠ في الجنائز : باب ضرب الخدود ، وأحمد في « المسند » ١/٣٨٦ و٤٣٢ و٤٤٢ و٤٥٦ .

قوله : « أو دعا بدعوى الجاهلية » قال القاضي : هي النياحة وندبة الميت والدعاء بالويل وشبهه . والمراد بالجاهلية ما كان في الفترة قبل الاسلام .

(٢) رواه الترمذي رقم (٢٣٩٨) في الزهد : باب ما جاء في الصبر على البلاء ، والحاكم ١/٣٤٠ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، واسناده حسن ، وله شاهد من حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه ، عند أحمد ٤/٨٧ ، والطبراني في « الكبير » ، والحاكم ١/٣٤٩ وأبو نعيم في « الحلية » ٣/٢٥ والبيهقي في « شعب الايمان » ، ومن حديث عمار بن يسر رضي الله عنه ، عند الطبراني في «الكبير » ، ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عند ابن عدي ، فهو حديث صحيح بشواهده . انظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٢٢٠) .

وقال النبي ﷺ : « إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إِذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلَاهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ » حسّنه الترمذي[1] .

....

صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما كان قبل ذلك ، فتكون شرًّا عليه من جهة ما أصابه في دينه ، فان من الناس من إذا ابتلى بفقر أو مرض أو جوع حصل له من الجزع والنفاق ومرض القلب والكفر الظاهر وترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له ضرراً في دينه . فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة . لا من جهة نفس المصيبة ، كما إن من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة كانت في حقه نعمة دينية . فهي بعينها فعل الربّ عز وجل رحمة للخلق ، والله تبارك وتعالى محمود عليها ، فمن ابتلى فرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة في دينه وحصل له مع ما كفر من خطاياه رحمة ، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه قال تعالى : ﴿ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات . فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك . اهـ ملخصاً .

قوله : (قال النبي ﷺ : إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ) بكسر العين وفتح الظاء فيهما ويحتمل ضمهما مع سكون الظاء ، قال ابن القيم : إن عظم الجزاء مع عظم البلاء إذا صبر واحتسب فانه حينئذ يثاب على ما تولد منها وهو ظاهر .

قوله : (وَإِنَّ الله تعالى إذا أَحَبَّ قوْماً ابْتَلاهُمْ) وفي الحديث : سئل النبي ﷺ : أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً ؟ قالَ : الأنبياءُ ثمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ . . يُبْتَلى الرَّجُلُ عَلى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كانَ في دِينِهِ صَلَابَةٌ اشْتَدَّ بَلاؤُهُ . وَإِنْ كانَ في دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلى قَدْرِ دِينِهِ ، فما يَبْرَحُ البَلاءُ بِالعَبْدِ حتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِيَ عَلى الأَرْضِ وَمَا عَلَيهِ خَطِيئَةٌ »[2] رواه الدارمي وابن ماجه والترمذي وصححه .

قوله : (مَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى) أي من الله (وَمَنْ سَخِطَ فَله السَّخَطُ) كذلك .

---

(١) رقم (٢٣٩٨) في الزهد : باب ما جاء في الصبر على البلاء ، ورواه أيضاً ابن ماجه رقم (٤٠٢١) في الفتن : باب الصبر على البلاء ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، واسناده حسن كما قال الألباني في « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٤٦) .

(٢) الترمذي رقم (٢٤٠٠) في الزهد : باب ما جاء في الصبر على البلاء ، وابن ماجه رقم (٤٠٢٣) في =

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية التغابن .

الثانية : أن هذا من الإيمان بالله .

الثالثة : الطعن في النسب .

الرابعة : شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية .

الخامسة : علامة إرادة الله بعبده الخير .

السادسة : إرادة الله به الشر .

السابعة : علامة حب الله للعبد .

الثامنة : تحريم السخط .

التاسعة : ثواب الرضى بالبلاء.

* * *

٣٦ ـ باب ما جاء في الرياء

وقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ

....

قوله : (باب ما جاء في الرِّياء) ـ أي من النهي عنه والتحذير ـ .

قوله : (وقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحي إليَّ أنَّما إلٰهُكُمْ إلٰهٌ واحِدٌ ﴾) أي ليس لي من الربوبية ولا من الألهية شيء بل ذلك كله لله وحده لا شريك له أوحاه إليّ ﴿ فَمنْ كانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ ويخافه ﴿فَلْيَعْملْ عمَلاً صَالِحاً ولا يُشْرِكْ بِعبَادةِ رَبِّهِ أحَداً﴾ قال شيخ الاسلام : أمّا اللقاء فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن

الفتن : باب الصبر على البلاء ، والدارمي رقم (٢٧٨٦) في الرقاق : باب في أشد الناس بلاءً ، وابن حبان رقم (٦٩٩) « موارد » والحاكم ١/ ٤٠ و٤١ ، وأحمد ١/١٧٢ و١٧٤ و١٨٠ و١٨٥ ، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه . وهو حديث صحيح كما قال الألباني في « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٤٣) .

وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحَاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أحداً ﴾ [الكهف: ١١٠].

وعن أبي هريرة مرفوعاً: « قَالَ الله تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ ». رواه مسلم(١).

....

المعاينة وقالوا: لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى يوم القيامة، وذكر الأدلة على ذلك. قال ابن القيّم في الآية: أي كما أنه إله واحد لا إله إلا هو، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له، فكما تفرد بالالٰهية يجب أن ينفرد بالعبودية فالعمل الصّالح هو الخالص من الرياء المقيد بالسنة. اهـ. فتضمنت الآية النهي عن الشرك كله قليله وكثيره.

قوله: (مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أشْرِكَ فيهِ غَيْري) أي قصد بعمله غيري من المخلوقين (تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ)، قال الطيبي: الضمير المنصوب في قوله: (تركته) يجوز أن يرجع الى العمل: قال ابن رجب: واعلم أن العمل لغير الله أقسام فتارة يكون رياء محضاً كحال المنافقين كما قال تعالى: ﴿ يُرَاؤُونَ النَّاسَ ولا يَذْكُرُونَ الله الاَّ قَليلاً ﴾ وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام وقد يصدر في فرض الصدقة الواجبة أو الحج أو غيرهما من الاعمال الظاهرة او التي يتعدى نفعها، فان الاخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة. وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء فان شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه وذكر أحاديث تدل على ذلك من هذا الحديث، وحديث شداد بن أوس مرفوعاً « مَنْ صَلى يُرائي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ صَامَ يُرائي فَقَدْ أَشْرَكَ، وإِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَقولُ أنا خيرُ قَسيم لِمَنْ أَشْرَكَ بي فَمَنْ أَشْرَكَ بي شَيْئاً فَإِنَّ جِدَّةَ عَملِهِ وَقَليلَهُ وَكَثيرَهُ لِشَريكِهِ الذي أَشْرَكَ بِهِ أنا عَنْهُ غَنيٌّ »(٢). رواه أحمد، قال الامام أحمد فيمن يأخذ جعلاً على الجهاد: اذا لم يخرج لأجل الدراهم فلابأس كأنه خرج لدينه فان أعطي شيئاً أخذه ـ ثم قال: وأما اذا كان أصل العمل لله ثم طرأ

---

(١) حديث قدسي، رواه مسلم رقم (٢٩٨٥) في الزهد والرقائق: باب من أشرك في عمله غير الله، وابن ماجه رقم (٤٢٠٢) في الزهد: باب الرياء والسمعة.

(٢) أحمد في « المسند » ١٢٦/٤ وهو حديث ضعيف كما قال الألباني في « تخريج المشكاة » رقم (٥٣٣١).

وعن أبي سعيد مرفوعاً : « أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ المَسِيحِ الدَّجَالِ ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ! قال : « الشِّرْكُ الخَفِي ، يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي ، فَيُزِينَ صَلاَتَهُ ، لِمَا يَرَىٰ مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ » . رواه أحمد(1)

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الكهف .

الثانية : الأمر العظيم في ردِّ العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله .

الثالثة : ذكر السبب الموجب لذلك ، وهو كمال الغنى .

الرابعة : أن من الأسباب ، أنه تعالى خير الشركاء .

الخامسة : خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء .

السادسة : أنه فسر ذلك بأن يصلي المرء لله ، لكن يزينّها لما يرى من نظر رجل إليه

عليه نية الرِّياء فان كان خاطراً ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف ، وان استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا ؟ ويجازي على أصل نيته ؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الامام أحمد وابن جرير ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك وأنه يجازي بنيته الاولى وهو مروي عن الحسن وغيره .

قوله : (عن أبي سعيد) . هو الخدري وتقدم . قوله (الشِّرْكُ الخَفيُّ) سماه خفياً لأنه عمل قلب لا يعلمه الا الله ولأن صاحبه يظهر أن عمله لله ، وقد قصد غيره أو شركه فيه بتزيين صلاته لأجله . ولا خلاف أن الاخلاص شرط لصحة العمل وقبوله وكذلك المتابعة . قال ابن القيم : وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء والتصنع للخلق والحلف بغير الله وقول الرجل للرجل : ما شاء الله وشئت ، وهذا من الله ومنك . وأنا بالله وبك . ومالى إلا الله وأنت ، وأنا متوكل على الله وعليك . . ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا . وقد يكون هذا أكبر بحسب حال قائله ومقصده . ا هـ .

---

(1) في « المسند » ٣/٣٠ ، وابن ماجه رقم (٤٢٠٤) في الزهد : باب الرياء والسمعة ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وهو حديث حسن ، كما قال الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٦٠٤) .

٣٧ - باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

وقول الله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِم أَعْمَالَهُم فِيهَا ﴾ الآيتين [هود : ١٥ و١٦].

قوله : (باب من الشرك إرادة الانسان بعمله الدنيا) .

أراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة وما بعدها أن العمل لأجل الدنيا كالرياء في بطلان العمل إن استرسل معه كمن يطلب العلم لتحصيل وظيفة التعليم ، كحال أهل المدارس وأئمة المساجد والمجاهدين ونحوهم ممن يقصد بعمله الصالح أمر دنيا ، وقد وقع ذلك كثيراً حتى أن منهم من يحرص على سفر الجهاد لما يحصل له فيه من جهة أمير الجيش واجتماعه به وأمره له ونهيه وقربه منه ونحو ذلك .

قوله : ﴿ مَنْ كانَ يُريدُ الحيَاةَ الدُّنيَا وَزينتَهَا نُوَفِّ إليْهم أعمَالهُمْ فِيهَا ﴾ الآيتين . قال ابن عباس ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي ثوابها ﴿ وَزِينَتَها ﴾ أي مالها ﴿ نُوَفِّ ﴾ نوفر ﴿ إليْهِمْ ﴾ ثواب « أعْمَالَهُمْ » بالصحة والسرور في المال والأهل والولد ﴿وَهُمْ فيهَا لا يُبْخَسونَ﴾ لا ينقصون ثم نسختها ﴿ مَنْ كانَ يُريدُ العاجِلةَ عَجَّلْنا لهُ فيها ما نشاءُ لِمَنْ نُريدُ ﴾ الآية . رواه البخاري في ناسخه .

وأخرج ابن جرير بسنده المتصل عن شفي بن ماتع عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ آلله تباركَ وَتعالى إذا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ نَزَلَ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكلُّ أُمَّةٍ جاثِيَةٌ فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ القُرْآنَ ، وَرَجُلٌ قُتِلَ في سَبيلِ آللهِ وَرُجُلٌ كَثيرُ آلمالِ » ، فيَقولُ آللهُ تعالى لِلقارِىءِ : أَلَمْ أُعَلِمكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلى رَسولي ؟ قالَ : بَلى يا رَبِّ قال : فماذا عَمِلْتَ فيما عَلِمتَّ قالَ : كنت أَقومُ آناءَ اللَّيْلِ وَآناءَ النَّهارِ فيَقولُ آللهُ كَذَبْتَ ، وَتقولُ لهُ الملائِكَةُ : كَذَبْتَ . وَيَقولُ آللهُ تعالى بَلْ أَرْدتَ أَنْ يُقالَ فُلانٌ قارِىءٌ فَقدْ قيلَ ، وَيُؤْتى بِصاحِبِ المالِ فيَقولُ آللهُ لهُ أَلَمْ أَوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تحتاجُ إلى أَحَدٍ ؟ قالَ بَلى يا رَبِّ . قالَ فما عَمِلْتَ فيما آتَيْتُكَ ؟ قالَ : كُنْتُ أَصلُ الرَّحِمَ وَأَتَصدَّقُ . فيَقولُ الله لهُ : كَذَبْتَ وَتقولُ لهُ الملائِكَةُ : كَذَبْتَ ، وَيَقولُ آللهُ : بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقالَ فُلانٌ جوادٌ فقدْ قيلَ ذَلِكَ ، وَيُؤْتى بِالذي قُتِلَ في سَبيلِ آللهِ فيُقالُ لهُ : فبما ذا قتلْتَ ؟ فيَقولُ : أُمِرْتُ بِالجِهادِ في سَبيلِكَ فقاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ ، فيَقولُ آللهُ لهُ : كَذَبْتَ . وتقولُ الملائِكَةُ : كَذَبْتَ . ويَقولُ

في « الصحيح » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ ، تَعِسَ عَبْدُ القَطِيفَةِ ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ . طُوبَىٰ لِعَبْدٍ أَخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ ، مُغْبَرَّةٍ

....

آلله : بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقالَ فُلانٌ جَرِيءٌ وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ » ثمَّ ضَرَبَ رَسول الله ﷺ عَلى رُكْبَتي فقالَ : « يا أَبا هُرَيْرَةَ أُولئِكَ الثَّلاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ آللهِ تسعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْم القِيامَةِ »[1] .

قوله : (في الصحيح) أي صحيح البخاري . قوله : (تعِسَ) بكسر العين ويجوز الفتح أي سقط ، والمراد هنا هلك ، قاله الحافظ وقال أبو السعادات . يقال : تعس يتعس إذا عثر وانكب لوجهه وهو دعاء عليه بالهلاك .

قوله : (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينارِ تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ) سماه عبداً له لكونه هو المقصود بعمله فصار عبداً له لأنه عَبَدَه بذلك العمل .

قوله : (تَعِسَ عَبْدُ الخميصَةِ) قال أبو السعادات : هي ثوب خز أو صوف معلم و(الخَميلَة) بفتح الخاء المعجمة قال أبو السعادات : ذات الخمل ، ثياب لها خمل من أي شيءٍ كان ، المراد كل ما كان من الدنيا نقداً أو عرضاً لأنه ذكر النوعين ، قال أبو السعادات : أي انقلب على رأسه ، وهو دعاء عليه بالخيبة .

قوله : (وإذا شِيكَ فَلا انتقَشَ) أي إذا أصابته شوكة فلا يقدر على إخراجها بالمناقيش قاله أبو السعادات ، قال شيخ الاسلام : فسماه النبي ﷺ عبدَ الدينار والدرهم وعبد القطيفة وعبد الخميصة ، وذكر ما فيه وهو دعاء عليه بلفظ الخبر وهو قوله : (تَعِسَ وانْتَكَسَ وإذا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ) وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس ، فلا نال المطلوب ، ولا خلص من المكروه . وهذه حال من عبد المال ، وقد وصف ذلك بأنه إن أعطي رضي ، وإن منع سخط ، فرضاه لغير الله وسخطه لغير الله ، وهكذا حال من كان متعلقاً برياسة أو صورة ونحو ذلك من أهواء نفسه إن حصل له رضى وإن لم يحصل له

---

(١) ورواه أيضاً مسلم رقم (١٩٠٥) في الإمارة : باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ، والترمذي رقم (٢٣٨٣) في الزهد : باب ما جاء في الرياء والسمعة ، والنسائي ٦/٢٣ و٢٤ في الجهاد : باب من قاتل ليقال : فلان جرىء ، وأحمد في « المسند » ٢/٣٥٢ .

قَدَمَاهُ . إنْ كَانَ فِي الحِرَاسةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ . إن اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ ، وَإِنْ شَفِعَ لَمْ يُشَفَّعْ »(١) .

....

سخط ، فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له إذ الرِّقُّ والعبودية في الحقيقة رقّ القلب وعبوديته ، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده ، إلى أن قال : وهكذا أيضاً حال من طلب المال فان ذلك يستعبده ويسترقه وهذه الأمور نوعان : (فمنها) ما يحتاج إليه العبد كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك ، فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه ، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه ، وبساطه الذي يجلس عليه ، من غير أن يستعبده فيكون هلوعاً ، (ومنها) ما لا يحتاج إليه العبد فهذا ينبغي أن لا يعلّق قلبه به ، فاذا تعلق قلبه صار مستعبداً ومعتمداً على غير الله فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله ولا حقيقة التوكل على الله ، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غيره ، وهذا أحق الناس بقوله ﷺ : « تعس عبدُ الدّرهم ، تعسَ عبدُ الدينار ، تعسَ عبدُ الخميصة ، تعس عبد الخميلة » وهذا هو عبد لهذه الأمور ، ولو طلبها من الله فان الله إذا أعطاه إياه رضي ، وإن منعه إياها سخط ، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله ، ويسخطه ما يسخط الله ، ويحب ما أحب الله ورسوله ، ويبغض ما أبغض الله ورسوله ، ويوالي أولياء الله ، ويعادي أعداء الله ، فهذا الذي استكمل الايمان . ا هـ . ملخصاً .

قوله : « طُوبَى لِعَبْدٍ » رواه الامام أحمد عن حسن بن موسى قال سمعت عبد الله بن لهيعة : حدثنا دراج أبو السمح : أن أبا الهيثم حدثه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أَنَّ رَجُلاً قالَ يا رَسول آللهِ طُوبى لِمَنْ رَآكَ وَآمَنَ بِكَ قالَ : « طُوبى لِمَنْ رَآني وَآمَنَ بي ثمَّ طُوبى ثم طُوبى ثمّ طُوبى لِمَنْ آمَنَ بي وَلَمْ يَرَني » قالَ لَهُ رَجُلٌ : وَمَا طُوبى ؟ قالَ : « شَجَرَةٌ في الجَنَّةِ مَسيرَةُ مائةَ عامٍ ، ثيابُ أَهْلِ الجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أكمامِها»(٢) له

---

(١) البخاري رقم (٢٨٨٦ و ٢٨٨٧) في الجهاد : باب الحراسة في الغزو وفي سبيل الله مطولاً ، ومختصراً رقم (٦٤٣٥) في الرقاق : باب ما يتقى من فتنة المال ، ورواه أيضاً ابن ماجه مختصراً رقم (٤١٣٥) و (٤١٣٦) .

(٢) ابن حبان رقم (٢٣٠٢) « موارد » وأحمد في « المسند » ٣/ ٧١ ، ورواية دراج أبي السمح عن أبي الهيثم ضعيفة ، والحديث صحيح بشواهد ، كما قال الألباني في « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٢٤١) .

شواهد في الصحيحين .

وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه ها هنا أثراً غريباًعجيباً قال وهب : إنّ في الجَنَّةِ شَجَرَةً يُقالُ لها طُوبى يَسيرُ الرّاكِبُ في ظِلِّها مائَةَ عام لا يَقْطَعُها ، زَهْرُها رِياطٌ ، وَوَرَقُها برودٌ ، وَقُضبْانُها عَنبرٌ ، وَبَطْحاؤُها ياقوتٌ ، وَتُرابُها كافورٌ وَوَحْلُها مِسْكٌ يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِها أَنْهارُ الخمرِ وَاللّبنِ وَالعَسَلِ وَهِيَ مَجلِسٌ لأَهلِ الجنَّةِ فبَيْناهُـمْ فـي مجلِسِهِم إِذْ أَتَتْهُمُ الملائِكَةُ مِنْ رَبهِمْ يَقودونَ نُجُباً مُزْمومَةً بِسَلاسِلَ مِنْ ذَهَبٍ وُوُجوهُها كالمصابيحِ مِنْ حُسْنِها ، وَوَبرُها كَخزِّ المرْعِزّى مِنْ لينِهِ ، عَلَيها رِحالٌ أَلواحُها مِنْ ياقوتٍ ، وَدُفوفُها مِنْ ذَهَبٍ ، وَثِيابُها مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبرَقٍ فيُنيخونَها وَيقولونَ : إِنَّ رَبَّنا أَرْسَلَنا إِلَيْكُمْ لِتزوروه وتُسَلّموا عَلَيْهِ ، قالَ فيَرْكَبونَها قالَ فهِيَ أَسْرَعُ مِنَ الطّائِرِ وَأَوْطَأُ مِنَ الفِراشِ خَبًّا مِنْ غير مهنةٍ يَسيرُ الرَّجُلُ إِلى جَنْبِ أَخيهِ وَهوَ يُكَلِّمُهُ وَيُناجيهِ لا تُصيبُ أُذنَ رَاحِلَةٍ مِنْها أُذُنَ صاحِبَتِها وَلا بَرْكُ راحِلَةٍ بَرْكَ الأُخرى حتّى أَنَّ الشَّجَرَةَ لتَتَنَحّى عَنْ طَرِيقِهِمْ لِئَلا تُفَرِّقَ بَينَ الرَّجُلِ وَأَخيهِ قال فيَأْتونَ إِلى الرَّحْمنِ الرَّحيمِ فيسْفِرُ لهمْ عَنْ وَجْهِهِ ألكَريمِ حَتّى يَنْظُروا إِلَيْهِ فإِذا رَأَوْهُ قالوا : اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ وَمِنْكَ السَّلامُ وَحَقٌّ لَكَ الجَلالُ وَالإِكْرامُ . قالَ فيقولُ تبارَكَ وَتعالى عِنْدَ ذَلِكَ : « أَنا السَّلامُ وَمِني السَّلامُ وَعَلَيْكُمْ حقَّتْ رَحْمتي وَمَحبَّتي مَرْحَباً بِعبادي الذينَ خَشوني بِالغَيْبِ ، وَأَطاعوا أَمْري » قال : فَيَقولونَ رَبَّنا إِنّا لَمْ نعْبُدْكَ حَقَّ عِبادَتِكَ وَلَمْ نَقْدرك حَقَّ قَدْرِكَ فأْذِنْ لنا بِالسُّجودِ قُدّامَكَ قالَ فيَقولُ الله : « إِنّها لَيْسَت دارَ عِبادَةٍ وَلا نَصَبٍ وَلكِنَّها دارُ مُلْكٍ وَنعيمٍ وَإِنّي قدْ رَفَعْتُ عَنْكُمْ نَصَبَ العِبادَةِ فَسَلوني ما شِئْتُم فإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ أُمْنِيّته » فيَسْأَلونَهُ حَتّى أَنَّ أَقْصَرَهُم أُمْنِيَّةً لَيقولُ رَبِّ تنافَسَ أَهْلُ الدُّنْيا في دُنْياهُمْ فَتَضايَقوا ، رَبِّ فآتِني مِثْلَ كلِّ شَيْءٍ كانوا فيهِ مِنْ يَوْمِ خَلَقْتَها إِلى أَنِ انْتَهَتِ الدُّنْيا ، فيقولُ الله تعالى : « لَقَدْ قَصَّرَتْ بِكَ أُمْنِيَّتُكَ ، وَلَقَدْ سَأَلتَ دونَ مَنزِلتِكَ ، هَذا لَكَ مِنّي لأَنهُ لَيْس في عَطائي نَكَدٌ وَلا قِصَرُ يَدٍ »

قالَ ثمَّ يَقول : « اعْرِضُوا عَلى عِبادي ما لَمْ تَبْلُغْ أَمانيهِمْ التي في أَنْفُسِهِمْ » فيَكونُ فيمـا يَعْرِضونَ عَليهِمْ بَراذينَ مُقَرَّنَةً عَلى كلِّ أَرْبعَةٍ مِنْها سَريرٌ مِنْ ياقوتَةٍ واحِدَةٍ عَلى كلِّ سَريرٍ مِنْها قُبَّةٌ مِنْ ذَهَبٍ مُفْرَغَةٌ في كلِ قُبَّةٍ مِنها فَرْشٌ مِنْ فُرُشِ الجَنَّةِ مظاهـرةٌ ، في كل قُبَّـةٍ مِنْها جارِيتانِ مِنَ الحُورِ العينِ ، عَلى كلِّ جارِيَةٍ مِنْهُنَّ ثوْبانِ مِنْ ثِيابِ الجَنّةِ وَلَيْسَ في الجَنّةِ لَوْنٌ إِلاّ وَهُوَ فيهـا ، وَلا طِيبٌ إِلاّ قَدْ عَبَقَ بِهِما ، يَنْفُذُ ضَوْءُ وُجُوهِهِما غِلظ القُبَّةِ حَتّى يَظُنَّ مَنْ يَراهُما أَنَّهُما دونَ القُبَّةِ يُرى مُخُّهُما مِنْ فَوْقِ كالسِّلْكِ الأَبْيَضِ في ياقوتَةٍ حَمْراءَ يَريانِ لهُ مِنَ الفَضْلِ عَلى صَحابَتِهِ كَفَضْلِ الشَّمْسِ عَلى الحِجارَةِ أَو أَفْضَلَ وَيَرى لهما مِثْلَ ذَلِكَ ، ثم يَدْخُلُ إِلَيْهِما فيُحَيِّيانِه وَيُقَبِّلانِهِ وَيُعانِقانِهِ ، وَيَقولانِ لَهُ : ما ظَنَنّا أَنَّ الله يَخْلُقُ مِثْلَكَ . ثُمَّ يَأْمُر

آللہ الملائِكَةَ فيَسيرونَ بِهِمْ صَفًّا في الجَنَّةِ حَتّى يَنْتَهي كلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ الى مَنزِلتِهِ التي أُعِدَّتْ لهُ » ا هـ .

قوله : (أشْعَثَ) مجرورة بالفتحة ، لأنه اسم لا ينصرف للوصف ووزن الفعل و(رَأسُهُ) مرفوع على الفاعلية ، وهو طائر الشعر أشغله الجهاد في سبيل الله عن التنعم بالادهان وتسريح الشعر .

قوله : (مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ) هو بالجر صفة ثانية لعبد .

قوله : (إنْ كانَ في الحِرَاسَةِ) ، أي حامية الجيش عن أن يهجم العدو عليهم .

قولهم : (كانَ في الحرَاسَةِ) أي غير مقصر فيها ولا غافل .

قوله : (وَإن كانَ في السَّاقَةِ كانَ في السَّاقَةِ) أي في مؤخرة الجيش يقلب نفسه في مصالح الجهاد وبما فيه حفظ المجاهدين من عدوهم ، قال الخلخالي : المعنى ائتماره لما أمر واقامته حيث أقيم لا يفقد مكانه ، وانما ذكر الحراسة والساقة لأنهما أشد مشقة .

قوله : (انْ استأذَنَ لمْ يُؤْذَنْ لهُ) أي استأذن على الأمراء ونحوهم ، لم يأذنوا له لأنه لا جاه له عندهم ولا منزلة ، لأنه ليس من طلابها ، وانما يطلب ما عند الله .

قوله : (وَإنْ شَفَعَ لمْ يُشفعْ) يعني لو ألجأته الحال الى أن يشفع له في أمر يحبه الله ورسوله ، لم تقبل له شفاعة عند الامراء ونحوهم ، وعن عثمان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « حَرَسُ لَيْلَةٍ في سَبيلِ اللهِ أفْضَلُ مِنْ ألفِ لَيْلَةٍ يُصَامُ نَهارُهَا وَيُقَامُ لَيْلُها »[1] . وروي الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك هذه الابيات بطرسوس ، وواعده الخروج وأنشدها معه الى الفضيل بن عياض في سنة سبعين ومائة .

يا عابد الحرمين لو أبصرتَنا ... لعلمتَ أنّك في العبادة تلعبُ
من كان يخضب خدَّه بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضَّبُ
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولُنا يوم الصبيحة تتعبُ
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رَهج السَّنابك والغبارُ الأطيبُ
ولقد أتانا من مقال نَبيِّنَا ... قول صحيحٌ صادقٌ لا يكذبُ
لا يستوي غبار خيل الله في ... أنف امرىءٍ ودخان نار تلهبُ
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت ، لا يكذبُ

قال : فلقيت الفضيل بكتابه في المسجد الحرام ، فلما قرأه ذرفت عيناه . فقال :

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » والبيهقي وصححه الحاكم ٨١/٢ ووافقه الذهبي ، وقال الألباني في « ضعيف الجامع » رقم (٢٧٠٣) : حديث ضعيف .

فيه مسائل :

الأولى : إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة .

الثانية : تفسير آية هود .

الثالثة : تسمية الإنسان المسلم : عبد الدينار والدرهم والخميصة .

الرابعة : تفسير ذلك بأنه أعطِي رضي ، وإن لم يعط سخط .

الخامسة : قوله : « تَعِسَ وَانْتَكَسَ » .

السادسة : قوله : « وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ » .

السابعة : الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات .

* * *

صدق أبو عبد الرحمن ونصحني ، ثم قال : أنت ممن يكتب الحديث ؟ قلت : نعم . قال لي : اكتب هذا الحديث ، [كراء حملك كتاب أبي عبد الرحمن إلينا] ، وأملى عليَّ الفضيلُ بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر عن أبي صالح عن أبيه ، عن أبي هريرة أَنَّ رَجُلًا قَالَ يا رسولُ عَلمْني عملاً أنال بِهِ ثوابَ المجاهِدينَ في سَبيلِ اللهِ ، فقال : « هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُصَلِّي فَلا تفْتُرْ ، وَتصومَ فلا تُفْطِر ؟ » فقالَ يا رَسولَ اللهِ أَنا أَضْعَفُ مِنْ أَنْ أَسْتَطِيعَ ذَلِكَ ثمَّ قالَ النَّبيُّ ﷺ :« فوالذي نَفْسي بِيَدِهِ لَوْ طَوَّقْتَ ذَلِكَ مَا بَلَغْتَ فَضْلَ المجاهِدينَ في سَبيلِ اللهِ ، أَمَا عَلِمتَ أَنَّ فَرَسَ المجاهِدِ ليستن في طوله فيكتبُ له بذلك حَسَناتٌ»(١) .

---

(١) رواه بهذا اللفظ ابن عساكر في «تاريخه» ٣٨/٢٥٤ ـ ٢٥٥، من حديث محمد بن ابراهيم بن أبي سكينة، قال: أملى عليَّ عبد الله بن المبارك هذه الأبيات فذكرها، وذكر الحديث كما هو هنا.

ومحمد بن ابراهيم بن أبي سكينة الحلبي، قال الحافظ في «اللسان»: ربما أخطأ، ولم يوثقه غير ابن حبان وذكره ابن كثير في آخر تفسير سورة آل عمران (١/٤٤٧) وقد رواه أحمد في «مسنده» ٢/٣٤٤ بمعناه مختصراً، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله علمني عملاً يعدل الجهاد، قال: لا أجده، قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجداً فتقدم لا تفتر، وتصوم لا تفطر، قال: لا أستطيع، قال: قال أبو هريرة: إن فرس المجاهد يستن في طوله فيكتب له حسنات».

ورواه البخاري (٢٦٣٣)، ومسلم (١٨٧٨) ولفظه: قال أبو هريرة: قيل للنبي ﷺ: ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل؟ قال: لا تستطيعوه، قال: فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يقول: لا تستطيعونه، وقال في الثالثة: «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى». ورواه النسائي ٦/١٩. وانظر «جامع الأصول» ٩/٤٨٠ ـ ٤٨٢.

٣٨ ـ باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرَّم الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله

وقال ابن عباس : يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَة مِنَ السَّمَاءِ ؛ أَقُولُ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ، وَتَقُولُونَ : قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ ؟!.

وقال الإمام أحمد : عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته ، يذهبون إلى رأي سفيان ، والله تعالى يقول : ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَن أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُم فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور: ٦٣] . أتدري ما الفتنة : الشرك ، لعله إذا ردَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

قوله : (باب من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرَّم الله أو تحريم ما أحل الله فقد اتخذَهم أربَاباً من دون الله) فيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **وَقالوا رَبَّنا إنَّا أَطَعْنا سَادَتَنا وَكُبراءَنا فَأَضَلُّوا السَّبِيلا** ﴾ .

قوله : (وقال ابن عباس : يُوشكُ أَنْ تَنزِلَ عَليكُمْ حِجارَةٌ مِنَ السَّماءِ أَقولُ : قالَ رَسولُ ٱللهِ ﷺ وتقولون : قالَ أَبو بَكْرٍ وَعُمرُ) .

قال الامام الشافعي رحمه الله تعالى : أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد ، وقال الامام مالك رحمه الله تعالى : ما منا إلا رادّ ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر ﷺ ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبي ﷺ .

قوله : (وقال الامام أحمد بن حنبل : عجبت لقوم عرَفوا الإِسْنادَ وَصِحَّتَهُ يَذْهَبونَ إلى رأي سفيانَ وٱلله تعالى يَقول : ﴿ **فلْيَحْذَرِ الّـذينَ يُخالِفـونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصيبَهُمْ فِتْنَـةٌ أَوْ يُصيبَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ** ﴾ أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة : الشركُ لعله إذا ردّ بعضَ قولِهِ أن يقعَ في قلبه شيءٌ مِنَ الزَّيْغ فيهلِكَ) .

قال الامام أحمد : نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول في ثلاثة وثـلاثين موضعاً ثم جعل يتلو ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الّذينَ يُخالِفونَ عَنْ أمرِه أَنْ تصيبَهُمْ فِتْنَةٌ أوْ يُصيبَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ** ﴾ وسفيان هو الثوري الامام الزاهد العابد الثقة الفقيه وكان له أصحاب يأخذون عنه

عن عدي بن حاتم : أنه سمع النبي ﷺ يقـرأ هذه الآيـة : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم وَرُهْبَانَهُم أَرْبَاباً مِن دُونِ اللهِ ﴾ الآية [التوبة :٣١] فقلت له : إنا لسنا

....

ومذهبه مشهور ، وقد عمت البلوى بهذا المنكر الذي أنكره الامام أحمد خصـوصا فيمن ينتسب إلى العلم والافتاء والتدريس وزعموا أنه لا يأخذ بأدلة الكتاب والسنة إلا المجتهد ، والاجتهاد قد انقطع ، وقد أخطأوا في ذلك ، وقد استدل الامام أحمد رحمه الله تعالى بقوله ﷺ : « لا تزال طائِفَةٌ مِن أُمَّتي عَلى الحَقِّ مَنْصورَة لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلهمْ وَلا مَنْ خالفَهُمْ حَتّى يَأْتي أَمرُ آللهِ وَهُمْ عَلى ذَلِكَ »[1] أن الاجتهاد لا ينقطع ، وحكي ابن عبد البر الاجماع على أن المقلد لا يكون من أهل العلم ، والأئمة لم يقصروا في البيان بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة . قال أبو حنيفـة : إذا جاء الحـديث عن رسول الله ﷺ فعلى الـرأس والعين ، وإذا جاء عن الصحابة رضي الله عنهم فعلى الرأس والعين وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال وقال : إذا قلت قولا وكتاب الله يخالفه فاتركوا قـولي لكتاب الله تعالى ، قيل : إذا كان قول رسول الله ﷺ يخالفه ؟ قال : اتركوا قولي لخبر رسول الله ﷺ قيل : إذا كان قول الصحابة يخالفه ؟ قال : اتركوا قـولي لقول الصحـابة . وتقـدم قول الامامين مالك والشافعي . فعلى من اشتغـل بمصنفات أهـل مذهبـه أن ينظر في أقـوال المخالفين وما استدلوا به فيكون متبعا للدليل مع من كان معه وبالله التوفيق .

---

(١) البخاري رقم (٣٦٤٠) في المناقب : باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية ، ورقم (٧٣١١) في الاعتصام بالكتاب والسنة : باب قول النبي ﷺ « لا تـزال طائفـة من أمتي ظاهـرين . . . » ، ورقم (٧٤٥٩) في التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه ﴾ ، ومسلم رقم (١٩٢١) في الإمارة : باب قوله ﷺ : « لاتزال طائفة . . . . » من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه وفي الباب عن ثوبان ومعاوية وجابر وعقبة بن عامر وعمران بن حصين وعمر بن الخطاب وأبي هريرة وقرة بن إيـاس رضي الله عنهم . انـظر « جـامـع الأصـول » الحـديث رقم (١٠٤٨) و (٦٧٧٦) و (٦٧٧٧) و (٦٧٧٨) و (٦٧٧٩) و (٧٤٩٦) و (٧٨٣٢) و (٧٩١٧) و (٨٨٧٩). « الأحـاديث الصحيحة » رقم (١٩٥٢ - ١٩٦٢) .

قال القاضي عياض : إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث ، وقال النووي : يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب وفقه ومحدث ومفسر ، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وزاهد وعابد .

قال النووي في « شرح مسلم » ١٣/ ٦٦ - ٦٧ : « وأما هذه الطائفة فقال البخاري : هم أهل العلم ، وقال أحمد بن حنبل : إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم .

نعبدهم قال : « أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ الله فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحِلُّونَ مَا حَـرَّمَ الله ، فَتُحِلُّونَهُ ؟ » فقلت : بلى . قال : « فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ »(١) رواه أحمد ، والترمذي وحسَّنه .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية النور.

الثانية : تفسير آية براءة .

الثالثة : التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي .

الرابعة : تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر ، وتمثيل أحمد بسفيان .

الخامسة : تغيّر الأحوال إلى هذه الغاية ، حتى صار عند الأكثر عبـادة الرهبان هي أفضـل الأعمال ، وتسمى الـولاية ، وعبـادة الأحبار ، هي العلم والفقه ، ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين ، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين .

* * *

قوله : (عن عدي بن حاتم) أي الطائي المشهور بالسخاء والكرم ، قدم عديٌّ على رسول الله ﷺ في شعبان سنة تسع من الهجرة فأسلم وعاش مائة وعشرين سنة ، وقد أشار المصنف رحمه الله تعالى بترجمة الباب إلى هذا الحديث وما في معناه ، وفيه دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله .

قال شيخنا في المسائل فتغيرت الاحوال وآلت الى هذه الغاية فصار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال ويسمونها الولاية ، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه ، ثم تغيرت الحال الى أن عبد من ليس من الصالحين وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين . وعن زياد بن حدير قال: قال لي عمر : هل تعرف ما يهدم الاسلام ؟ قلت : لا . قال : يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين. رواه الدارمي(٢). جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون . فكم ضل من ضل ، وزل من زل .

---

(١) تقدم تخريجه ص (٤٧) .

(٢) تقدم تخريجه ص (١٢٦) رقم (٢) .

٣٩ - باب [الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ]

قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُم آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ

....

قوله : (باب قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين يَزْعمونَ أَنَّهُمْ آمَنوا بما أُنْزِلَ إليك وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قبْلِكَ يُريدونَ أَنْ يَتحاكموا إلى الطّاغوتِ وَقدْ أُمِروا أنْ يَكفُروا بِه ﴾ الآية .

قال العماد ابن كثير: والآية ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم الى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت ها هنا وكل من عبد شيئاً دون الله بأي نوع كان من أنواع العبادة كالدعاء والاستغاثة، فانما عبد الطاغوت، فان كان المعبود صالحاً كانت عبادة العابد له واقعة على الشيطان الذي أمره بعبادته وزينها له كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحشُرُهُمْ جَميعاً ثمَّ نقولُ للمَلائِكَةِ أهؤُلاءِ إيَّاكُمْ كانوا يَعْبُدونَ * قالوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دونِهِمْ بَلْ كانوا يَعْبُدون الجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَيوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَميعاً ثُمَّ نقولُ لِلذينَ أَشْرَكوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ فزَيَّلْنا بَيْنَهُم وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إيَّانا تَعْبُدونَ * فكَفى بِاللهِ شَهيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ إنْ كُنَّا عن عِبادَتِكُمْ لغافِلينَ ﴾ ، والآية بعدها ، وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه كالطواغيت أو كان شجراً أو حجراً أو قبراً كاللات والعزى ومناة وغير ذلك مما كان يتخذه المشركون لهم أصناماً على صور الصالحين والملائكة أو غير ذلك فهي من الطاغوت الذي أمر الله عباده أن يكفروا بعبادته ويتبرؤا منه ومن عبادة كل معبود سوى الله كائناً من كان ، فالتوحيد هو الكفر بكل ما عبد من دون الله كما قال تعالى : ﴿ وَإذ قالَ إبْراهيمُ لأَبيهِ وَقوْمِهِ إنَّني بَراءٌ مما تَعْبُدونَ إلاّ الذي فطَرَني ﴾ الآية فلم يستثن من كل معبود إلا الذي فطره سبحانه وتعالى ، هذا معنى لا إله إلا الله كما تقدم في قوله : ﴿ قَدْ كانَتْ لكُم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إبْراهيمَ وَالذينَ مَعَهُ إذْ قالوا لِقَوْمِهِمْ إنَّا بُراءُ مِنْكمْ وَمِما تعْبدونَ مِنْ دونِ ٱللهِ ، كَفرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنكم العَداوَةُ وَالبَغضاءُ ﴾ إلى قوله : ﴿ حَتَّى تُؤْمِنوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ وكذلك من خالف حكم الله ورسوله بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله أو مع الجهل بذلك أو طلب ذلك أن يتبع عليه أو أطاعه فيما لا يعلم أنه حق اذا كان المطيع له لا يبالي أكان أمره حقاً أم لا فهو طاغوت بلا ريب كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الّذينَ يَزْعمونَ أَنَّهُمْ آمَنوا بِما أُنزِلَ إلَيْكَ وَما أُنْزلَ مِنْ قَبْلِكَ يُريدونَ أَنْ يَتحاكموا إلى الطّاغوتِ وَقدْ أُمِروا

وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُم ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ [النساء: ٦٠].

وقولـه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١١].

وقوله : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِها ﴾ الآية [الأعراف: ٥٦].

أَنْ يَكفُروا بِهِ ﴾ لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد كما في آية البقرة فاذا لم يحصل هذا الركن لم يكن قد نفى ما نفته لا إله إلا الله .

قوله : ﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعيداً ﴾ أي بعيداً عن الهدى ففي هذه الآية أربعة أمور (الاول) أنه من إرادة الشيطان (الثاني) أنـه ضلال (الثـالث) تأكيـده بالمصدر (الرابع) وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى . فسبحان الله ما أعظم القرآن وما أنفعه لمن تدبره ، وما أبلغه وما أدله على أنه كلام رب العالمين أوحاه الى رسوله الكريم ، وبلغه عبده الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه .

قوله : ﴿ وَإِذا قِيلَ لهمْ تعالَوْا إلى ما أَنْزَلَ آللهُ وَإِلى الرّسولِ رَأَيْتَ المُنافِقِينَ يَصُدونَ عَنْكَ صُدوداً ﴾ فان المنافق يكره الحق وأهله ويهوى ما يخالفه من الباطل ، وهذه حال أهل النفاق . قال العلامة ابن القيم : هذا دليل على أن من دعي الى تحكيم الكتاب والسنة فأبى أنه من المنافقين ـ (قلت): فما أكثرهم لا كثّرهم الله ـ قال: و﴿ يَصُدُّونَ ﴾ لازم وهو بمعنى يعرضون لأن مصدره (صدوداً) فما أكثر من اتصف بهذا الوصف خصوصاً من يدعي العلم فانهم صدوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله الى أقوال من يخطيء كثيراً ممن ينتسب الى مذهب من مذاهب الأربعة في تقليدهم من لا يجوز تقليده فيما يخالف الدليل فصار المتبع للرسول ﷺ من أولئك غريباً ، وقد عمت البلوى بهذا .

قوله : ﴿ وَإِذا قِيلَ لهمْ لا تُفْسِدوا في الأَرْضِ قـالوا إنّمـا نحنُ مُصْلِحونَ ﴾ قـال أبوالعالية في الآية : يعني لا تعصوا في الأرض لأن من عصي الله في الارض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض ، لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله . ومناسبة الآية للترجمة أن التحاكم الى غير الله ورسوله من أعمال المنـافقين وهو من الفسـاد في الأرض ، وفي الآية التنبيه على عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء وإن زخرفوها بالدعوى .

قوله : ﴿ وَلا تُفْسِدوا في الارْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ﴾ قال أبو بكر بن عياش في الآية :

إن الله بعث محمداً ﷺ الى أهل الارض وهم في فساد فأصلحهم الله بمحمد ﷺ فمن دعا الى خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين في الارض ، قال ابن القيم : قال أكثر المفسرين : لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء الى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء الى طاعة الله ، فان عبادة غير الله والدعوة الى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك، والدعوة الى غير الله وإقامة معبود غيره ومطاع ومتبع غير رسول الله ﷺ هو أعظم الفساد في الارض ، ولا صلاح لها ولا لأهلها الا بأن يكون الله وحده هو المعبود المطاع ، والدعوة له لا لغيره ، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلاّ ، وغيره انما تجب طاعته اذا أمر بطاعة الرسول ﷺ ، فاذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع ولا طاعة ، ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الارض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله وكل فتنة في العالم وبلاء وشر وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة الى غير الله ورسوله . انتهى . وبما ذكرنا يتبين مطابقة الآية للترجمة .

قوله : (وقول الله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ الآية) قال ابن كثير : ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير والنهي عن كل شر ، وعدَل الى ما سواه من الآراء والاهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات كما يحكم به التتار ، من السياسات المأخوذة عن جنكيرخان الذي وضع لهم كتاباً مجموعاً من أحكام اقتبسه من شرائع شتى وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره وصار في بنيه شرعاً يقدمونه على الحكم بالكتاب والسنة ومن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع الى حكم الله ورسوله فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير .

قوله : (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يوقِنونَ ؟) استفهام انكار أي لا حكم أحسن من حكمه وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس له في الطرف الآخر مشارك ، أي ومن أعدل من الله حكماً لمن عقل عن الله شرعه وآمن وأيقن أنه تعالى أحكم الحاكمين وأرحم بعباده من الوالدة بولدها ، العليم بمصالح عباده القادر على كل شيء الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ »(١) . قال النووي : حديث صحيح ، رويناه في كتاب « الحجة » بإسناد صحيح .

قوله : (عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكونَ هَواهُ تَبَعاً لما جِئْتُ بِهِ » قال النووي حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة باسناده صحيح) هذا الحديث رواه الشيخ أبو الفتح نصر بن ابراهيم المقدسي الشافعي في (كتاب الحجة على تارك المحجة) باسناد صحيح كما قال المصنف عن النووي ورواه الطبراني وأبو بكر ابن عاصم والحافظ أبو نعيم في الاربعين التي شرط لها أن تكون في صحاح الاخبار وشاهده في القرآن قال تعالى : ﴿ فلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنونَ حَتَّى يُحكِّموكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثمَّ لا يَجدوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مما قَضَيْتَ وَيُسَلِّموا تسْليماً ﴾ وقوله : ﴿ وَمَا كانَ لمؤْمِنٍ ، وَلا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضى آللهُ وَرَسولُهُ أَمْراً أَنْ يكونَ لهمُ الخِيرَةُ مِنْ أَمْرِهِم ﴾ وقوله : ﴿ فإِنْ لَمْ يَسْتَجيبوا لَكَ فاعْلَمْ أنما يَتَّبِعونَ أَهْواءَهُمْ ﴾ ونحو هذه الآيات .

قوله : (حتى يَكُونَ هَواهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ) الهوى بالقصر أي ما تهواه وتحبه نفسه فان كان الذي يحبه وتميل اليه نفسه ويعمل به تابعاً لما جاء به الرسول ﷺ لا يخرج عنه الى ما يخالفه، فهذه صفة أهل الايمان المطلق الذي يوجب لصاحبه الجنة والنجاة من النار، وان كان بخلاف ذلك أو في بعض أحواله أو اكثرها انتفى عنه من الايمان كماله الواجب فيطلق عليه مؤمن بقيد ، لنقص ايمانه بالمعصية كما في حديث أبي هريرة « لا يَزْني الزَّاني حينَ

---

(١) تعقبه الحافظ ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ فقال : تصحيح هذا الحديث بعيد جداً من وجوه :

منها أنه حديث ينفرد به نعيم بن حماد المروزي ، ونعيم هذا وإن كان وثقه جماعة من الأئمة وخرج له البخاري ، فإن أئمة الحديث كانوا يحسنون به الظن لصلابته في السنة وتشدده في الرد على أهل الأهواء ، وكانوا ينسبونه إلى أنه يتهم ويشبه عليه في بعض الأحاديث ، فلما كثر عثورهم على مناكيره حكموا عليه بالضعف (ونقل كلام الأئمة ، ثم قال :)

ومنها أنه قد اختلف على نعيم في إسناده ، فيروي عنه الثقفي عن هشام ، ورُوي عنه عن الثقفي ، حدثنا بعض مشيختنا ، حدثنا هشام : أو غيره ، وعلى هذه الرواية يكون الشيخ الثقفي غير معروف عنه ، ورُوي عن الثقفي حدثنا بعض مشيختنا ، حدثنا هشام أو غيره ، فعلى هذه الرواية فالثقفي رواه عن شيخ مجهول ، وشيخه رواه عن غير معين ، فتزداد الجهالة في اسناده . =

يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[1] فيكون مسلماً ومعه مطلق الايمان

= ومنها أن في اسناده عقبة بن أوس السدوسي البصري ، ويقال فيه : يعقوب بن أوس أيضاً ، وقد خرج له أبو داود والنسائي وابن ماجه حديثاً عن عبد الله بن عمرو ويقال : عبد الله بن عمرو، وقد اضطرب في اسناده ، وقد وثقه العجلي وابن سعد وابن حبان ، وقال ابن خزيمة : روى عنه ابن سيرين مع جلالته ، وقال ابن عبد البر : هو مجهول ، وقال الغلابي في « تاريخه » : يزعمون أنه لم يسمع من عبد الله بن عمرو ، وإنما يقول : قال عبد الله بن عمرو ، فعلى هذا تكون رواياته عن عبد الله بن عمرو منقطعة ، والله أعلم . ا هـ .

أقول ومعنى الحديث صحيح وإن كان في اسناده ضعفاً ، وشاهده من القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ وغيرها من الآيات .

(١) البخاري رقم (٢٤٧٥) في المظالم : باب النهي بغير إذن صاحبه ، رقم (٥٥٧٨) في الأشربة ، في فاتحته ، رقم (٦٧٧٢) في الحدود : باب الزنا وشرب الخمر ، ورقم (٦٨١٠) في المحاربين: باب إثم الزناة ، ومسلم رقم (٥٧) في الإيمان : باب بيان نقصان الايمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية ، وأبو داود رقم (٤٦٨٩) في السنة : باب الدليل على زيادة الايمان ونقصانه ، والترمذي رقم (٢٦٢٧) في الايمان : باب ما جاء لا يزني الزاني وهو مؤمن ، والنسائي ٨/٦٤ في السارق : باب تعظيم السرقة ، وأحمد في « المسند » ٢/٢٤٣ و٣١٧ و٣٧٦ و٣٨٦ و٤٧٩ ، وابن ماجه رقم (٣٩٣٦) في الفتن : باب النهي عن النهبة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وفي الباب عن عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم . انظر « جامع الأصول » رقم (١٩٢٧) و(٩٣٦٩) و (٩٣٧٠) .

قال الامام النووي رحمه الله تعالى في« شرحه على صحيح مسلم » ٢/٤١ ـ ٤٢ ، هذا الحديث مما اختلف العلماء في معناه فالقول الصحيح الذي قاله المحققون أن معناه لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الايمان ، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كماله ومختاره ، كما يقال : لا علم الا ما نفع ولا مال الا الإبل ولا عيش الا عيش الآخرة ، وانما تأولناه على ما ذكرناه لحديث أبي ذر وغيره ، من قال : لا اله الا الله دخل الجنة وان زنى وإن سرق ، وحديث عبادة بن الصامت الصحيح المشهور أنهم بايعوه ﷺ على أن لا يسرقوا ولا يزنوا ولا يعصوا الى آخره ، ثم قال لهم ﷺ : فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن فعل شيئاً من ذلك فعوقب في الدنيا فهو كفارته ، ومن فعل ولم يعاقب فهو إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه ، فهذان الحديثان مع نظائرهما في الصحيح مع قول الله عز وجل : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن شاء ﴾ مع اجماع أهل الحق على أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك لا يكفرون بذلك بل هم مؤمنون ناقصوا الايمان ، ان تابوا سقطت عقوبتهم وان ماتوا مصرين على الكبائر كانوا في المشيئة فان شاء الله تعالى عفا عنهم وأدخلهم الجنة أولاً ، وان شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة ، وكل هذه الأدلة تضطرنا إلى تأويل هذا الحديث وشبهه ، ثم ان هذا التأويل ظاهر سائغ في اللغة مستعمل فيها كثير وإذا ورد حديثان مختلفان ظاهراً وجب الجمع بينهما ، وقد وردا هنا فيجب الجمع وقد جمعنا ، وتأول بعض العلماء =

وقال الشعبي : كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة ؛ فقال اليهودي : نتحاكم إلى محمد ـ لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة ـ وقال المنافق : نتحاكم إلى اليهود ؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة ، فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهينة فيتحاكما إليه ، فنزلت : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ . . . ﴾ الآية [النساء: ٦٠].

....

الذي لا يصح اسلامه الاّ به وهذا التوحيد الذي لا يشوبه شرك ولا كفر وهذا هو الذي يذهب اليه أهل السنة والجماعة خلافاً للخوارج والمعتزلة، فان الخوارج يكفرون بالذنوب، والمعتزلة لا يطلقون عليه الايمان ويقولون بتخليده في النار وكلا الطائفتين ابتدع في الدين وترك ما دل عليه الكتاب والسنة وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الله لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ فقيد مغفرة ما دون الشرك بالمشيئة ، وتواترت الاحاديث بما يحقق ما ذهب اليه أهل السنة ، فقد أخرج البخاري وغيره عن أنس عن النبي ﷺ قال : « يَخرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قال لا إله إلا آلله وَفي قلبه وَزْنُ شَعيرَةٍ مِنْ خَير ويَخرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قالَ لا إلهَ إلاّ آلله وَفي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خيرٍ وَيَخرُج مِنَ النَّارِ مَنْ قالَ لا إلهَ إلاّ آلله وَفي قلبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيرٍ »[1] .

قوله : (وقال الشعبي كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة فقال اليهودي نتحاكم الى محمدٍ ، عرف أنه لا يأخذ الرشوة وقال المنافق : نتحاكم الى اليهود) الخ . في قصة عمر وقتله المنافق الذي طلب التحاكم الى كعب بن الاشرف دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق وكان كعب بن الاشرف هذا شديد العداوة للنبي ﷺ والأذى

= وهذا الحديث على من فعل ذلك مستحلاً له مع علمه بورود الشرع بتحريمه ، وقال الحسن وأبو جعفر محمد بن جرير الطبري معناه ينزع منه اسم المدح الذي يسمى به أولياء الله المؤمنين ، ويستحق اسم الذم فيقال : سارق وزان وفاجر وفاسق ، وحكي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن معناه ينزع منه نور الايمان ، وفيه حديث مرفوع ، وقال المهلب : ينزع منه بصيرته في طاعة الله تعالى ، وذهب الزهري إلى أن هذا الحديث وما أشبهه يؤمن بها ويمر على ما جاءت ولا يخاض في معناها وانا لا نعلم معناها ، وقال : أمروها كما أمرها من قبلكم ، وقيل في معنى الحديث غير ما ذكرته مما ليس بظاهر بل بعضها غلط فتركتها وهذه الأقوال التي ذكرتها في تأويله كلها محتملة والصحيح في معنى الحديث ما قدمناه أولاً والله أعلم .

(١) قطعة من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه المطول في الشفاعة رواه البخاري رقم (٤٤) في الإيمان : =

وقيل : نزلت في رجلين اختصما ، فقال أحدهما : نترافع إلى النبي ﷺ ، وقال الآخر : إلى كعب بن الأشرف ، ثم ترافعا إلى عمر ، فذكر له أحدهما القصة . فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ : أكذلك ؟ قال : نعم ، فضربه بالسيف فقتله.

فيه مسائل : .

الأولى : تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت .

الثانية : تفسير آية البقرة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

الثانية : تفسير آية الأعراف ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ .

الرابعة : تفسير : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ .

الخامسة : ما قاله الشعبي في نزول الآية الأولى .

السادسة : تفسير الإيمان الصادق والكاذب .

السابعة : قصة عمر مع المنافق .

الثامنة : كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ .

* * *

له والاظهار لعداوته فانتقض به عهده ، وحل به قتله وقصة قتله مذكورة في كتب الأحاديث[1] والسير وغيرها .

= باب زيادة الإيمان ونقصانه ، و(٤٤٧٦) و(٦٥٦٥) و(٧٤١٠) و(٧٤٤٠) و(٧٥٠٩) و(٧٥١٠) و(٧٥١٦) ، ومسلم رقم (١٩٣) في الإيمان : باب أدنى أهل الجنة منزلة منها ، وابن ماجه رقم (٤٣١٢) وأحمد في « المسند » ١١٦/٣ و ٢٤٤ .

(١) البخاري رقم (٢٥١٠) و(٣٠٣١ و٣٠٣٢) و(٤٠٣٧) في المغازي : باب قتل كعب بن الأشرف ، ومسلم رقم (١٨٠١) في الجهاد : باب قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود ، وأبو داود رقم (٢٧٦٨) ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

٤٠ ـ باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات

وقول الله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ ﴾ الآية [الرعد: ٣٠].

قوله (باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات . وقول الله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ ﴾ الآية) سبب نزول الآية معلوم وهو أن قريشاً جحدوا اسم الرحمن عناداً قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعوا الله أوِ ادْعوا الرَّحْمٰنَ أيّاما تدْعوا فَلَهُ الأسْماءُ الحُسْنى ﴾ فالرحمن اسمه وصفته ، فالرحمة وصفه القائم به ، فاذا كان المشركون جحدوا اسماً من أسمائه الذي دل على كماله تعالى فجحدوا معناه كجحود لفظه فان الجهمية يزعمون أنها لا تدل على صفة قائمة بالله تعالى ، وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة ، فلهذا كفرهم كثير من أهل السنة . قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :

ولقد تقلد كفرهم خمسون في ... عشر من العلماء في البلدان
واللالكائيُّ الامام حكاه عنهم ... بل حكاه قبله الطبراني

فان هؤلاء الجهمية ومن وافقهم من أهل الكلام على التعطيل جحدوا ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسول الله ﷺ من صفات كماله ونعوت جلاله وبنوا هذا التعطيل على أصل فاسد أصلوه من عند أنفسهم ولم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين، فشبهوا الله في ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقه ثم عطلوه من صفات كماله وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات ، فشبهوا أولاً ، وعطلوا ثانياً ، وشبهوا ثالثاً بكل ناقص أو معدوم ، فتركوا ما دل عليه صريح الكتاب والسنة وما عليه سلف الامة من إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته ، إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهوَ السَّميعُ البَصيرُ ﴾ وقد صنف أئمة السنة لما حدثت بدعة الجهمية مصنفات كثيرة في الرد عليهم كالامام أحمد وابنه عبد الله والخلال وأبي بكر الأثرم وعثمان بن سعيد الدارمي وإمام الأئمة محمد بن خزيمة وأبي عثمان الصابوني وخلق من أئمة السنة لا يمكن حصرهم ، وكذلك من بعدهم كأبي محمد موفق الدين وشيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم الجوزية ومن في طبقتهم كالعماد ابن كثير والحافظ ابن الهادي وابن رجب والذهبي وغيرهم من أهل السنة والجماعة ، وكتبهم مشهورة موجودة بين أهل السنة والجماعة فلله الحمد على ظهور الحق ونشره والدعوة إليه والمحافظة عليه .

وفي « صحيح البخاري » قال علي : « حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ ؟ »(1).

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس : أنه

....

قوله : (قَالَ عليٌّ : حدِّثوا الناسَ بما يعرفون أتريدونَ أنْ يُكذَّبَ الله ورسولُهُ) وهذا ، والله أعلم ، قاله حين كثر القصاص في خلافته وصاروا يذكرون أحاديث ليست من الاحاديث المعروفة ولهذا كثر الوضع بهذا السبب ، وغير المعروف يحتمل أن يكون فيه ما يصح وفيه ما لا يصح فاذا سمعه من لم يعرفه أنكره وربما كان حقا فلا ينبغي التحديث إلا بما صح وثبت واشتهر عند المحدثين والفقهاء ، وما ليس كذلك فلا ينبغي أن يحدث به لاحتمال أن يكون غير صحيح ، وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ينهى عن القصص لما فيه من التساهل في النقل ويقول لا يقص إلا أمير أو مأمور.

قوله : (وروى عبد الرزاق) هو ابن همام الصنعاني المحدث ، محدث اليمن صاحب التصانيف ، أكثر الرواية عن معمر بن راشد صاحب الزهري وهو شيخ عبد الرزاق يروي عنه كثيراً ، ومعمر بفتح الميمين وسكون العين أبو عروة ابن أبي عمرو راشد الازدي الحراني ثم اليماني من أصحاب محمد بن شهاب الزهري ويروي عنه كثيراً .

قوله : (عن ابن طاوس) هو عبد الله بن طاوس اليماني ، قال معمر : كان من أعلم الناس بالعربية ، وقال ابن عيينة : مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

قوله : (عن أبيه) هو طاوس بن كيسان الجندي بفتح الجيم والنون الامام العالم قيل اسمه ذكوان قاله ابن الجوزي (قلت) وهو من أئمة التفسير ومن أوعية العلم، قال في تهذيب الكمال عن الوليد الموقري عن الزهري قال : قدمت على عبد الملك بن مروان فقال : من أين قدمت يازهري ؟ قال : قلت : من مكة ، قال : من خلفت يسودها وأهلها ؟ قلت : عطاء بن أبي رباح ، قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قلت : من الموالي ، قال : فبم سادهم ؟ قال : قلت : بالديانة والرواية قال : إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا ، قال : فمن يسود أهل اليمن ؟ قلت : طاوس بن كيسان ، قال : فمن العرب أم

---

(1) ١/ ٢٢٥ تعليقاً في العلم : باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا .

رأى رجلاً انتفض ـ لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات ، استنكاراً لذلك ـ فقال : مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ ، وَيَهْلَكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ »[1] انتهى .

من الموالي ؟ قال : قلت : من الموالي ، قال : فبم سادهم ؟ قلت : بما ساد به عطاء ، قال : إنه لينبغي ذلك ، قال : فمن يسود أهل مصر ؟ قلت : يزيد بن أبي حبيب : قال : فمن العرب أم من الموالي ، قال : قلت : من الموالي ، قال : فمن يسود أهل الشام ؟ قلت : مكحول ، قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قلت : من الموالي عبد نوبي أعتقته امرأة من هذيل ؟ قال : فمن يسود أهل الجزيرة ؟ قلت : ميمون بن مهران . قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قلت : من الموالي ، قال : فمن يسود أهل خراسان ؟ قال : قلت : الضحاك بن مزاحم ، قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قلت : من الموالي ، قال : فمن يسود أهل البصرة ؟ قلت : الحسن البصري ، قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قال : قلت : من الموالي ، قال : ويلك ومن يسود أهل الكوفة ؟ قال : قلت : إبراهيم النخعي ، قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قال : قلت : من العرب ، قال : ويلك يا زهري فرجت عني والله لتسودن الموالي على العرب حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها ، قال : قلت : يا أمير المؤمنين إنما هو دين من حفظه ساد ومن ضيعه سقط .

قوله : (مَا فَرَقُ هٰؤلاء) يستفهم من أصحابه يشير إلى أناس ممن يحضرون مجلسه فاذا سمعوا شيئاً من محكم القرآن حصل منهم فرق أي خوف ، فاذا سمعوا شيئاً من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين للمعنى ، ولا يتم الايمان إلا بقبول اللفظ بمعناه الذي دل عليه ظاهراً، فان لم يقبل معناه أو ردّه أو شك فيه لم يكن مؤمناً به فيكون هلاكاً. وقد ظهر من البدع في زمن ابن عباس بدعة القدرية كما في صحيح مسلم وغيره فقتل من دعاتهم غيلان ، قتله هشام بن عبد الملك لما أصر على قوله بنفي القدر ، ثم بعد ذلك أظهر الجعد ابن درهم بدعة الجهمية فقتل ، قتله خالد بن عبد الله القسري يوم الاضحى بعد صلاة العيد . قال الذهبي : حدثنا وكيع عن إسرائيل بحديث« إذا جَلَسَ الرَّبُّ عَلَى الكُرْسيّ » فاقشعر رجل عند وكيع فغضب وكيع وقال : « أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها » أخرجه عبد الله في الرد على الجهمية ، والواقع من أهل البدع

(١) اسناده صحيح .

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر : ﴿ الرَّحْمٰن ﴾ أنكـروا ذلك فأنزل الله فيهم : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ ﴾.

فيه مسائل :

الأولى : عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات .

الثانية : تفسير آية الرعد .

الثالثة : ترك التحديث بما لا يفهم السامع .

الرابعة : ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله ، ولو لم يتعمَّد المنكر .

الخامسة : كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك ، وأنه هلكة .

* * *

وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس ، وسبب هذه البدع جهل أهلها وقصورهم في الفهم[1] وعدم أخذ العلوم الشرعية على وجهها ، وتلقيها من أهلها العارفين لمعناها الذين وفقهم الله تعالى لمعرفة المراد ، والتوفيق بين النصوص ، والقطع بأن بعضها لا يخالف بعضا ، ورد المتشابه الى المحكم ، وهذه طريقة أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان ، فلله الحمد لا نحصي ثناء عليه.

قوله : (وَلما سمِعَتْ قرَيْشٌ رَسولَ آلله ﷺ يَذْكُرُ الرَّحمن أَنْكَروا ذَلِكَ فأَنزلَ آلله فيهِمْ : ﴿ وَهُمْ يَكْفرونَ بِالرَّحْمٰنِ ﴾ الآية) روى ابن جرير عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ يدعو ساجدا « يا رحمن يا رحيم » فقال المشركون : هذا يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو مثنى مثنى فأنزل الله : ﴿ قُلِ ادْعوا آللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أَيّاماً تَدْعُوا فَلَهُ الأَسماءُ الحُسْنىٰ ﴾.

---

(١) قال الاستاذ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى : يعني فهم اللغة العربية ، فإن الصحابة رضي الله عنهم لم يستذكروا شيئاً من ذلك ، ولم يروا أنهم في حاجة لسؤال النبي ﷺ عنه ، لأنهم أهل اللغة ، عرفوا آيات التنزيه ، فحالت عندهم دون حمل نصوص الصفات على التشبيه ، فلم يشبهوا ولم يعطلوا ، ولم يبتغوا الفتنة فيتأولوا . اهـ .

٤١ ـ باب [معرفة النعمة وإنكارها]

قول الله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الكَافِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٣].

قال مجاهد ما معناه : هو قول الرجل : هذا مالي ، ورثته عن آبائي .

وقال عون بن عبد الله : يقولون : لولا فلان لم يكن كذا .

وقال ابن قتيبة : يقولون : هذا بشفاعة آلهتنا .

وقال أبو العباس ـ بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه : « إن الله تعالى قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر . . . » الحديث ، وقد تقدم ـ وهذا كثير في الكتاب والسنة ، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ، ويشرك به .

قال بعض السلف : هو كقولهم : كانت الريح طيبة ، والملّاح حاذقاً ، ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسنة كثيراً .

قوله : (باب قول الله تعالى : ﴿ يَعْرِفونَ نِعْمَةَ الله ثُمَّ يُنْكِرونَها ﴾ الآية) قال ابن جرير : فان أهل التأويل اختلفوا في المعنى بالنعمة فذكر عن سفيان عن السدي ﴿ يَعْرِفونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرونَها ﴾ قال : محمد ﷺ ،وقال آخرون : بل ومعنى ذلك أنهم يعرفون أن ما عدد الله تعالى ذكره في هذه السورة من النعم من عند الله ، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك ولكنهم ينكرون ذلك فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم . وأخرج عن مجاهد ﴿ يَعرِفونَ نِعْمةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرونَها ﴾ قال : هي المساكن والانعام وما يرزقون منها والسرابيل من الحديد والثياب . يعرف هذا كفار قريش ثم ينكرونه بأن يقولوا : هذا كان لآبائنا فورثونا إياهُ.

قوله : (وقال عون بن عبد الله : يقولون لَوْلا فُلانٌ لَمْ يَكُنْ كَذا) عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي أبو عبد الله الكوفي الزاهد عن أبيه وعائشة وابن عباس ، وعنه قتادة وأبو الزبير والزهري ، وثّقه أحمد وابن معين قال البخاري : مات بعد العشرين ومائة ، واختار ابن جرير القول الأول واختار غيره أن الآية تعم ما ذكره العلماء في معناها وهو الصواب.

قوله : (وقال شيخ الاسلام ابن تيمية : يَذُمّ سبحانَهُ مَنْ يُضيفُ إنعامَه الى غَيْرِهِ ويُشْرِكُ به . قال بعضُ السَّلَفِ : هُوَ كَقَوْلِهِمْ : كانت الريحُ طيبةً ، والملاَّحُ حَاذِقاً ، ونحو

فيه مسائل :

الأولى : تفسير معرفة النعمة وإنكارها .
الثانية : معرفة أن هذا جارٍ على ألسنة كثير .
الثالثة تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة .
الرابعة : اجتماع الضدين في القلب .

* * *

٤٢ - باب [الحلف بغير الله شرك]

قول الله تعالى : ﴿ **فَلَا تَجْعَلُوا لله أَنْدَاداً وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٢].

....

ذلك مِمَّا هو جارٍ على ألسنةٍ كثيرٍ . اهـ .) وكلام شيخ الاسلام يدل على حكم هذه الآية عام فيمن نسب النعم إلى غير الله وأسند أسبابها الى غيره مما هو مذكور في كلام المفسرين المذكور بعضه هنا وذلك من أنواع الشرك كما لا يخفى[١] .

قوله : (باب قول الله تعالى : ﴿ **فَلَا تَجْعلوا لِلهِ أَنْدَاداً وأَنْتُمْ تَعْلَمون** ﴾) الند المثل والنظير ، وجعل الند لله هو صرف أنواع العبادة أو شيء منها لغير الله ، كحال عبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دعوه ورجوه أنه ينفعهم ويدفع عنهم ، ويشفع لهم ، قال تعالى : ﴿ **فَلَا تَجْعَلوا لِلهِ أَنْداداً وأَنْتُم تَعْلَمونَ** ﴾ قال العماد ابن كثير في تفسيره : قال أبو العالية : ﴿ **فَلَا تَجْعلوا لِلهِ أَنْدَاداً وأَنتُم تَعْلمونَ** ﴾ قال : عدلاء شركاء ، وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدي وأبو مالك واسماعيل بن أبي خالد ، وقال ابن عباس : ﴿ **فَلَا تَجْعَلوا لِلهِ أَنْدَاداً وأَنتُم تَعْلَمونَ** ﴾ أي لا تشركوا بالله شيئاً من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنه ربكم لا يرزقكم غيره ، وقد علمتم أن الذي يدعوكم الرسول إليه من توحيده هو الحق

---

(١) قال الاستاذ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى : يعني عند من يعتقد أن الأسباب مؤثرة بذاتها لا بتسخير الله ونعمته ، وأما من يعتقد أن هذه الأسباب سخرها الله تعالى ويشكره على ذلك ، فلا يضر هذا اللفظ ، وقد وصف الله الريح بالطيبة في قوله : ﴿ **حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة** ﴾ . اهـ .

قال ابن عباس في الآية : الأنداد : هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل ؛ وهو أن تقول : والله ، وحياتك يا فلان وحياتي ، وتقول : لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص . ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص . وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : لولا الله وفلان . لا تجعل فيها فلاناً . هذا كله به شرك » رواه ابن أبي حاتم.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ ـ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ »[1] رواه الترمذي وحسنه ، وصححه الحاكم .

وقال ابن مسعود : لأَنْ أَحْلِفُ بِالله كَاذِباً أَحَبُّ إِليَّ مِنْ أَنْ أحلفَ بِغَيْرِهِ صَادِقاً[2] .

....

الذي لا شك فيه . وقال مجاهد : ﴿ فَلا تَجْعَلوا لِلهِ أنداداً وأَنْتُم تَعْلَمونَ ﴾ قال : تعلمون أنه إله واحد في التوراة والانجيل.

قوله : (وعن ابن عباس في الآية : الآندادُ هو الشرْكُ أخْفى مِنْ دَبيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفاةٍ سَوْدَاء في ظُلْمَة اللَّيلِ) الخ . . وهذا من ابن عباس تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعلى.

قوله : (وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ حَلَفَ بِغيرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ ») يحتمل أن يكون شكًّا من الراوي ، ويحتمل أن تكون (أو) بمعنى الواو فيكون قد كفر وأشرك ويكونُ من باب كفر دون كفر.

قوله : (وقال ابن مسعود : لأنْ أحلِفَ بالله كاذِباً أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أحْلِفَ بِغَيْرِهِ

---

(١) الترمذي رقم (١٥٣٥) في النذور والايمان : باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله ، وأبو داود رقم (٣٢٥١) ، وأحمد في « المسند » ٢/٦٩ و٨٧ و ١٢٥ ، صححه الحاكم ٤/٢٩٧ وابن حبان رقم (١١٢٧) ، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وهو حديث صحيح كما قال الألباني في « الإرواء » رقم (٢٥٦١) .

(٢) قال الهيثمي في « المجمع » ٤/١٧٧ : رواه الطبراني في « الكبير » ورجاله رجال الصحيح ، وهو حديث صحيح كما قال الألباني في « الإرواء » رقم (٢٥٦٢) .

وعن حذيفة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « لا تَقُولُوا : مَا شَآءَ اللهُ وَشَآءَ فُلَانٌ ، وَلَكِنْ قُولُوا ؟ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَآءَ فُلَانٌ »[1] رواه أبـو داود بسند صحيح .

وجاء عن إبراهيم النخعي ، أنه يكره أن يقول : أعوذ بالله وبك ، ويجوز أن يقول : بالله ثم بك . قال : ويقول : لولا الله ثم فلان . ولا تقولوا : لولا الله وفلان .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية البقرة في الأنداد.

الثانية : أن الصحابة رضي الله عنهم يفسرون الآية النـازلة في الشـرك الأكبر بأنها تعم الأصغر .

صَادِقاً) ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذباً من الكبائر لكن الشرك أكبر من الكبائر وإن كان أصغر كما تقدم .

قوله : (وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا تَقولوا : ما شاءَ الله وشاءَ فُلانٌ ولٰكِنْ قولوا : مَا شَاءَ الله ثُمَّ شَاءَ فُلان) وذلك لأن العطف بالواو يقتضي المساواة لأنها في وضعها لمطلق الجمع بخلاف الفاء وثم ، وتسوية المخلوق بالخالق بكل نوع من العبادة شرك ، وهذا ونحوه من الشرك الأصغر .

قوله : (وعن إبراهيم النخعي أنه يكره أن يقول أعوذُ باللهِ وبكَ ويجوز أنْ يقولَ : باللهِ ثُمَّ بِكَ . قال : ويقول : لوْلا الله ثُمَّ فُلانٌ ، ولا تَقولـوا : لولا الله وفُـلانٌ) إبراهيم هـو النخعي ، وهذا فيما يقدر عليه الحي الحاضر بخلاف من ليس كذلك ممن لا يسمع كلاماً ولا يرد جواباً كالأموات والغائبين .

---

(١) رواه أبو داود رقم (٤٩٨٠) في الأدب : باب لا يقال خبثت نفسي ، وأحمد في « المسند » ٣٨٤/٥ ، والنسـائي في « عمل اليـوم والليلة » رقم (٩٨٥) ، وعنـه ابن السني رقم (٦٦٦) طبعـة دار البيـان بدمشق ، وهو حديث صحيح . انظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٣٧) .

الثالثة : أن الحلف بغير الله شرك .

الرابعة : أنه إذا حلف بغير الله صادقاً ، فهو أكبر من اليمين الغموس .

الخامسة : الفرق بين الواو و ثم في اللفظ .

* * *

٤٣ ـ باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

عن ابن عمـر رضي الله عنهما ، أن رسـول الله ﷺ قال : « لَا تَحْلِفُـوا بِآبَائِكُمْ ، مَنْ حُلِفَ لَهُ بالله فَلْيُصَدِّق ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِالله فَلْيَرْضَ . وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ الله » رواه ابن ماجه[1] بسند حسن .

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن الحلف بالآباء .

باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

قوله : (لا تَحْلِفوا بِآبائِكُم) تقدم أنه لا يجوز الحلف بغير الله في حق كل أحد .

قوله : (مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فلْيَصْدُقْ) وهذا مما أوجبه الله على عباده قال تعالى : ﴿ **يا أَيُّها الَّذينَ آمنوا اتَّقوا الله وَكُونوا مَعَ الصَّادِقينَ** ﴾ وقال : ﴿ **إنَّما يَفْتَري الكَذِبَ الذين لا يُؤْمِنُونَ بآياتِ اللهِ** ﴾ .

قوله : (وَمَنْ حُلِفَ لهُ بِاللهِ فَلْيَـرْضَ ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ) هـذا من حق المسلم على المسلم أن يقبل منه إذا حلف له متعذراً ، والحديث يدل على الوجوب ، ومن حقه عليه أن يحسن به الظن إذا لم يتبين كذبه كما في الأثر عن عمر : (ولا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أخيكَ شَرًّا وأنْتَ تَجدُ لَها في الخَيرِ مَحمـلًا) وهو من حسن الخلق ومكـارم الأخلاق وكمال العقل وقوة الدين .

---

(١) رقم (٢١٠١) في الكفارات : باب من حلف له بالله فليرض ، وهو حديث صحيح ، كما قال الألباني في « الإرواء » رقم (٢٦٩٨) .

الثانية الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى .

الثالثة : وعيد من لم يرض .

* * *

٤٤ - باب قول ما شاء الله وشئت

عن قتيلة ، أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال : إنكم تشركون ، تقولون : ما شاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة ، فَأَمَرَهُم النَّبِيُّ ﷺ إذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا : « وَرَبِّ الكَعْبَةِ ، وَأَنْ يَقُولُوا : مَا شَآءَ الله ثُمَّ شِئْتَ »(١) رواه النسائي وصححه .

باب قول ما شاء الله وشئت

قوله : (قتيلة) بمثناة ، بنت صيفي الأنصارية صحابية مهاجرة لها حديث في سنن النسائي وهو المذكور في الباب ورواه عنها عبد الله بن يسار الجعفي ، وفيه قبول الحق ممن جاء به ، وفيه بيان النهي عن الحلف بالكعبة وغيرها مع أنها بيت الله التي حجها وقصدها بالحج والعمرة فريضة ، وأنت ترى ما وقع مما يخالف ذلك من الحلف بالكعبة ودعائها وكذا مقام إبراهيم ، وقلّ من يسلم من هذا ممن يحج من أهل الآفاق وأهل مكة كما كان يفعل بغيرها ، والكعبة عظمها الله بأن جعل حجها ركناً من استطاع ، وشرع العبادة عندها ، وخصها بالفضل ، فالمشروع إنما هو الطواف بها والصلاة اليها لا الحلف بها ونحوه من الشرك في العبادة : ﴿ فَبَدَّلَ الذينَ ظَلموا قَوْلاً غَيرَ الذي قيلَ لهمْ ﴾ .

---

(١) قال الألباني في « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٣٦) : أخرجه الطحاوي في « المشكل » ١/ ٣٥٧ والحاكم ٤/ ٢٩٧ والبيهقي ٣/ ٢١٦ وأحمد ٦/ ٣٧١ - ٣٧٢ من طريق المسعودي عن سعيد بن خالد عن عبد الله بن يسار عن قتيلة بنت صيفي امرأة من جهينة قالت : . . . وقال الحاكم صحيح الاسناد ووافقه الذهبي .

قلت (الألباني) : المسعودي كان اختلط ، لكن تابعه مسعر عن معبد بن خالد به ، أخرجه النسائي ٧/ ٦ باسناد صحيح ، ولعبد الله بن يسار حديث آخر نحو هذا . ا هـ .

وانظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٣٧) .

وله أيضاً عن ابن عباس : أن رجلاً قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت ، فقال : « أَجَعَلْتَني لله نِداً ، بَلْ مَا شَآءَ الله وَحْدَهُ »[1] .

ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قالت : رأيت كأني أتيتُ على

....

قوله : (إنكُمْ تشْرِكونَ ، تقولونَ ما شاءَ الله وَشِئْتَ) والعبد وإن كانت له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله كما قال الله تعالى : ﴿ وَما تَشاءُونَ إلاَّ أنْ يَشاءَ الله رَبُّ العَالَمينَ ﴾ وفي هذه الآية والحديث الرد على القدرية والمعتزلة نفاة القدر الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله من العبد وما شاءه ، وقد قال تعالى : ﴿ إنَّا كلَّ شيءٍ خَلَقناهُ بِقَدَرٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ كلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْديراً ﴾ وفي الحديث « أوَّلُ ما خَلَقَ الله القَلَمَ فقالَ لَهُ : اكْتُبْ، فَجَرى بِما هُوَ كائنٌ الى يوْمِ القِيامَةِ »[2] وهو في الصحيحين وغيرهما .

قوله : (وله أيضاً عن ابن عباس أن رجلاً قال للنبي ﷺ : مَا شَاء الله وشِئْتَ فقال : « أجَعَلْتَني لِلهِ ندًّا ؟ بلْ مَا شَاءَ الله وحْدَهُ ») . هذا يبين ما تقدم من أن هذا شرك لأن المعطوف بالواو يساوي المعطوف بالمعطوف عليه لأن الواو وضعت لمطلق الجمع فلا يجوز أن يجعل المخلوق مثل الخالق في شيء من الالٰهية والربوبية ولو في أقل شيء كما تقدم في الرجلين اللذين قرب أحدهما ذباباً للصنم فدخل النار ، وفيه أن النبي ﷺ حَمَى حِمَى التوحيد وسدّ طرق الشرك في الأقوال والأعمال .

قوله : (عن الطفيل) هو الطفيل بن عبد الله بن سخبرة أخو عائشة لأمها له حديث عند ابن ماجه وهو ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى في الباب ، وهذه الرؤيا حق أقرها

---

(١) البخاري في « الأدب المفرد » رقم (٧٨٧) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » رقم (٩٨٨) وعنه ابن السني رقم (٦٦٧) طبعة دار البيان بدمشق ، بلفظ « أجعلتني لله عدلاً » ، وأحمد في « المسند » ١/٢١٤ و٢٨٣ و٣٤٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، ورواه ابن ماجه رقم (٢١١٧) في الكفارات : باب النهي أن يقال : ما شاء الله وشئت ، بلفظ « إذا حلف أحدكم فلا يقل ما شاء الله وشئت ، ولكن ليقل : ما شاء الله ثم شئت » وهو حديث حسن ، وروايته بلفظ « اجعلتني لله نداً » من رواية ابن مردويه ، والمعنى واحد . انظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٢٩) .

(٢) أحمد في « المسند » ٥/٣١٧ ، وأبو داود رقم (٤٧٠٠) في السنة : باب في القدر ، والترمذي رقم (٣٣١٦) في تفسير سورة ﴿ ن والقلم ﴾ ، ورقم (٢١٥٦) في القدر ، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه . وهو حديث صحيح . ولم أجده في « الصحيحين » كما قال المصنف رحمه الله تعالى .

نفر من اليهود ، قلت : إنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : عزيزٌ ابن الله . قالوا : وأنتم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد ، ثم مررتُ بنفر من النصارى : فقلت : إنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : المسيح ابن الله . قالوا : وأنتم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد ، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته . قال : « هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحداً ؟ » قلت : نعم . قال : فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ طُفَيْلاً رَأَىٰ رُؤْيَا ، أَخْبَرَ بِهَا مَنَ أَخْبَرَ مِنكُمْ ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُني كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا . فَلَا تَقُولُوا : مَا شَآءَ الله وَشَآء مُحَمَّدٌ ، وَلَكِنْ قُولُوا : مَا شَآءَ الله وَحْدَهُ »(١) .

....

رسول الله ﷺ وعمل بمقتضاها فنهاهم أن يقولوا : ما شاء الله وشاء محمد وأمرهم أن يقولوا : ما شاء الله وحده ، وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين وأنذر عن الشرك وحذر عن قليله وكثيره، فانظر الى ما وقع من الشرك العظيم في هذه الأمة ينادون الميت من مسافة شهر أو شهرين أو أكثر ، ويعتقدون فيه أنه ينفع ويضر ويسمع ويستجيب من تلك المسافة ، وجعلوا الأموات شركاء لله في الملك والتدبير وعلم الغيب وغير ذلك من خصائص الربوبية ، وتركوا نبيهم وما جاء به وقاله وما نهي عنه كأنهم لم يسمعوا كتاباً ولا سنة ، وقد بعثه الله بالنهي عن الشرك كما ترى ، فما زال يدعو الناس الى توحيد الله وإخلاص العبادة له حتى أكمل الله لهم به الدين وأتم عليهم النعمة ، لكن رجعوا من الكمال الى الضلال ومن سبيل النجاة إلى سبيل الهلاك ، وهذه وإن كانت رؤيا منام فقد أقرها رسول الله ﷺ وأخبر أنها حق .

---

(١) رواه ابن ماجه رقم (٢١١٨) في الكفارات : باب النهي أن يقال ما شاء الله وشئت ، من حديث الطفيل ابن سخبرة أخي عائشة لأمها ، ومن حديث ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن رجلاً من المسلمين رأى في النوم أنه لقى رجلاً من أهل الكتاب فقال : نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون ، تقولون ما شاء الله وشاء محمد ، وذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « أما والله إن كنت لأعرفها لكم ، قولوا : ما شاء الله ثم شاء محمد » ، وأحمد ٥/١٩٣ من حديث حذيفة رضي الله عنه . والدارمي رقم (٢٧٠٢) من حديث الطفيل بن سخبرة أخي عائشة لأمها ، وهو حديث صحيح كما قال الألباني في « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٣٧ ـ ١٣٨) .

فيه مسائل :

الأولى : معرفة اليهود بالشرك الأصغر .
الثانية : فهم الانسان إذا كان له هوى .
الثالثة : قوله ﷺ : « أجعلتني لله نداً ؟ » فكيف بمن قال:
يا أَكرَمَ الخلقِ ما لي من أَلوذ بـه   سواك عِنْدَ حُلُوْلِ الحادِثِ العَمِمِ
والبيتين بعده ؟
الرابعة : أن هذا ليس من الشرك الأكبر ، لقوله : « يمنعني كذا وكذا » .
الخامسة : أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي .
السادسة : أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام .

* * *

٤٥ - باب من سب الدهر فقد آذى الله

وقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ الآية [الجاثية: ٢٤].

في « الصحيح » عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « قَالَ الله تَعَالَىٰ :

قوله : (باب من سب الدهر فقد آذى الله . وقول الله تعالى : ﴿ وقَالوا مَا هِيَ إلاّ حَياتُنا الدُّنْيا نموتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إلاّ الدَّهْرُ ﴾) قال العماد ابن كثير في تفسيره : يخبر الله تعالى عن دهرية الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد وقَالوا ﴿ مَا هي إلاَّ حيَاتُنا الدُّنيا نَموتُ ونَحْيا ﴾ أي ما ثَمَّ إلا هذه الدار يموت قوم ويعيش آخرون ولا ثَمَّ معاد ولا قيامة ، وهذا يقوله مشركوا العرب المنكرون للمعاد ، ويقوله الفلاسفة الالهيون منهم وهم ينكرون البداءة والرجعة ، ولهذا قال عنهم ﴿ ومَا يُهْلِكُنا إلاّ الدَّهْرُ ﴾ قال سبحانه : ﴿ ومَا لهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إنْ هُمْ إلاَّ يَظُنُّونَ ﴾ أي يتوهمون ويتخيلون .

قوله : (عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قَالَ الله تعالى : ﴿ يُؤْذيني ابْنُ آدَمَ

يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ ، يَسُبُّ الدَّهْرَ ، وَأَنَا الدَّهْرُ ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ » .

وفي رواية : « لَا تَسِبُّوا الدَّهْرَ ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»[1] .

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن سب الدهر .

الثانية : تسميته أذى لله .

يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ ﴾ وفي رواية « لا تَسُبُّوا الدهرَ فان الله هو الدَّهرُ ») قال في شرح السنة : حديث متفق على صحته أخرجاه من طريق معمر من أوجه عن أبي هريرة قال : ومعناه أن العرب كانت من شأنها ذمّ الدهر وسبّه عند النوازل لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره فيقولون : أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر ، فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها ، فكان مرجع سبها الى الله عز وجل إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يصفونها فنهوا عن سب الدهر، انتهى باختصار ، ونسبة الفعل الى الدهر ومسبته كثيرة في أشعار المولدين كابن المعتز والمتنبي وغيرهما ، وليس منه وصف السنين بالشدة لقوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ يَأْتي مِنْ بَعْدِ ذلكَ سَبْعٌ شِدادٌ** ﴾ الآية . قال بعض الشعراء :

إن الليالي من الزمان مهولة ... تُطْوَى وَتُنْشَرُ بينها الاعمارُ
فقصارهن مع الهموم طويلة ... وطوالهن مع السرور قصارُ

وقال أبو تمام :

أعوام وصل كاد ينسى طُيبها ... ذكر النوى فكأنها أيام
ثم انبرت أيام هجر أعقبت ... نحوى أسى فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها ... فكأنها وكأنهم أحلام

---

(١) البخاري رقم (٤٨٢٦) في التفسير : تفسير سورة الجاثية ، ورقم (٦١٨١) في الأدب : باب لا تسبوا الدهر ، ورقم (٧٤٩١) في التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ يريدون ان يبدلوا كلام الله ﴾ ، ومسلم رقم (٢٢٤٦) . (٢) في الألفاظ من الأدب : باب النهي عن سب الدهر ، وأحمد ٢٣٨/٢ و ٢٧٢ ، والرواية الثانية رواها مسلم رقم (٢٢٤٦) (٥) في الألفاظ : باب النهي عن سب الدهر ، وأحمد في « المسند » ٣٩٥/٢ و ٤٩١ و ٤٩٦ و ٤٩٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الثالثة : التأمل في قوله : « فإن الله هو الدهر » .

الرابعة : أنه قد يكون ساباً ولو لم يقصده بقلبه .

* * *

٤٦ ـ باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

في « الصحيح » عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ الله : رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاَكِ ، لاَ مَالِكَ إِلَّا الله » . قال سفيان : مثل « شاهٍ شاه ». وفي رواية : أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه »[1].

قوله : « أخنع » يعني أوضع .

باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

قوله : في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عندَ الله رَجُلٌ تَسَمِّي مَلِكَ الأَمْلاكِ لا مَالِكَ إلَّا الله » لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله فهو ملك الأملاك لأنه هو الملك في الحقيقة له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير يتصرف في الملوك وغيرهم بمشيئته وإرادته كما قال تعالى : ﴿ قُلِ اللّهُمَّ مالكَ المُلْك تُؤْتي المُلْكَ مَنْ تشاءُ وَتنزِعُ المُلْكَ ممنْ تشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تشاءُ بِيَدِكَ الخَيرُ ﴾ الآية ، فلا ينبغي أن يعظم المخلوق بما يشبه ما يعظم به الخالق جل وعلا ، وما كان مثل ذلك فينهي عنه كالذي ترجم به المصنف ، لأنه لا يصدق هـذا المعنى إلا على الله ، فلا يصلح أن يسمى بـه المخلوق ، لأن كل لفظ يقتضي التعظيم والكمال لا يكون إلا له تعالى وتقدس دون غيره .

قوله : (قال أبو سفيان : مثل شاهان شاه) عند العجم عبارة عن ملك الأملاك ولهذا مثل به سفيان . قوله : (وفي رواية : أَغْيَظُ رَجُـلٍ عَلَى اللهِ) أغيظ من الغيظ وهو مثـل الغضب والبغض فيكون بغيضاً إلى الله مَغضوباً عليه وهذا من الصفات التي تمر كما جاءت من غير تحريف ولا تأويل ولا تشبيه ولا تمثيل والله أعلم .

---

(١) البخاري رقم (٦٢٠٥ ـ ٦٢٠٦) في الأدب : باب أبغض الأسماء إلى الله تعالى ومسلم رقم (٢١٤٣) =

الأولى : النهي عن التسمي بملك الأملاك .

الثانية : أن ما في معناه مثله ، كما قال سفيان .

الثالثة : التفطن للتغليظ في هذا ونحوه ، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه .

الرابعة : التفطن أن هذا لإجلال الله سبحانه .

* * *

٤٧ ـ باب احترام أسماء الله تعالى ، وتغيير الاسم لأجل ذلك

عن أبي شريح : أنه كان يكْنى أبا الحكَم ؛ فقال له النبي ﷺ « إنَّ الله هُوَ

....

قوله : (وأخْبَثُهُ) وهو يدل أيضاً على أن هذا خبيث عند الله إذا رضي بذلك لتعظيم الناس له بما لا يستحقه وعدم إنكاره وكراهته لذلك .

قوله : (« أخنع » يعني أوضع) وهذا المذكور ينافي كمال التوحيد الذي دلت عليه كلمة الاخلاص فيكون فيه شائبة من الشرك وإن لم يكن أكبر .

باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك

قوله : (عن أبي شريح) هو الخزاعي اسمه خويلد بن عمرو وأسلم يوم الفتح ، له عشرون حديثاً اتفقا على حديثين وانفرد البخاري بحديث . وعنه أبو سعيد المقبري ونافع بن جبير وطائفة ، قال ابن سعد : مات بالمدينة سنة ثمان وستين .

قوله : (يُكنْى) الكنية ما صدر بأب أو أم ونحو ذلك كأبي محمد ، واللقب ما ليس كذلك كزين العابدين .

= في الآداب : باب التحريم التسمي بملك الأملاك وبملك الملوك ، ورواه أبو داود رقم (٤٩٦١) في الأدب : باب ما يكره من الأسماء ، وأحمد في « المسند » ٢/٢٤٤ .

الحَكَمُ ، وَإِلَيْهِ الحُكْمُ » فقال : إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني ، فحكمت بينهم ، فرضي كلا الفريقين ، فقال : « مَا أَحْسَنَ هٰذَا ! فَمَالَكَ مِنَ الوُلْدِ ؟ » قلت : شُرَيْحٌ ، وَمُسْلِمٌ ، وعَبْدُ الله . قال : « فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ ؟ » قلت : شُرَيْحٌ . قال : « فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ »[1] . رواه أبو داود وغيره .

وقوله(ﷺ : « إنَّ الله هُوَ الحَكَمُ وإليه الحُكْمُ ») أي هو سبحانه الحكم في الدنيا والآخرة يحكم بين خلقه في الدنيا بوحيه الذي أنزله على أنبيائه ورسله ، وما من قضية إلا وله فيها حكم مما أنزله على نبيه من الكتاب والحكمة لكن قد يخفى على المجتهد ، فإن المجتهدين وإن اختلفوا في بعض الأحكام فلابد أن يكون المصيب فيهم واحداً ، فمن رزقه الله قوة الفهم وأعطاه ملكة يقتدر بها على فهم الصواب من أقوال العلماء أدرك ما هو الصواب من ذلك .

وقوله : (إليه الحكم) في الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ وَما اخْتَلَفْتُمْ فيهِ مِنْ شَيءٍ فحُكْمُهُ إلى الله ﴾ وقال : ﴿ فإنْ تنازَعْتُم في شَيءٍ فرُدُّوهُ إلى اللهِ وَالرَّسول ﴾ الآية . فالحكم إلى الله هو الحكم إلى كتابه ، والحكم إلى رسوله هو الحكم إليه في حياته ، وإلى سنته بعد وفاته .

قوله : (فقال : إنَّ قَوْمي إذا اخْتَلفوا في شيءٍ أَتَوْني فحَكَمْتُ بيْنَهُم فرَضِيَ كِلا الفَريقَينِ) والمعنى ـ والله أعلم ـ أن أبا شريح كان مرضياً عندهم يتحرى ما يصلحهم إذا اختلفوا فيرضون صلحه فسموه حكماً وأمّا ما يحكم به الجهلة من الأعراب ونحوهم من سوالف آبائهم وأهوائهم فليس من هذا الباب لما فيه من النهي الشديد والخروج عن حكم الله ورسوله إلى ما يخالفه كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحكُمْ بِما أَنْزَلَ آلله فأُولٰئِكَ هُمُ الكافِرونَ ﴾ وهذا كثير فمن الناس من يحكم بين الخصمين برأيه وهواه ، ومنهم من يتبع في ذلك سلفه ويحكم بما كانوا يحكمون به ، وهذا كفر إذا استقر وغلب على من تصدى لذلك ممن يرجع الناس إليه إذا اختلفوا .

---

(١) رواه أبو داود رقم (٤٩٥٥) في الأدب : باب في تغيير الاسم القبيح ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٨١١) والنسائي ٢٢٦/٨ في آداب القضاء : باب إذا حكموا رجلاً فقضى بينهم ، والبيهقي ١٤٥/١٠ ، والحاكم ٢٧٩/٤ ، واسناده جيد . « الإرواء » رقم (٢٦١٥) .

فيه مسائل :

الأولى : احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناه .

الثانية : تغيير الاسم لأجل ذلك .

الثالثة : اختيار أكبر الأبناء للكنية .

* * *

٤٨ ـ باب

من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول ﷺ فهو كافر

وقول الله تعالى : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ** ﴾ [التوبة : ٦٥] .

عن ابن عمر ، ومحمد بن كعب ، وزيد بن أسلم ، وقتادة ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ : أنه قال رجل في غزوة تبوك : ما رأينا مثل قُرَّائِنا هؤلاء ، أرغبَ بطوناً ، ولا أكذب أَلْسُناً ، ولا أجبن عند اللقاء ـ يعني رسول الله ﷺ

قوله ﷺ : (فَما لكَ مِنَ الوَلدِ ، قال : شُرَيحٌ وَمُسْلِمٌ وعبدُ الله . قالَ : فَمنْ أكبرُهُمْ ؟ قلتُ : شُرَيحٌ . قال فأنْتَ أبو شُرَيحٍ) فكناه بالكبير وهو السنة وغيّر كنيته بأبي الحكم ، لأن الله هو الحكم على الاطلاق ، ومنه تسمية الأئمة بالحكام ، فينبغي ترك ذلك والنهي عنه لهذا الحديث ، وهذا قد حدث في الناس قريباً .

قوله : (باب من هَزَلَ بشيءٍ فيه ذِكْرُ اللهِ أو القرآن أو الرَّسول) أي فقد كفر « وقول الله تعالى : ﴿ **وَلئِنْ سَأَلتَهُم ليَقولُنَّ إنَّما كُنَّا نخوضُ ونَلْعَبُ** ﴾ الآية » قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره : قال أبو معشر المدني عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا : قال رجل من المنافقين : « ما أرى قُرَّاءَنا هٰؤلاءِ إلّا أرْغَبَنا بُطوناً ، وَأكْذَبَنا ألْسِنَةً ، وَأَجْبَنَنا عِنْدَ

وأصحابه القرّاء ـ فقال له عَوْفُ بن مالك : كذبتَ ، ولكنكَ منافق ، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ . فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه . فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله ! إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب ، نقطع به عنا الطريق . فقال ابن عمر : كأني أنظر إليه متعلقاً بِنِسْعَةِ ناقَةِ رسول الله ﷺ ، وإن الحجارة تَنْكَبُ رجليه ـ وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب ـ فيقول له رسول الله ﷺ : ﴿ **أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ ؟** ﴾ ما يلتفت اليه وما يزيده عليه .

فيه مسائل :

الأولى : وهي العظيمة : أن من هزل بهذا فهو كافر .

الثانية : أن هذا هو التفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنا من كان .

الثالثة : الفرق بين النميمة والنصيحة لله ولرسوله .

اللِّقاءِ » فرفع ذلك لرسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته فقال : يا رسول الله ﴿ **إنما كنَّا نخوضُ وَنَلْعَبُ** ﴾ فقال : ﴿ **أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئونَ ؟** ﴾ إلى قوله ﴿ **مجرمين** ﴾ وإنَّ رِجْلَيْهِ لَيَنْسِفانِ الحجارَةَ وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ ، وهو متعلق بِنِسْعَةِ ناقةِ رسول الله ﷺ .

قوله : ﴿ **لَا تَعْتَذِروا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ** ﴾ أي بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿ **إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً** ﴾ أي لا يعفي عن جميعكم ولا بد من عذاب بعضكم بأنهم كانوا مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة انتهى ، وقال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى وقد أمره الله أن يقول : ﴿ **قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ** ﴾ وقول من يقول إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أوّلا بقلوبهم لا يصح لأن الايمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر، فلا يقال قد كفرتم بعد إيمانكم، فانهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أريد: إنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الايمان . فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم وهم مع خواصهم ما زالوا كذلك ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين ، اهـ . وفيه بيان أن الانسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به وأشدها خطراً إرادات القلوب فهي كالبحر الذي لا ساحل له ومن هذا الباب الاستهزاء بالعلم وأهله وعدم احترامهم لأجله .

الرابعة : الفرقة بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله .

الخامسة : أن من الأعذار ما لا ينبغي أن يقبل .

* * *

٤٩ ـ باب [التحدث بنعمة الله تعالى وذم جحدها]

ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾ الآية [فصلت: ٥٠].

قال مجاهد : هذا بعملي وأنا محقوق به . وقال ابن عباس : يريد من عندي .

وقوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُه عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص: ٧٨] . قال قتادة : على علم مني بوجوده المكاسب . وقال آخـرون : على علم من الله أني له أهل . وهذا معنى قول مجاهد : أوتيته على شرف .

....

قوله : « باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَلئن أَذَقْنَاهُ رَحمةً مِنَّا مِنْ بعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ليقولن هذا لي ﴾ الآية » ذكر المصنف رحمه الله تعالى عن ابن عباس وغيره من المفسرين في هذه الآية ما يكفي ويشفي في المعنى قال : « قال مجاهد : هذا بعملي وأنا محقوق به ، وقال ابن عباس : يريد من عندي » .

وقوله : « ﴿ قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدي ﴾ قال قتادة : . . . » ، الخ وليس ما ذكروه اختلافاً وانما هو أفراد المعنى .

قوله : « وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ ثَلاثَةً مِنْ بَني إِسْرائيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمى . فأَرادَ آللهُ أَنْ يَبْتَليَهُمْ فَبعثَ إِلَيْهِمْ مَلَكاً . . » الحديث .

وهذا حديث عظيم يبين حال من كفر النعم وحال من شكرها ، قال ابن القيم : أصل الشكر هو الاعتراف بانعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلا بها لم يشكرها ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضاً ، ومن عرف

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ : أَبْرَصَ ، وَأَقْرَعَ ، وَأَعْمَىٰ . فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِم مَلَكاً ، فَأَتَىٰ الأَبْرَصَ ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : لَوْنٌ حَسَنٌ ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ قَالَ : فَمَسَحَهُ ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ ، وَأُعْطِيَ لَوْناً حَسَناً وَجِلْداً حَسَناً . قَالَ : فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الإِبِلُ - أَوْ البَقَرُ - شَكَّ إِسْحَاقُ إِلَّا أَنَّ الأَبْرَصَ أَو الأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا : الإِبِلُ وَقَالَ الآخَرُ : البَقَرُ قَالَ : فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءُ ، وَقَالَ : بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا .

قَالَ : فَأَتَىٰ الأَقْرَعَ ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : شَعْرٌ حَسَنٌ ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَذِرَنِي النَّاسُ قَالَ : فَمَسَحَهُ ، فَذَهَبَ عَنْهُ ، وَأُعْطِيَ شَعْراً حَسَناً . فَقَالَ : أَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : البَقَرُ ، أَوْ الإِبِلُ ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً قَالَ : بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا . قال : .

فَأَتَىٰ الأَعْمَىٰ ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي ؛ فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ ، قَالَ : فَمَسَحَهُ ، فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ ، قَالَ : فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الغَنَمُ ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِداً ؛ فَأَنْتَجَ هٰذَانِ وَوَلَّدَ هٰذَا .

قَالَ : فَكَانَ لِهٰذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ ، وَلِهٰذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ ، وَلِهٰذَا وَادٍ مِنَ الغَنَمِ .

قال : ثُمَّ إِنَّهُ أَتَىٰ الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ : رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ

النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم فقد كفرها ، ومن عرف النعمة والمنعم وأقر بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع له ويحبه ويرضى به وعنه لم يشكرها أيضاً ، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقر بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضي عنه واستعملها في محابه وطاعته فهذا هو الشاكر لها ، فلا بد في الشكر من علم القلب وعمل يتبع العلم وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له ، ا هـ.

قوله : (قذِرَني النَّاسُ به) أي بكراهة رؤيته وقربه منهم.

سَبِيلٍ ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِي الحِبَالُ فِي سَفرِي ، فَلا بَلاَغَ لِي اليَوْمَ إِلَّا باللهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ ، وَالجِلْدَ الحَسَنَ ، وَالمَالَ ، بَعِيراً أَتبَلَّغُ بِهِ فِي سَفرِي ، فَقَالَ : الحُقُوقُ كَثِيرَةٌ . فَقَالَ لَهُ : كَأَنِّي أَعْرِفُكَ ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يُقَذِّرُكَ النَّاسُ ، فَقِيراً ، فَأَعْطَاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَ المَالَ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا وَرِثْتُ هٰذَا المَالَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ ، فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَىٰ مَا كُنْتَ .

قَالَ : أَتى الأَقْرَعَ في صُورَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهٰذا ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْل مَا رَدَّ عَلَىٰ هٰذَا ، فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَىٰ مَا كُنْتَ .

وَأَتَى الأَعْمَىٰ فِي صُورِتِهِ ، وَهَيْئَتِهِ فَقَالَ : رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِي الحِبَالُ فِي سَفَرِي ، فَلا بَلاغَ لِي اليَوْمَ إِلَّا باللهِ ثُمَّ بِكَ . أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي . فَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَعْمَىٰ فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي ، فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ ، فَواللهِ لاَ أَجْهَدُكَ اليَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ للهِ . فَقَالَ : أَمْسِكْ مَالَكَ ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ ، وَسَخِطَ عَلَىٰ صَاحِبَيْكَ »(١) أخرجاه .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآية .

الثانية : ما معنى : ﴿ لَيَقُولَنَّ هٰذَا لِي ﴾ [فصلت: ٥٠] .

---

(١) البخاري رقم (٣٤٦٤) في أحاديث الأنبياء : باب حديث أبرص وأقرع وأعمى ورقم (٦٦٥٣) في الأيمان والنذور : باب لا يقول ما شاء الله وشئت ، ومسلم رقم (٢٩٦٤) في الزهد والرقائق وفي الحديث الحث على الرفق بالضعفاء وإكرامهم وتبليغهم ما يطلبون مما يمكن ، والحذر من كسر قلوبهم واحتقارهم ، وفيه التحدث بنعمة الله تعالى وذم جحدها .

قال الحافظ في « الفتح » ٦/٥٠٣ : وفي الحديث جواز ذكر ما اتفق لمن مضى ليتعظ به من سمعه ، ولا يكون ذلك غيبة فيهم ، ولعل هذا هو السر في ترك تسميتهم ، ولم يفصح بما اتفق لهم بعد ذلك ، والذي يظهر أن الأمر فيهم وقع كما قال الملك . وفيه التحذير من كفران النعم والترغيب في شكرها والاعتراف بها وحمد الله عليها . وفيه فضل الصدقة والحث على الرفق بالضعفاء وإكرامهم وتبليغهم مآربهم . وفيه الزجر عن البخل ، لأنه حمل صاحبه على الكذب وعلى جحد نعمة الله تعالى . اهـ .

الثالثة : ما معنى قوله ﴿ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص: ٧٨] .
الرابعة : ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة .

* * *

٥٠ ـ باب [تحريم كل اسم معبَّدٍ لغير الله]

قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَـاهُمَا ﴾ الآيـة [الأعراف: ١٩٠] .

قوله : (باب قول الله تعالى : ﴿ فلمَّا آتاهُما صَالِحاً جَعَلا لهُ شُركاءَ فيمـا آتاهُمـا فتَعالى ٱلله عَمَّا يُشْرِكون ﴾ قال الامام أحمد رحمه الله تعالى في معنى هذه الآية : حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتاده [عن الحسن] عن سمرة عن النبي ﷺ قال : « لمّا وَلَدَتْ حَوَّاءُ طَافَ بِها إبْليسُ وَكـانَ لا يَعيشُ لها وَلـدٌ فقالَ : سميـه عَبْدَ الحَـارِثِ فإنَّـهُ يَعيشُ فَسَمَّتْهُ عَبْدَ الحَارِثِ فعاشَ ، فكانَ ذٰلكَ مِنْ وَحْي الشَّيْطانِ وَأَمْرِهِ »)[1] وقال ابن جرير : حدثنا ابن

---

(١) قال الألباني في « الأحاديث الضعيفة » رقم (٣٤٢) :

ضعيف : أخرجه الترمذي رقم (٣٠٧٩) والحاكم ٢/٥٤٥ و ابن بشران في « الأمالي » (٢/١٥٨) وأحمد (٥/١١) وغيرهم من طريق عمر بن ابراهيم عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب مرفوعاً ، وقال الترمذي : « حديث حسن غريب لا نعرفـه إلا من حديث عمـر بن ابراهيم عن قتـادة ، وقال الحاكم : صحيح الاسناد ووافقه الذهبي .

قلت : وليس كما قالوا ، فإن الحسن في سماعه من سمرة خلاف مشهور ، ثم هو مدلس ولم يصرح من سمرة وقال الذهبي في ترجمته من « الميزان » « كان الحسن كثير التدليس ، فإذا قال في حديث : « عن فلان » ضعف احتجاجه .

وما يبين ضعف هذا الحديث الذي فسر به قوله تعالى : ﴿ فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما . . . ﴾ الآية ، وأن الحسن نفسه فسر الآية بغير ما في حديثه هذا ، فلو كان عنـده صحيحاً مرفوعاً لما عدل عنه ، فقال في تفسيرها :

« كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم »، ذكر ذلك ابن كثير (٢/٢٧٤ ـ ٢٧٥) من طرق عنه ، ثم قال : « وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن أنه فسر الآية ، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية » وانظر تمام كلامه فإنه نفيس ، ونحوه في « التبيان في أقسام القرآن » (ص ٢٦٤) لابن القيم . ا هـ .

قال ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم معبَّد لغير الله ، كعبد عمر ، وعبد الكعبة ، وما أشبه ذلك ، حاشا عبد المطلب .

وعن ابن عباس في الآية قال : لما تغشَّاها آدم حملت : فأتاهما إبليس فقال : إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة ، لتطيعاني أو لأجعلنَّ له قرني أيّل ، فيخرج من بطنك فيشقه ، ولأفعلن ولأفعلن - يخوفهما - سمياه عبد الحارث ، فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتاً . ثم حملت ، فأتاهما ، فقال مثل قوله ، وأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتاً . ثم حملت ، فأتاهما ، فذكر لهما ، فأدركهما حب الولد ، فسمياه عبد الحارث فذلك قوله تعالى : ﴿ جَعَلَا لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾[1] رواه ابن أبي حاتم .

وكيع : حدثنا سهل بن يوسف عن عمر وعن الحسن ﴿ جَعلا لهُ شُركَاءَ فيما آتاهُما ﴾ قال : كان هذا في بعض الملل ولم يكن بآدم . وعن ابن عباس قال : كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فتعبدهم لله وتسميه عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت فأتاها إبليس وآدم فقال : أما إنكما لو تسمّيانه به لعاش فولدت رجلا فسمياه عبد الحارث ففيه أنزل الله تعالى : ﴿ هُوَ الذي خَلقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ إلى آخر الآية.

قوله : (قال ابن حزم) هو عالم الاندلس أبو محمد علي بن أحمد بن سعد بن حزم القرطبي الظاهري صاحب التصانيف توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة له اثنتان وسبعون سنة (اتفقوا على تحريم كلِّ اسمٍ مُعَبَّدٍ لغيرِ اللهِ كعبدِ عمرٍو وعبدِ الكعبةِ وما أشبه ذلك حاشا عبدَ المطَّلِبِ) قلت : وعبد المطلب هذا جد رسول الله ﷺ وهو ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وما فوق عدنان مختلف فيه ولا ريب أنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام . حكى رحمه الله اتفاق العلماء على تحريم كل ما عبد لغير الله لأنه شرك في الربوبية والالهية لأن الخلق كلهم ملك

---

(١) الترمذي رقم (٣٠٧٧) وأحمد في « المسند » ٥/ ١١ وصححه الحاكم ٢/ ٥٤٥ ، من حديث عمر بن ابراهيم عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب مرفوعاً ، وهو حديث ضعيف . ا هـ . مختصراً عن « الأحاديث الضعيفة » للألباني رقم (٣٤٢) . وانظر « تفسير ابن كثير » ٢/ ٢٧٤ .

وله بسند صحيح عن قتادة قال : شركاء في طاعته ، ولم يكن في عبادته . وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله : ﴿ لِئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً ﴾ [الأعراف: ١٨٩] قال : أشفقا أن لا يكون إنساناً . وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما .

فيه مسائل :

الأولى : تحريم كل اسم معبَّد لغير الله .

الثانية : تفسير الآية .

الثالثة : أن هذا الشرك في مجردة تسمية لم تقصد حقيقتها .

الرابعة : أن هبة الله للرجل البنت السوية ، من النعم .

الخامسة : ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة، والشرك في العبادة.

* * *

لله وعبيد له استعبدهم بعبادته وحده وتوحيده في ربوبيته وإلهيته ، فمنهم من عبد الله وحده في ربوبيته وإلهيته ، ومنهم من أشرك به في إلهيته وأقرّ له بربوبيته وأسمائه وصفاته ، وأحكامه القدرية جارية عليهم ولا بدّ كما قال الله تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً ﴾ فهذه العبودية العامة ، وأما العبودية الخاصة فانها تختص بأهل الاخلاص والطاعة كما قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ ونحوها .

قوله : (حَاشَا عَبْدَ المطَّلِبِ) . هذا استثناء من العموم لأنه ليس المقصود منه عبودية الرق ، وإنما هو اسم علق به لما أتى به عمه المطلب من عند أخواله بني النجار من المدينة وهو صبي فرأته قريش حين جاء به وقد تغير لونه من السفر فقالوا عبد المطلب ثم تبين لهم أنه ابن أخيه هاشم فصارت العبودية في هذا الاسم لا حقيقة لها ولا قصد ، لكن غلب عليه فصار لا يسمى إلا به وإلاَّ فاسمه في الأصل شيبة وقد صار عبد المطلب معظماً في قريش والعرب فهو سيد قريش وأشرفهم في جاهليته وهو الذي حفر زمزم ، وما جرى له في حفرها مذكور في السير وكتب الحديث وصارت السقاية له وفي ذريته . قال شيخنا في معنى قوله : (فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لهُ شُرَكَاءَ فيما آتاهُما) : إنَّ هذا الشرك بمجرد تسميته لم يقصدا حقيقته التي أرادها إبليس وهذا يزيل الاشكال ، وهذا معنى قول قتادة (شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته) .

٥١ ـ باب [دعاء الله بأسمائه الحسنى وترك من عارض من الجاهلين الملحدين]

قول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

قوله : « باب قول الله تعالى : ﴿ ولِلهِ الاسْماءُ الحسْنى فَادْعوهُ بها ﴾ » الآية .

أراد رحمه الله تعالى بهذه الترجمة الرد على من يتوسل بذوات الأموات وأن المشروع هو التوسل بالأسماء والصفات والأعمال الصالحة وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن لِله تسْعَةً وتِسْعين اسْماً منْ أحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ وَهُوَ وتر يُحِبُّ الوَتْرَ »(١) أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان .

وأخرجه الجرجاني عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب بسنده مثله وزاد بعد قوله يحب الوتر : هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمٰن ، الرحيم ، الملِك ، القُدُّوس ، السَّلام ، المؤْمِن ، المهيمن ، العزيز ، الجبَّار ، المتكبِّر ، الخالق ، البارىء ، المصوِّر ، الغفَّار ، القهَّار ، الوهَّاب ، الرزَّاق ، الفتَّاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعزّ ، المذلّ ، السميع ، البصير ، الحكَم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العليّ ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الوليّ ، الحميد ، المحصي ، المبدىء ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحيّ ، القيوم ، الواحد ، الأحد ، الماجد ، الفرد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ، المتعالي ، البَرّ ، التوّاب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغْني ، المعطي ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور »(٢).

---

(١) البخاري رقم (٦٤١٠) في الدعوات : باب لله عز وجل مائة اسم غير واحد ، ومسلم رقم (٢٦٧٧) في الذكر والدعاء : باب في اسماء الله تعالى وفضل من أحصاها.

(٢)الترمذي رقم (٣٥٠٢) وابن ماجه رقم (٣٨٦١) من رواية الأعرج عن أبي هريرة مرفوعاً ، وسنده ضعيف

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ **يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ** ﴾ : يشركون . وعنه : سموا اللات من الإلّه ، والعزّى من العزيز ، وعن الأعمش : يدخلون فيها ما ليس منها .

....

ثم قال الترمذي ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء الحسنى إلا في هذا الحديث ، والذي عند بعض الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج ، هذا ما ذكره العماد ابن كثير في تفسيره ثم قال : ليعلم أن الأسماء ليست منحصرة في تسعة وتسعين بدليل ما رواه أحمد عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبي سلمة الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال : « ما أَصابَ أَحَداً قَطُّ هَمٌّ وَلا حَزَنٌ فقالَ اللَّهُمَّ إنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ أَمَتِكَ ، ناصِيَتي بِيَدِكَ ، مَاضٍ فيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فيَّ قَضاؤُكَ ، أَسْأَلُكَ بِكلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ في كِتابِكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ في عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ ، أن تَجْعَلَ القُرْآنَ العَظيمَ رَبيعَ قَلْبي وَنورَ صَدْري ، وَذَهابَ حَزْني وَجَلاءَ هَمِّي وَغَمِّي ، إلَّا أَذْهَبَ الله هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكانَهُ فَرَحاً » فقيلَ يا رَسولَ الله أَلا نَتَعَلَّمَها ؟ فقالَ : « بَلى يَنْبَغي لِمَنْ سَمِعَها أَنْ يَتَعَلَّمَها »[1] وقد أخرجه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ **وَذَروا الذين يُلْحِدونَ في أَسْمائِهِ** ﴾ قال : يُشرِكونَ . وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : الالحاد : التكذيب .

قلت : والشرك تكذيب من المشرك لما أنزله الله في كتابه وبعث به رسوله كما جرى من قريش وغيرهم مع النبي ﷺ وأصحابه ، وكما جرى من المشركين من هذه الأمة فلم يأخذوا بالآيات المحكمات في تحريم الشرك وَالنَّهْي عنه ، بل كذبوا بالصدق واعتمدوا على الكذب على الله وعلى كتابه ورسوله .

= قال الحافظ ابن كثير في « التفسير » : والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك ، أي أنهم جمعوها من القرآن ، كما روى جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبو زيد اللغوي والله أعلم . انظر « جامع الأصول » رقم (٢١٤٥).

(١) أحمد في « المسند » ١ /٣٩١ و٤٥٢ وصححه ابن حبان رقم (٢٣٧٢) « موارد » وقال الحاكم ١ /٥٠٩ : حديث صحيح على شرط مسلم ، إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه فانه مختلف في سماعه من أبيه . اهـ . وقد ثبت سماعه منه بشهادة جماعة من الأئمة . فالحديث صحيح كما قال الألباني في « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٩٩).

وأصل الالحاد في كلام العرب العدول ، من القصد والميل . قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

وحقيقة الالحاد فيها الميل بالاشـ ـراك والتعطيل والنكران

وأسماء الرب تعالى كلها أسماء وأوصاف دلت على كماله جلا وعلا ، والذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة متقدمهم ومتأخرهم إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ على ما يليق بجلال الله وعظمته ، إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ وأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يحتذى حذوه فكما أنه يجب العلم بأن لله ذاتاً حقيقة لا تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين ، فله صفات حقيقة لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين ، فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ، أو تأوله على غير ما ظهر من معناه فهو جهمي قد اتبع غير سبيل المؤمنين.. قال العلامة ابن القيم ، رحمه الله تعالى : فائدة جليلة ما يجري صفة أو خبراً على الرب تعالى أقسام :

أحدها : ما يرجع إلى نفس الذات كقولك ذات وموجود .

الثاني : ما يرجع إلى صفات منعوتة كالعليم والقدير والسميع والبصير .

الثالث : ما يرجع إلى أفعاله كالخالق والرازق .

الرابع : التنزيه المحض ولا بد من تضمنه ثبوتاً إذ لا كمال في العدم المحض ، كالقدوس السلام .

الخامس : ولم يذكره أكثر الناس وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا يختص بصفة معينة ، بل دال على معانٍ نحو المجيد العظيم الصمد فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال ولفظه يدل على هذا ، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة ، فمنه استمجد المرخ والعقار ، وأمجد الناقة : علفها . ومنه ﴿ رب العرش المجيد ﴾ صفة للعرش لسعته وعظمته وشرفه ، وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترناً بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمنا ﷺ لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه ، فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه كما تقول : اغفر لي وارحمني إنك

---

(١) روي من حديث ربيعة بن عامر أخرجه أحمد ١٧٧/٤ ، ورواه أيضاً البخاري في « الكبير » =

فيه مسائل :

الأولى : إثبات الأسماء .

الثانية : كونها حسنى .

الثالثة : الأمر بدعائه بها .

الرابعة : ترك من عارض من الجاهلين الملحدين .

الخامسة : تفسير الإلحاد فيها .

السادسة : وعيد من ألحد .

* * *

أنت الغفور الرحيم فهو راجع الى التوسل بأسمائه وصفاته ، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه ، ومنه الحديث الذي في المسند والترمذي « أَلِظُّوا بِياذَا الجَلالِ وَالإِكْرام »(1) ومنه : « اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الحَمد لا إلَهَ إلَّا أنْتَ المَنَّانُ بَديعُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ ياذا الجَلالِ وَالإِكْرامِ » فهذا سؤال له وتوسل إليه بأسمائه وصفاته فما أحق ذلك بالاجابة وأعظمه موقعاً عند المسؤول ، وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد .

السادس : صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغني الحميد ، الغفور القدير ، الحميد المجيد . وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن فان الغنى صفة كمال والحمد كذلك واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر فله ثناء من غنائه وثناء من حمده وثناء من اجتماعهما ، وكذلك الغفور القدير ، والحميد المجيد ، والعزيز الحكيم فتأمله فانه من أشرف المعارف .

= (٢٥٦/١/٢) والحاكم ٤٩٨/١ ـ ٤٩٩ وقال صحيح الاسناد ووافقه الذهبي .

ورُوي من حديث أنس رضي الله عنه أخرجه الترمذي رقم (٣٥٣٣) في الدعوات : باب رقم (٩٢) وهو حديث صحيح كما قال الألباني في « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٥٣٦) .

(٢) تقدم تخريجه ص (٤٥) رقم (١) .

٥٢ ـ باب لا يقال : السلام على الله

في « الصحيح » عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا : السلام على الله من عباده ، السلام على فلان ، فقال النبي ﷺ : « لَا تَقُولُوا السَّلَامُ عَلَىٰ اللهِ ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ »[(١)] .

....

باب لا يقال السلام على الله

(في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كُنَّا إذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ في الصَّلاةِ : قُلْنا السَّلامُ عَلى اللهِ مِنْ عِبادِهِ) الحديث .

هذا الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم عن ابن مسعود ، وفي هذا الحديث النهي عن ذلك وقد كان النبي ﷺ إذا انصرف من الصلاة المكتوبة استغفر ثلاثاً وقال : « اللهُمَّ أنْتَ السَّلامُ وَمِنْكَ السَّلامُ تبارَكْتَ يا ذَا الجَلالِ وَالاكْرامِ »[(٢)] وفي الحديث أن هذا هو تحية أهل الجنة لربهم تبارك وتعالى[(٣)] .

---

(١) البخاري رقم (٨٣٥) في الأذان : باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد وليس بواجب ، ومسلم رقم (٤٠٢) (٥٨) في الصلاة : باب التشهد في الصلاة ، وأبو داود رقم (٩٦٨) في الصلاة : باب التشهد ، وابن ماجة رقم (٨٩٩) في إقامة الصلاة : باب ما جاء في التشهد .

وتتمة الحديث في البخاري : « . . . ولكن قولوا : التحيات لله والصلوات والطيبات والسلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فإنكم إذا قلتم أصاب كل عبد في السماء أو بين السماء والأرض ـ أشهدأن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو » .

(٢) مسلم رقم (٥٩١) في المساجد : باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ، وأبو داود رقم (١٥١٣) في الصلاة : باب مايقول الرجل إذا سلم ، والترمذي رقم (٣٠٠) فيه : باب ما يقول إذا سلم من الصلاة ، والنسائي ٦٨/٣ في السهو : باب الاستغفار بعد التسليم ، وفي « عمل اليوم والليلة » رقم (١٣٩) وابن ماجه رقم (٩٢٨) في إقامة الصلاة : باب ما يقال بعد التسليم ، والدارمي رقم(١٣٥٥) في الصلاة : باب القول بعد السلام ، وأحمد في « المسند » ٢٧٥/٥ و٢٧٩ ، من حديث ثوبان رضي الله عنه .

ورواه مسلم (٥٩٢) ، وأبو داود (١٥١٢) ، والترمذي (٢٩٠) ، والنسائي ٦٩/٣ ، وابن ماجه رقم (٩٢٤) ، والدارمي (١٣٥٤) ، وأحمد ٦٢/٦ و١٨٤ و٢٣٥ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٣) روى البخاري رقم (٣٣٢٦) في الأنبياء : باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته ، ورقم (٦٢٢٧) في =

فيه مسائل :

الأولى : تفسير السلام .

الثانية : أنه تحية .

الثالثة : أنها لا تصلح لله .

الرابعة : العلة في ذلك .

الخامسة : تعليمهم التحية التي تصلح لله .

* * *

قوله : (فَانَّ الله هُوَ السَّلامُ) أي هو تعالى سالم من كل نقص ومن كل تمثيل فهو الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل عيب ونقص .

قال في « البدائع » : السلام اسم مصدر وهو من ألفاظ الدعاء يتضمن الانشاء والاخبار فجهة الخبرية فيه لا تناقض الجهة الانشائية ، وهو معنى السلام المطلوب عند التحية وفيه قولان مشهوران :

(الأول) أن السلام هنا هو الله عز وجل ومعنى السلام : نزلت بركته عليكم ونحو هذا : فاختير في هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم السلام دون غيره من الأسماء .

(الثاني) أن السلام مصدر بمعنى السلامة وهو المطلوب المدعو به عند التحية ، ومن حجة أصحاب هذا القول أنه يأتي منكّراً فيقول المسلِّم : سلام عليكم ولو كان اسماً من اسماء الله لم يستعمل كذا . ومن حجتهم أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى ، وإنما المقصود منه الايذان بالسلامة خبراً أو دعاء .

الاستئذان : باب بدء السلام ، ومسلم رقم (٢٨٤١) في الجنة : باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير ، وأحمد ٢/٣١٥ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لما خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ، قال : اذهب فسلم على أولئك ، لنفر من الملائكة جلوس ، فاستمع إلى ما يحيونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه : ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، قال : فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن » .

٥٣ ـ باب قول : اللهم إغفر لي إن شئت

في « الصحيح » عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يَقُلْ

....

قال رحمه الله تعالى : وفصل الخطاب أن يقال الحق في مجموع القولين فكل منهما معه بعض الحق والصواب في مجموعهما ، وإنما يتبين ذلك بقاعدة وهي أن حق من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يتوسل في كل مطلب ويسأل بالاسم المقتضى لذلك المطلوب المناسب لحصوله حتى أن الداعي متشفع إلى الله تعالى متوسل به إليه فاذا قال : رب اغفر لي وتب عليّ إنك التواب الغفور ، فقد سأله بأمرين وتوسل إليه بإسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم عند الرجل أتى في لفظها بصيغة اسم من اسماء الله وهو السلام الذي تطلب منه السلامة ، وهو مقصود المسلم ، فقد تضمن سلام عليكم اسماً من اسماء الله تعالى وطلب السلامة منه ، فتأمل هذه الفائدة ، وحقيقته البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب ، وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه ، فمن ذلك قولك : سلمك الله ، ومن دعاء المؤمنين على الصراط : اللهم سلم سلم . ومنه سلم الشيء لفلان أي خلص له وحده كما قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فيهِ شُرَكَاءُ متشاكسون ورَجُلاً سَلماً لِرَجُلٍ ﴾ أي خالصاً له وحده لا يملكه معه غيره ، ومنه السلم ضد الحرب لأن كل واحد من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر ، ولهذا بنى فيه على المفاعلة فيقال المسالمة مثل المشاركة ومنه القلب السليم وهر النقي من الدغل والعيب ، وحقيقته الذي قد سلم الله وحده فخلص من دغل الشرك وغله ودغل الذنوب والمخالفات ، بل هو المستقيم على صدق حبه وحسن معاملته ، وهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذابه والفوز بكرامته ، ومنه أُخذ الاسلام فانه من هذه المادة لأنه الاستسلام والانقياد له والتخلص من شوائب الشرك فسلم لربه وخلص له كالعبد الذي سلم لمولاه ليس له فيه شركاء متشاكسون ، ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم الخالص لربه ، وللمشرك به .

باب قول اللهم اغفر لي إن شئت

قوله : (لا يَقُلْ أحَدُكُمْ : اللهُمَّ اغْفِرْ لي إن شِئْتَ) الحديث ، بخلاف العبد فانه قد يعطي السائل مسألته لحاجته اليه أو لخوفه أو رجائه فيعطيه مسألته وهو كاره ، فاللائق

أحَدُكُمْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إنْ شِئْتَ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إنْ شِئْتَ ، لِيَعْزِم المَسْأَلَةَ ، فَإِنَّ الله لَا مُكْرِهَ لَهُ ».

ولمسلم : « وَلِيُعَظِّمَ الرَّغْبَةَ ، فَإِنَّ الله لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ »(١) .

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن الاستثناء في الدعاء .

الثانية : بيان العلة في ذلك .

الثالثة : قوله : « ليعزم المسألة » .

الرابعة : إعظام الرغبة .

الخامسة : التعليل لهذا الأمر .

* * *

بالسائل للمخلوق أن يعلق حصول مسألته على مشيئة المسؤول مخافة أن يعطيه وهو كاره بخلاف رب العالمين فانه يعطي عبده ما أراده بفضله وكرمه وإحسانه ، فالأدب مع الله أن لا يعلق مسألته لربه بشيء لسعة فضله وإحسانه وجوده وكرمه وفي الحديث « لِيَعْزِم المَسْأَلَة » وفي الحديث « يَمينُ اللهِ مَلأى لا يَغيضُها نَفَقَةٌ ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ »(٢) الحديث .

---

(١) البخاري رقم (٦٣٣٩) في الدعوات : باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له ، ورقم (٧٤٧٧) في التوحيد : باب في المشيئة والارادة ، ومسلم رقم (٢٦٧٩) في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار بلفظ « لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني ان شئت ، ليعزم في الدعاء ، فانه الله صانع ما شاء لا مكره له » . وأبو داود رقم (١٤٨٣) في الصلاة : باب الدعاء ، والترمذي رقم (٢٦٧٩) في الصلاة : الذكر والدعاء : باب العزم بالدعاء ، وأحمد في « المسند » ٢/٢٤٣ و٣١٨ و٤٦٣ و٤٦٤ ، وابن ماجه رقم (٣٨٥٤) .

(٢) البخاري رقم (٤٦٨٤) في تفسير سورة هود : باب قوله تعالى : ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾ ، ورقم (٥٣٥٢) في النفقات : باب فضل النفقة على الأهل ، ورقم (٧٤١١) في التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ **لما خلقت بيدي** ﴾ ، ورقم (٧٤١٩) باب : ﴿ **وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم** ﴾ ، ورقم (٧٤٩٦) : باب قول الله تعالى : ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله** ﴾ ، ومسلم رقم (٩٩٣) (٣٦) و(٣٧) في الزكاة : باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف ، وأحمد في « المسند » ٢/٣١٣ و٥٠٠ و٥٠١ . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

٥٤ ـ باب لا يقول : عبدي وأمتي

في « الصحيح » عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ : أَطْعِمْ رَبَّكَ ، وَضِّيءْ رَبَّك ، وَلْيَقُلْ : سَيِّدِي وَمَوْلَاي وَلَا يَقُلْ : عَبْدِي وَأَمَتِي ، وَلْيَقُلْ : فَتَاي وَفَتَاتِي ، وَغُلَامِي »(١) .

....

قوله : (ولمسلم « وَلْيُعْظِم الرَّغْبَةَ » في سُؤالِهِ رَبَّهُ حَاجَتَهُ فإنَّهُ يُعْطي العَظائِمَ كَرَماً وَجوداً وَإِحْساناً « فإنَّ الله لا يَتعاظَمُهُ شيءٌ أعْطاهُ » أي ليس ما أعطى عبده مما سأله عظيم عنده لكمال فضله وجوده ، وقد قال بعض الشعراء في مخلوق يمدحه :

وتعظُمُ في عين الصغيرِ صغارها وتصغرُ في عين العظيمِ العظائمُ

والله تعالى أحق بكل مدحة وثناء .

باب لا يقول : عبدي وأمتي

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ أَطْعِمْ رَبَّكَ » الحديث ، هذه الالفاظ المنهي عنها وإن كانت تطلق لغة فالنبي ﷺ نهى عنها تحقيقاً للتوحيد وسداً لذرائع الشرك لما فيها من التشريك في اللفظ لأن الله هو رب العباد جميعهم ، فاذا أطلق على غيره ما يطلق عليه تعالى وقع الشبه في اللفظ فينبغي أن يجتنب هذا اللفظ في حق المخلوق من ذلك فأرشدهم ﷺ الى ما يقوم مقام هذا اللفظ وهو قوله : « سَيِّدي وَمَوْلايَ » وكذلك قوله : « لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدي وَأَمَتي » لأن العبيد عبيد الله ، والاماء إماء الله . قال تعالى : ﴿ إنْ كلُّ مَنْ في السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ إلّا آتي الرَّحْمٰنِ عَبْداً ﴾ الآية .

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٥٥٢) في العتق : باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله : عبدي أو أمتي ، ومسلم رقم (٢٢٤٩) في الألفاظ من الأدب ، وأبو داود رقم (٤٩٧٥ ـ ٤٩٧٦) في الأدب : باب لا يقول المملوك : ربي وربتي ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » رقم (٢٤١ ـ ٢٤٣) ، وعنه ابن السني رقم (٣٩٠) وأحمد في « المسند » ٢/٣١٦.

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن قول : عبدي وأمتي .

الثانية : لا يقول العبد : ربي ، ولا يقال له : أطعم ربك .

الثالثة : تعليم الأول قول: فتاي وفتاتي وغلامي .

الرابعة : تعليم الثاني قول : سيدي ومولاي .

الخامسة : التنبيه للمراد ، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ .

* * *

٥٥ ـ باب لا يرد من سأل بالله

عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ ، فَإِنْ

....

باب لا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ

ظاهر الحديث النهي عن رد السائل إذا سأل بالله ، ويحتمل أن يكون المراد فيما لا مشقة على المسؤول ولا ضرر فيكون من باب مكارم الاخلاق ، ومعالي الشيم ، وربما كان السائل محتاجاً أو مضطراً فيجب أن يعطي ما سأله ويأثم المسؤول في منعه فيؤخذ من ماله أضعاف ما منع على وجه يكرهه ، فباعتبار هذه الأمور ينبغي لمن أعطاه الله نعمة أن يؤدي حق الله فيها ، ويعطي من سأله من فضول نعمة الله عليه خصوصاً إذا سأل بالله تعالى فيكون إعطاؤه تعظيماً لمن سأل به وهو الله تعالى .

قوله : (مَنِ اسْتَعاذَ بِاللهِ فَأعيذوهُ) تعظيماً لله تعالى وتقرباً إليه بذلك .

قوله : (وَمَنْ دَعاكُمْ فَأجيبوهُ) هذا من حقوق المسلم على المسلم ومن أسباب الالفة وسلامة الصدر وإكرام الداعي .

قوله : (وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْروفاً فَكافِئوهُ) أي ينبغي المكافأة على المعروف وهو من مكارم الأخلاق وفيه السلامة من البخل وما يذم به .

لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّىٰ تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ »[1] . رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح .

فيه مسائل :

الأولى : إعاذة من استعاذ بالله .

الثانية : إعطاء من سأل بالله .

الثالثة : إجابة الدعوة .

الرابعة : المكافأة على الصنيعة .

الخامسة : أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه .

السادسة : قوله : « حتى تروا أنكم قد كافأتموه » .

❊ ❊ ❊

٥٦ ـ باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الجَنَّةَ »[2] . رواه أبو داود.

قوله (فان لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له) فيه أن الدعاء يقوم مقام المكافأة في حق من لم يجد ما يكافىء به .

قوله : (حَتَّى تُرُوا) بضم التاء أي تظنوا ، وفي رواية أبي نهيك عن ابن عباس « مَنْ سَأَلَكُمْ بِوَجهِ اللهِ فَأعْطوهُ » .

باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

ذكر فيه حديث جابر رواه أبو داود قال : (قال رسول الله ﷺ : « لا يُسْأل بِوَجهِ اللهِ إلاّ

---

(١) تقدم تخريجه ص ( ) رقم ( ) .

(١) رقم (١٦٧١) في الزكاة : باب كراهية المسألة بوجه الله عز وجل ، واسناده ضعيف . انظر « تخريج المشكاة » للألباني رقم (١٩٤٤).

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب .

الثانية : إثبات صفة الوجه .

* * *

٥٧ ـ باب ما جاء في اللوّ

وقول الله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا ﴾

....

الجَنَّةُ » وهنا سؤال وهو أنه قد ورد في دعاء النبي ﷺ عند منصرفه من الطائف حين كذبته ثقيف دعا بالدعاء المأثور : « اللَّهُمَّ أَشْكُو إِلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتي ، وَقِلَّة حِيلَتي ، وَهَوَاني على النَّاس ، أَنْتَ رَبُّ المُسْتَضْعَفينَ ، وَأَنْتَ رَبِّي الى مَنْ تَكِلُني ؟ إلى بَعيدٍ يَتَجَهَّمُني ، أَوْ الى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْري ، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَليَّ فلا أُبالي ، غيرَ أَنَّ عافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لي ، أَعوذُ بنورِ وَجْهِكَ الّذي أَشْرَقَتْ لهُ الظُّلُماتُ ، وَصَلُحَ عَليْهِ أَمْرُ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ ، أَنْ يَحِلَّ عَليَّ غَضَبُكَ أَوْ يَنْزِلَ بي سَخَطُكَ ، لَكَ العُقْبى حَتّى تَرْضى ، وَلا حَوْلَ وَلا قـوّةَ إلاّ بِالله »[١] والحديث المروي في الأذكار « اللهُمَّ أَنْتَ أَحَقُّ مَنْ ذُكِرَ ، وَأَحَقُّ مَنْ عُبِدَ » وفي آخره « أَعُوذُ بِنورِ وَجْهِكَ الذي أَشْرَقَتْ لهُ السَّمواتُ والأَرْضُ » ونحوه في الاحاديث المرفوعة ، فيحتمل أن هذا فيما يكرهه العبد لا فيما يحبه ويتمناه ، ويحتمل غير هذا ، والله أعلم .

باب في ما جاء في اللَّوّ

أي من الوعيد والنهي عنه عند الامـور المكروهـة كالمصـائب إذا جرى بهـا القدر ونحوها .

وقول الله تعالى : ﴿ يَقولونَ لوْ كانَ لنَا مِنَ الأَمرِ شَيءٌ مَا قُتِلْنَا هٰهُنَا ﴾ قالـه بعض

---

(١) رواه ابن هشام في « السيرة » ١/٤٢٠ وابن جرير في « تفسيره » ١/٨٠ بغير سند ، قال الزرقاني في « شـرح المواهب اللدنيـة » ١/٣٠٥ : أورده ابن اسحاق في « السيـرة » ورواه الطبـراني في كتاب « الدعاء » من حديث عبد الله بن جعفر ، وقال : وهذا مرسل صحابي ، لأنه ولد بالحبشة فلم يدرك ما حدث به . وقال الهيثمي في « المجمع » ٦/٣٥ : وفيه ابن اسحاق وهو مدلس ، وبقية رجاله ثقات.

[آل عمران: ١٥٤] . وقوله : ﴿ **الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوانِهِم وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا** ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٨] .

في « الصحيح » عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « احْرَصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِالله ، وَلَا تَعْجِزَنَّ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وَكَذَا ؛ وَلَكِنْ قُلْ : قَدَّرَ الله وَمَا شَآءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ »(١) .

المنافقين يوم أحد لخوفهم وجزعهم وخورهم . قال ابن اسحاق : فحدثني يحيى بن عباد ابن عبد الله بن الزبير قال : قال الزبير : لقَدْ رَأَيْتني مَعَ رَسُولِ الله ﷺ حِينَ اشْتَدَّ عَلَيْنا الخَوْفُ أَرْسَلَ آللهُ عَلَيْنا النَّومَ فما مِنّا رَجُلٌ إلاّ ذَقنُهُ في صَدْرِهِ قال . فَوَاللهِ إنّي لأسمعُ قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم : ﴿ **لو كانَ لنا مِنَ الأمْرِ شَيءٌ ما قُتِلْنا هٰهُنا** ﴾ فحفظتها منه ، وفي ذلك أنزل الله عز وجل ﴿ **يَقولون لو كان لنا مِن الامْرِ شَيءٌ ما قُتِلْنا هٰهُنا** ﴾ لقول معتب ، رواه ابن أبي حاتم ، وقال مجاهد عن جابر بن عبد الله : نزلت هـذه الآية في عبد الله بن أبيّ ، يعني أنه هو الذي قال ذلك .

قوله : (في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « احْرِصْ عَلى مَا يَنفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعجزْ ») الحديث ، اختصر المصنف هذا الحديث وتمامه « المؤْمِنُ القَويُّ خَيرٌ وَأَحَبُّ إلى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعيفِ وَفي كلٍّ خَيرٌ » الى آخره . قوله : « احْرِصْ عَلى مَا يَنفَعُكَ » أي في دنياك وأخراك ، وخص ما ينفع دون ما ليس كذلك مما فيه ضرر أو عدم نفع وذلك لا يخرج عن الواجب والمستحب والمباح اذا كان نافعاً . قوله : « وَاسْتَعِنْ بِاللهِ »لأنه لا يحصل له ذلك إلا اذا كان مستعيناً بالله . قوله : « وَلاَ تَعْجَزْ » نهاه عن العجز لأنه مما يذم به عقلاً وشرعاً ،فما أكثر ذلك في الناس ، فكم فوت الانسان على نفسه من الخير وهو يقدر عليه إذا رغب فيه واستعان بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . قوله :

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٦٤) في القدر : باب في الأمر بالقوة وترك العجز ، والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله عز وجل ، وأحمد في « المسند » ٢/٣٦٦ و٣٧٠ ، وابن ماجه رقم (٧٩) و(٤٦١٨) .

قوله : « احرص على ما ينفعك » معناه احرص على طاعة الله تعالى والرغبة فيما عنده ، واطلب الإعانة من الله على ذلك ولا تعجز ولا تكسل عن طلب الطاعة ولا عن طلب الإعانة .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآيتين في آل عمران .
الثانية : النهي الصريح عن قول : لو ، إذا أصابك شيء .
الثالثة : تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان .
الرابعة : الإرشاد الى الكلام الحسن .
الخامسة : الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله .
السادسة : النهي عن ضد ذلك وهو العجز .

* * *

٥٨ ـ باب النهي عن سب الريح

عن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قـال : « لَا تَسُبُّوا الرِّيح ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا : اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هٰذِهِ الرِّيح ،

....

« وَإن أصابَكَ شَيءٌ فَلا تَقُلْ لو أني فَعَلْتُ كَذا لكانَ كَذا وكَذا وَلكِنْ قُلْ : قدر الله » لأن : ما قدر يكن ، فيجب الايمان بالقدر والتسليم ، وأرشده الى أن يقول : « قدر الله » أي هذا قدر الله والمبتدأ محذوف وتقديره (هذا قدر الله ومَا شَاءَ فَعَل) لأن أفعاله تعالى ، إنما تصدر عن حكمة وعلم وفضل وعدل ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ . قوله : (فَانَّ لَوْ تَفتحُ عَمَلَ الشَّيطانِ) أي لما فيها من التأسف على ما فات والحزن فيأثم في ذلك وذلك من عمل الشيطان .

باب النهي عن سب الريح

عن أبي كعب أن رسول الله ﷺ قال : « لا تَسُبُّوا الرِّيحَ » الحديث . لأن الريح خلق من خلق الله مدبر ، وإنما تهب بمشيئة الله وقدرته ، فيرجع السب الى من خلقها وسخرها ، وأرشد النبي ﷺ أمته الى أن يقولوا ما ذكر في الحديث وهو سؤاله تعالى خيرها وخير مافيها والاستعاذة به من شرها وشر ما فيها ، وقد شرع الله لعباده أن يسألوه ما ينفعهم ويستعيذوا به من شر ما يضرهم ، وأن يكون ذلك منهم عبودية لله وحده وطاعة له وإيماناً به ، وهذه حال أهل التوحيد والايمان خلافاً لحال أهل الشرك والبدع .

وَخَيْرَ مَا فِيها ، وَخَيْرَ مَا أُمِرَتْ بِهِ ، وَنَعُوذ بِكَ مِنْ شَرِّ هٰذِهِ الرِّيْحُ ، وَشَرِّ مَا فِيها ، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ » (١) صححه الترمذي .

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن سب الريح .

الثانية : الارشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الانسان ما يكره .

الثالثة : الارشاد إلى أنها مأمورة .

الرابعة : أنه قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر .

* * *

٥٩ ـ باب [لا يظن بالله ظن السوء إلّا المنافقون والمشركون ، ولا يسلم من ذلك إلّا من عرف الله وأسمائه وصفاته]

قول الله تعالى : ﴿ **يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لله** ﴾ الآية [آل عمران : ١٥٤] .

باب قول الله تعالى

﴿ **يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ ، يَقولونَ هَلْ لنا مِنَ الأَمرِ مِنْ شَيءٍ قُلْ إِنَّ الأَمرَ كلّهُ لله** ﴾ وهذه الآية ذكرها الله تعالى في سياق قوله : ﴿ **ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشَى طائفَةً مِنْكُمْ** ﴾ يعني أهل الايمان والثبات والتوكل الصادق وهم الجازمون بأن الله تعالى ينصر رسوله ﷺ وينجز مأموله ، ولهذا قال : ﴿ **وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ** ﴾ يعني

---

(١) الترمذي رقم (٢٢٥٣) في الفتن : باب ما جاء في النهي عن سب الريح ، والبخاري في « الأدب المفرد » رقم (٧١٩) ، وأحمد في « المسند » ٥/١٢٣ ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » رقم (٩٣٣ ـ ٩٣٤) وعنه ابن السني رقم (٢٩٨) ، وفي سنده حبيب بن أبي ثابت ، وهو ثقة فقيه جليل ، وكان كثير الإرسال والتدليس وقد عنعنه ، ولكن للحديث شواهد يقوى بها ، لذا قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة وعثمان بن أبي العاص وأنس وجابر وابن عباس ، فالحديث صحيح كما قال الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٧١٩٢) .

وقوله : ﴿ الظَّانين بِالله ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾الآية [الفتح : ٦].

قال ابن القيم في الآية الأولى : فسِّر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل ، وفسر أن ما أصابهم لم يكن بقدَر الله وحكمته ، ففسر بانكار الحكمة ، وإنكار القدَر ، وإنكار أن يتم أمر رسوله ، وأن نظهره على الدين كله . وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة

لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيرَ الحق ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لنْ يَنْقَلِبَ الرَّسولُ وَالمُؤْمِنونَ الى أَهْليهِمْ أَبَداً ﴾ وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة ظنوا أنها الفيصلة ، وأن الاسلام قد باد وأهله ، وهذا شأن أهل الريب والشك اذا حصل أمر من الامور تحصل لهم هذه الامور الشنيعة.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله سبحانه بأن لا ينصر رسوله وأن أمره سيضمحل . وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته ففسر بانكار الحكمة وإنكار القدر وإنكار أن يتم أمر رسوله وأن يظهره على الدين كله هذا هو ظن السوء ﴿ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءَ وَغَضِبَ آلله عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لهمْ جَهَنَّم وَساءَتْ مَصيراً ﴾.

قوله : ﴿ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ قال ابن جرير في تفسيره ﴿ وَيُعَذِّبَ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ ، وَالمُشْرِكينَ وَالمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ أي الظانين بالله أن لن ينصرك وأهل الايمان بك على أعدائك وأن يظهر كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به ، وذلك كان السوء من ظنونهم التي ذكرها الله في هذا الموضع . وقال ابن كثير : ﴿ وَيُعَذِّبَ المُنافِقينَ وَالمُنافِقاتِ ، وَالمُشْرِكينَ وَالمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ أي يتهمون الله في حكمه ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ وهذا الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح ، وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه وما يليق بحكمه وحمده ووعده الصادق.

فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق ، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره ، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد ، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة فذلك ظن الذين كفروا ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذينَ كَفَروا مِنَ النَّارِ ﴾.

﴿ الفتح ﴾ ، وإنما كان هذا ظن السوء ، لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه ، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق ، فمن ظن أنه يُدِيل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق ، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدَره ، أو أنكر أن يكون قدَره بحكمة بالغة يستحق عليها الحمد ، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة ، فذلك ظن الذين كفروا ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص: ٢٧] . وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم ، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته ، وموجب حكمته وحمده .

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا ، وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء ، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدرة وملامة له ، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ، فَمُسْتقِل ومُستكثر ، وفتش نفسك : هل أنت سالم ؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِياً

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية آل عمران .

الثانية : تفسير آية الفتح .

الثالثة : الأخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر .

الرابعة : أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه .

* * *

٦٠ ـ باب ما جاء في منكري القدر

وقال ابن عمر : والذي نفس ابن عمر بيده ، لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِم مِثْلَ أُحُد ذَهَباً ، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ الله مَا قَبِلَهُ الله مِنْهُ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ . ثم استدل بقول النبي ﷺ : « الإِيْمَـانُ أَنْ تُؤمِنَ بالله ، وَمَـلاَئِكَتِهِ ، وَكُتُبِـهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّهِ »(1) . رواه مسلم .

قوله : (باب ما جاء في منكري القدر) أي من الوعيد قوله : (قال ابن عمر : والذي نفسُ ابن عمر بِيَدِهِ) حديث ابن عمر هذا أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن يحيى بن يعمر قال : كـان أَوَّلَ مَنْ تكلَم في القَدَرِ بِـالبَصْرَةِ مَعْبَـدُ الجُهْنِيّ ، فانطلقتُ أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميدي حاجين أو معتمرين فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحابِ رَسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاءِ في القَدَرِ ، فوُفّقَ الله لنا عبدَ الله بن عُمَرَ داخلاً المسجدَ فاكتنفْتُه أنا وصاحبي فظننتُ أَنَّ صاحبي سَيَكِلُ الكلامَ إليّ ، فقلتُ : أبا عَبدِ الرحمن إِنَّه ظهرَ قبلنا أُناسٌ يقرءُونَ القرآن ويتقفرونَ العلَمْ يزعُمون أنْ لا قَدَرَ وَأَنَّ الأمر أُنُفٌ ، فقال : إذا لقيتَ أولئك فأخبرهم أني بَريءٌ مِنهم ، وأنهم بُرَآءُ مِني ، والذي يحلفُ بِهِ عبدُ آلله بنُ عُمرَ لوْ أَنَّ لأحدِهِم مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً فأنْفَقَهُ ما قَبِلهُ آلله مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ ، ثم قال : حدثني عمرُ بنُ الخطّابِ رَضي آلله عنه قال : كنَّا جُلوساً عِنْدَ رَسول آلله ﷺ إِذْ طَلَعَ علَيْنا رَجُلٌ شَديدُ بياض الثِّيابِ ، شَديدُ سَوادِ الشَّعْرِ لا يُرى عَلَيْهِ أثرُ السَّفَرِ وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إلى النَّبي ﷺ فأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ على فَخذَيْهِ ثُمَّ قالَ يا مُحمد أَخبِرْني عَن الإِسْلام ، قال : « الإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إلَهَ إلاّ آلله وَأَنَّ مُحمداً رَسولُ الله . وَتُقيمَ الصَّلاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزكَاةَ ، وَتصومَ رَمَضانَ ، وَتَحجَّ البَيْتَ إن اسْتَـطَعْتَ إِلَيْهِ سَبيـلاً » قالَ : صِدَقْتَ ، فَعَجبْنا لهُ يَسْأَلهُ وَيُصَدِّقُهُ ، قالَ فأَخبِرْني عن الإِيْمانِ قالَ : « أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيرِهِ وَشَـرِّهِ » قالَ صَـدَقْتَ ، قالَ : فأخبرني عَنِ الإِحْسانِ قالَ : « أَنْ تَعْبُدَ الله كأَنكَ تراهُ فـإِنْ لَمْ تكنْ تراهُ فـإِنَّهُ يَـراكَ » قالَ

---

(1) رقم (٨) في الايمان : باب بيان الايمان والاسلام والاحسان ، وأبو داود رقم (٤٦٩٥) في السنة : باب في القدر ، والترمذي رقم (٢٦١٣) في الايمان : باب ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ الاسلام والايمان ، والنسائي ٩٧/٨ في الايمـان : باب نعت الاسـلام ، وابن ماجـه رقم (٦٣) : باب في الايمان .

وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه : يَا بُنَيَّ إنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإيمَانِ حَتَّىٰ تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ لَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ ، فَقَالَ لَهُ : اكْتُبْ ، فَقَالَ : رَبِّ ، وَمَاذَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ » يَا بُنَيَّ ! سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ مَاتَ عَلَىٰ غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي »[1] .

وفي روايـة لأحمد : « إِنَّ أَوَّلَ مَـا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى القَلَم ، فَقَـالَ لَهُ : اكْتُبْ ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ » .

وفي رواية لابن وهب قال : قال رسول الله ﷺ : « فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ أَحْرَقَهُ اللهُ بِالنَّارِ » .

صَدَقْتَ ، قالَ فأَخبِرْني عَنِ السَّاعَةِ قـالَ : « مَا المَسْؤولُ عَنْهـا بِأَعلَمَ مِنَ السَّـائِلِ » قـالَ فأَخبِرْني عَنْ أَماراتِها قالَ : « أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَها ، وَأَنْ تَرى الحُفاةَ العُراةَ العالة رِعاءَ الشَّاءِ يَتطاوَلونَ في البُنْيانِ » قالَ فانْطَلَقَ فَلَبِثْنا مَلِياً ثمَّ قالَ :« يا عُمرُ أَتَدْري مَنْ السَّائلُ » قلْتُ: اللهُ وَرَسولُهُ أَعْلَمُ ، قالَ : « إِنَّهُ جِبريلُ أَتاكُم يُعَلِّمُكُمْ أمر دينَكُمْ » .

قوله : (عن عبادة بن الصامت) حـديثه هـذا رواه أبو داود ، ورواه الامـام أحمد بكماله . قال : حدثنا الحسن بن سوار ، حدثنا ليث عن معاوية عن أيوب بن زياد ، حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة ، حدثني أبي قال : دَخَلْتُ عَلي عُبادَةَ وَهُوَ مريضٌ أتخايَـلُ فيهِ المَوْتَ فقُلْتُ يا أَبَتاهِ أَوْصِني وَاجْتَهِدْ لي ، قالَ : أَجْلِسُوني ثمَّ قالَ : يا بُنيَّ إِنَّكَ لنْ تجِدَ طَعْمَ الإِيْمانَ وَلنْ تَبْلُغَ حَقيقَةَ العِلْمِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ ، قلْتُ يا أَبَتاه وَكَيفَ أَعْلَمُ مَا خَيْرُ القَدَرِ وَشَرُّه ، قال : أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ ما أَخطأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَكَ ، وَما أَصابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، يا بُنيَّ سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ : « إِنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ آللهُ القَلَم فقالَ لهُ اكْتُبْ فجَرى في تِلْكَ السَّاعَةِ بما هُوَ كائِنٌ إلى يَوْمِ القِيامَةِ » يا بُنيَّ إِنْ متَّ وَلسْتَ عَلى ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ » رواه الترمذي بسنده المتصل الى عطاء بن بي رباح ، وفي هذا الحديث بيان

---

(١) تقدم تخريجه ص ( ) رقم ( ) .

وفي « المسند » و« السنن » عن ابن الديلمي قال : « أَتَيْتُ أُبَيَّ بنَ كَعْبٍ ، فَقُلْتُ : فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ القَدَرِ ، فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ الله يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي ، فقالَ : لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا قَبِلَهُ الله مِنْكَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، وَلَوْ مُتَّ عَلَىٰ غَيْرِ هٰذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ قَالَ : فَأَتَيْتُ عَبْدَ الله بنَ مَسْعُودٍ ، وَحُذَيْفَةَ بنَ اليمانِ ، وَزَيْدَ بنَ ثَابِتٍ ، فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذٰلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ[1] . حديث صحيح رواه الحاكم في « صحيحه [2] .

....

شمول علم الله وإحاطته بما كان ويكون ، كما في قوله تعالى : ﴿ الله الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰواتٍ وَمِنَ الأرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنزَلُ الأمرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ الآية ، والآيات في إثبات القدر كثيرة ، وقد استدل العلماء على ثبات القدر بشمول القدرة ، والعلم كما في الآية . قال الامام أحمد : القدر قدرة الرحمن ، وقال بعض الأئمة في نفاةِ القدرِ : ناظروهم بالعلم ، فان أقروا به خصموا ، وإن جحدوه كفروا .

قوله : (وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي) أبو بسر بالسين المهملة والباء المضمومة ، ويقال أبو بشر بالشين المعجمة وكسر الباء ، وبعضهم صحح الأول واسمه عبد الله بن أبي فيروز ، ولفظ أبي داود قال : « لوْ أَنَّ الله عَذَّبَ أَهْلَ سَماواتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غيرُ ظالمٍ لهمْ ، ولَوْ رَحِمهُمْ كانتْ رَحْمَتُهُ خيراً لهمْ مِنْ أَعْمالِهِمْ ، ولَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أَحُدٍ ذَهَباً ما قبِلَهُ الله مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ وَتعْلَمَ أن ما أصابَكَ لَمْ يكنْ لِيُخْطِئَكَ ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يكنْ لِيُصِيبَكَ ، وَلوْ متَّ عَلى غيرِ هذا لكنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ » . فأتيْتُ عبدَ الله بنَ مَسعودٍ فقالَ مِثْلَ ذلكَ ، ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك ، قل : ثم أتيتُ زَيْدَ بنَ ثابِتٍ ، قال : فحدَّثني عن النبي ﷺ مثلَ ذلك ، وأخرجه ابن ماجه .

---

(١) « المسند » ٥/١٨٢ ـ ١٨٣ و٨٥ و١٨٩ ، وأبو داود رقم (٤٦٩٩) في السنة : باب في القدر ، وابن ماجه رقم (٧٧) في المقدمة : ب في القدر ، وابن حبان رقم (١٨١٧) « موارد » ، وهو حديث صحيح كما قال الألباني في « صحيح ابن ماجه » رقم (٦٢).

(٢) الحذاق من المحدثين لا يطلقون لفظ الصحيح على « المستدرك » لكثرة الأحاديث الضعيفة والمنكرة الواقعة فيه ، وإنما يقولون : أخرجه الحاكم في « مستدركه » .

فيه مسائل :

الأولى : بيان فرض الايمان بالقدر .

الثانية : بيان كيفية الإيمان به .

الثالثة : إحباط عمل من لم يؤمن به .

الرابعة : الإخبار بأن أحداً لا يجد طعم الايمان حتى يؤمن به .

الخامسة : ذكر أول ما خلق الله .

السادسة : أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة .

السابعة : براءته ﷺ ممن لم يؤمن به .

الثامنة : عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء .

التاسعة : أن العلماء أجابوه بما يزيل عنه الشبهة ، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط .

* * *

٦١ - باب ما جاء في المصورين

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قَالَ اللهُ تَعَالَى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي ، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً ، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً ، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً »(١) . أخرجاه .

....

وهذه الأحاديث وما في معناها حجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم ، ومن مذهبهم تخليد أهل المعاصي في النار ، وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر وأعظم البدع ، وكثير منهم وافقوا الجهمية في نفي صفات الرب تعالى وتقدس.

قوله : (باب ما جاء في المصورين) ، أي من الوعيد ، وقد ذكر النبي ﷺ العلة ،

---

(١) البخاري رقم (٥٩٥٣) في اللباس : باب نقض الصور ، ورقم (٧٥٥٩) في التوحيد : باب قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ . ومسلم رقم (٢١١١) في اللباس والزينة : باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة ، وأحمد في « المسند » ٢/٢٣٢ و٢٥٩ و٣٩١ و٤٥١ و٥٢٧ .

و« لهما » عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسـول الله ﷺ قال : « أَشَـدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهِؤُونَ بِخَلْقِ اللهِ »[1] .

و« لهما » عن ابن عباس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ ، يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ »[2] .

و« لهما » عنه مرفوعًا : « مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ »[3] .

ولمسلم عن أبي الهيَّاج قال : « قَالَ لي عَلِيٌّ : أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَىٰ مَا بَعَثَني

وهي المضاهاة بخلق الله ، لأن الله تعالى له الخلق والأمر ، فلا يجوز أن يشبه بشيء من خلقه سبحانه لما فيه من المضاهاة بخلق الله .

قـوله : (ولمسلم عن أبي الهيـاج) ، أبو الهيـاج هو الأسـدي حيان بن حصين . و (علي) هو أمير المؤمنين .

قوله : « أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى ما بَعَثَني عَليهِ رَسولُ اللهِ ﷺ ؟ أَنْ لا تَدَعَ صُورَةً إلَّا طَمَسْتَها ، ولَا قَبراً مُشْرِفاً إلَّا سَوَّيْتَهُ) .

---

(١) البخاري رقم (٢٤٧٩) في المظالم : باب هل تكسر الدنان التي فيها خمر ، ورقم (٥٩٥٤ ـ و٥٩٥٥) في اللباس : باب ما وطيء من التصاوير ، ورقم (٥٩٦١) باب من لم يدخل بيتاً فيه صورة ، ومسلم ررقم (٢١٠٧) (٩١) في اللباس : باب تحريم صورة الحيوان ، و« الموطأ » ٢/ ٩٩٦ في الاستئذان : باب ما جاء في الصور والتصاوير ، والنسائي ٨/ ٢١٣ في الزينة : باب التصاوير ، وباب ذكر أشد الناس عذاباً ، وأحمد في « المسند » ٦/ ٣٦ و٨٣ و٢١٩ .

(٢) البخـاري رقم (٢٢٢٥) في البيوع : بـاب بيع التصـاوير التي ليس فيهـا روح ، ورقم (٥٩٦٣) في اللباس : باب من صور صورة كلف يوم القيامة أن ينفخ وما هو بنافخ ، ورقم (٧٠٤٢) في التعبير : باب من كذب في حلمه ، ومسلم رقم (٢١١٠) في اللباس والزينة : باب تحريم تصوير الحيوان ، وأحمد في « المسند » ١/ ٣٠٨ ، والنسائي ٨/ ٢١٥ في الزينة : باب ما ذكر ما يكلف أصحاب الصور يوم القيامة .

(٣) البخاري رقم (٥٩٦٣) في اللباس : باب من صور صورة كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنـافخ ، ومسلم رقم (٢١١٠) (١٠٠) في اللباس والزينـة : باب تحـريم تصويـر الحيوان ، والتـرمذي رقم (١٧٥١) في اللباس : باب ما جاء في المصورون ، وأحمد في « المسند » ١/ ٢١٦ و٢٤١ و٢٤٦ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ؟ أَلَّا تَدَعَ صُورَةً إلَّا طَمَسْتَهَا ، وَلَا قَبْراً مُشْرِفاً إلَّا سَوَّيْتَهُ»[1] .

فيه مسائل :

الأولى : التغليظ الشديد في المصورين .

الثانية : التنبيه على العلة ، وهو ترك الأدب مع الله لقوله : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي » .

الثالثة : التنبيه على قدرته وعجزهم ، لقوله : « فليخلقوا ذرَّة أو شعيرة » .

الرابعة : التصريح بأنهم أشد الناس عذاباً .

الخامسة : أن الله يخلق بعدد كل صورة صورها نفساً يعذب بها في جهنم .

السادسة : أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح .

السابعة : الأمر بطمسها إذا وجدت .

* * *

فهذا ما صح عن النبي ﷺ من إنكار هذه الأمور وإزالتها : ﴿ **فَبَدَّلَ الذينَ ظَلموا قَوْلاً غَيرَ الذي قيلَ لهمْ** ﴾ . فأكثروا التصوير واستعملوه وأكثروا البناء على القبور وزخرفوها وجعلوها أوثاناً . وزعموه ديناً وهو أعظم المنكرات وأكبر السيئات ، تعظيماً للأموات وغُلوًّا ، وعبادة لغير الله بأنواع العبادة التي هي حق الله على عباده . قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى : ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما نهى عنه ، وما كان عليه أصحابه ، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم ، رأى أحدهم مضاداً للآخر مناقضاً له بحيث لا يجتمعان أبداً .

---

(١) مسلم رقم (٩٦٩) في الجنائز : باب الأمر بتسوية القبر ، وأبو داود رقم (٣٢١٨) في الجنائز : باب في تسوية القبر ، والترمذي رقم (١٠٤٩) في الجنائز : باب ما جاء في تسوية القبور ، والنسائي ٤/٨٨ و٨٩ في الجنائز : باب تسوية القبور اذا رفعت ، وأحمد في « المسند » ١/٩٦ و١٢٩ ، من حديث علي رضي الله عنه .

٦٢ ـ باب ما جاء في كثرة الحلف

وقول الله تعالى : ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ [المائدة: ٨٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ »(١) أخرجاه .

وعن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : أُشَيْمِطٌ زَانٍ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ

....

قوله : (باب ما جاء في كثرة الحَلِفِ) ، أي من النهي عنه والوعيد .

قوله : (وقول الله تعالى : ﴿ وَٱحْفَظُوا أَيْمانَكُمْ ﴾).

قال ابن جرير : أي لا تتركوها بغير تكفير ، وذكر غيره عن ابن عباس : يريد لا تحلفوا . وقال آخرون :﴿ احْفَظوا أَيْمانَكُمْ ﴾، عن الحنث ، فلا تحنثوا . والمعنى يعم القولين.

قوله : (عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحَلِفِ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ ، مَمحَقَةٌ لِلكَسْبِ » أخرجاه) . أي البخاري ومسلم وخرجه أبو داود والنسائي . والمعنى أنه قد يحلف على ثمن السلعة بزيادة على ما اشتريت به أو سميت به ، فيأخذها المشتري لظنه أنه صدق . وهذا وإن كان فيه زيادة فهو يمحق البركة ، كما جاء في الحديث ، والواقع يشهد بصحته ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته ، وإن تزخرفت الدنيا للعاصي فعاقبتها اضمحلال وذهاب .

قوله : (وعن سلمان) وسلمان لعله سلمان الفارسي أبو عبد الله ، أسلم مقدم

---

(١) البخاري رقم (٢٠٨٧) في البيوع : باب يمحق الله الربا ويربي الصدقات ، ومسلم رقم (١٦٠٦) في المساقاة : باب النهي عن الحلف في البيع ، وأبو داود رقم (٣٣٣٥) في البيوع والاجارات : باب كراهية اليمين في البيع ، والنسائي ٧/ ٢٤٦ في البيوع : باب المنفق سلعته بالحلف الكاذب .
قوله : « للكسب » في البخاري « للبركة » وفي مسلم : « للربح » .
قوله : « منفقة للسلعة » : أي سبب لنفاق المتاع ورواجها في ظن الحالف .
قوله : « ممحقة للربح » أي سبب لمحق البركة وذهابها ، إما بتلف يلحقه في ماله ، أو بانفاقه في غير ما يعود نفعه إليه في العاجل ، أو ثوابه في الآجل .

بِضَاعَتَهُ ، لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ »[1] رواه الطبراني بسند صحيح .

النبي ﷺ المدينة وشهد الخندق ، روى عنه أبو عثمان النهدي وشرحبيل بن السمط وغيرهما ، قال النبي ﷺ : « سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ »[2] ، « إِنَّ الله يُحِبُّ مِنْ أَصحابي أَرْبَعَةً : عَلِيًّا وَأَبَا ذَرٍّ وَسَلْمَانَ وَالمِقْدادَ »[3] . أخرجه الترمذي . توفي سلمان في خلافة عثمان ، ويحتمل أنه سلمان بن عامر بن أوس الضبي .

قوله : « لا يُكَلِّمُهُمُ الله » هذا وعيد شديد في حقهم لأنه قد تواتر أنه يكلم أهل الايمان ويكلمونه في عرصات القيامة ، والأدلة على ذلك في الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه ، وفيه الرد على الجهمية والأشاعرة نفاة الكلام .

قوله : (وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلهمْ عَذابٌ أليمٌ) وهذا من تمام العقوبة عليهم وفي هذا الوعيد الشديد ما يزجر من له عقل عن هذه الأعمال السيئة ونحوها .

قوله : (أُشَيْمِطٌ زانٍ) صغره تحقيراً له وذلك لأن داعي المعصية ضعف حقه فدل على أن الحامل له على الزنا محبته المعصية والفجور وعدم خشيته لله ، وكذلك « العَائِل المستَكْبِر » ليس له ما يحمله على الكبر ، فدل على أنه خلق له فعظمت العقوبة في حقه لعدم الداعي الى هذا الخلق الذميم الذي هو من أكبر المعاصي .

قوله : (وَرَجُلٌ جَعَلَ الله بِضَاعَتَه) بنصب الاسم الشريف يعني اليمين بالله عز وجل جعله بضاعة له لكثرة استعماله .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » والبيهقي في « شعب لايمان » من حديث سلمان رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح ، ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٧٨/٤ ، وقال : رواه الطبراني في الثلاثة ورجاله رجال الصحيح . انظر « صحيح الجامع » رقم (٣٠٦٧) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » والحاكم ٥٩٨/٣ من طريق ابن أبي فديك عن كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده ، وقال الذهبي : سنده ضعيف . وقال الألباني في « ضعيف الجامع » : رقم (٣٢٧٢) : ضعيف جداً .

(٣) الترمذي رقم (٣٧٢٠) في المناقب : باب مناقب علي وقال : هذا حديث حسن غريب ، وأحمد ٣٥١/٥ وابن ماجه (١٤٩) في المقدمة : باب فضل سلمان وأبي ذر ، وصححه الحاكم ١٣٠/٣ وقال : صحيح على شرط مسلم ، وتعقبه الذهبي فقال : ما خرج مسلم لأبي ربيعة . فالحديث ضعيف .

وفي « الصحيح » عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ - قال عمران : فلا أدري أَذَكَرَ بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً ؟ - ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْماً يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمِنُونَ ، وَيَنْذُرُونَ وَلَا يُوفُونَ ، وَيَظْهَرُ فِيهِم السِّمْنُ »[1] .

قوله : (وفي الصحيح) أي صحيح مسلم وخرجه أبو داود والترمذي ورواه البخاري بلفظ « خيركم ».

قوله : (خَيرُ أُمَّتي قَرْني) لكثرة الخير فيهم وقلة الشر ، وشدة الانكارِ على من خالف الحق وابتدع كالخوارج والقدرية والجهمية ونحوهم (ثمَّ الذينَ يَلونَهُمْ) فُضِّلوا على من بعدهم لظهور الاسلام فيهم وكثرة العلم والعلماء ، وأما القرن الثالث فظهرت فيهم البدع لكن أنكرها العلماء ، وتصدّى كثير منهم لانكارها والرد على من قالها وهم كثيرون.

قوله : (فَلا أدْري أذكَرَ بَعدَ قَرْنِهِ مَرَّتينِ أو ثَلاثاً) هذا شك من راوي الحديث عمران ابن حصين، ثم ذكر ما وقع بعد الثلاثة من الجفاء في الدين وكثرة الأهواء فقال : (ثمَّ إنَّ بَعْدَكُمْ قَوْماً يَشْهَدونَ وَلا يُسْتَشْهَدونَ) لاستخفافهم بأمر الشهادة ، وعدم تحريهم الصدق وكذلك لقلة دينهم وضعف إسلامهم.

قوله : (وَيَخونونَ وَلا يُؤْتَمَنونَ) يدل على أن الخيانة قد غلبت على كثير منهم أو

(١) البخاري رقم (٢٦٥١) في الشهادات : باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد ، ورقم (٣٦٥٠) في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ورقم (٦٤٢٨) في الرقاق : باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ، ورقم (٦٦٩٥) في الأيمان والنذور : باب إثم من لا يفي بالنذر ، ومسلم رقم (٢٥٣٥) في فضائل الصحابة : باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، والترمذي رقم (٢٢٢٢) في الفتن : باب ما جاء في القرن الثالث ، ورقم (٢٣٠٣) في الشهادات : باب خير القرون ، وأبو داود رقم (٤٦٥٧) في السنة : باب فضل أصحاب رسول الله ﷺ ، والنسائي ١٧/٧ و١٨ في الأيمان والنذور : باب الوفاء بالنذر ، وأحمد في « المسند » ٤/٤٢٦ و٤٢٧ و٤٣٦ و٤٤٠ ، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه .
وفي الباب عن ابن مسعود وعمر بن الخطاب والنعمان بن بشير وبريدة الأسلمي رضي الله عنهم .

« وفيه » عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال : « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ »[1] .

أكثرهم (وَيَنْذرونَ وَلا يُوفونَ) أي لا يؤدون ما وجب عليهم ، فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم .

قوله : (وَيَظهَرُ فيهمُ السِّمَنُ) لرغبتهم في الدنيا وشهواتها ، وقلة الايمان باليوم الآخر ، وفي حديث أنس « لا يَأْتي عَلى النَّاسِ زَمان إلَّا وَالَّذي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ »[2] قال أنس سمعته من نبيكم ﷺ ، فما زال الشر يزيد في الأمة حتى ظهر فيهم الشرك والبدع في كثير منهم حتى فيمن انتسب الى العلم ويتصدر للتعليم والتصنيف ، فحدث التفرق والاختلاف في الدين وحدث الغلو في أهل البيت من بني بويه في المشرق لما كان لهم دولة ، وبنوا المساجد على القبور وغلوا في أربابها ، وظهرت دولة القرامطة ، وظهر فيهم الكفر والالحاد في شرائع الدين ، ومذهبهم معروف ، وظهر فيهم من البدع ما يطول عَدُّه وكثر الاختلاف والخوض في أصول الدين ، وما زال أهل السنة على الحق ولكن كثرت البدع والأهواء حتى عاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، نشأ على هذا الصغير وهرم عليه الكبير .

قوله : (وفيه عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال : « خَيرُ النـاسِ قَرْني ثمَّ الـذينَ يَلونَهُمْ ») الحديث . في هذا الحديث أن خير القرون ثلاثة من غير شك .

قوله : (ثمَّ يَجيءُ قَوْمٌ) الخ . وذلك لضعف الايمان والرغبة في الدنيا وأخذها بالقلوب وكثرة المعاصي والذنوب .

---

(١) البخاري رقم (٢٦٥٢) في الشهادات : باب لا يشهد على شهادة جور اذا شهد ، ورقم (٣٦٥١) في فضائل أصحاب النبي ﷺ ، رقم (٦٤٢٩) في الرقاق : باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ، ورقم (٦٦٥٨) في الأيمان والنذور : باب اذا قال : أشهد بالله أو شهدت بالله ، ومسلم رقم (٢٥٣٣) في فضائل الصحابة : باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ، والترمذي رقم (٣٨٥٨) في المناقب : باب ما جاء في فضل من رأى النبي ﷺ .

(٢) البخاري رقم (٧٠٦٨) في الفتن : باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه ، والترمذي رقم (٢٢٠٧) في الفتن : باب رقم (٣٥) ، وأحمد في « المسند » ٣/١٣٢ و١٧٧ .

قال إبراهيم : كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار .

فيه مسائل :

الأولى : الوصية بحفظ الأيمان .

الثانية : الاخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للبركة .

الثالثة : الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه .

الرابعة : التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي .

الخامسة : ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون .

السادسة : ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة ، أو الأربعة ، وذكر ما يحدث بعدهم .

السابعة : ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون .

الثامنة : كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد .

* * *

٦٣ ـ باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه ﷺ

وقول الله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ الآية [النحل: ٩١].

قوله : (وقال ابراهيم : كانوا يَضْرِبونَنا عَلى الشَّهادَةِ وَالعَهْدِ وَنحنُ صِغارٌ) هكذا حال السلف الصالح محافظة منهم على الدين الذي أكرمهم الله به ، فلا يتركون شيئاً مما يكره إلا أنكروه ، وفيه تمرين الصغار على دينهم بالتعليم .

قوله : (باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه وقول الله تعالى : ﴿ وَأَوْفوا بِعَهْدِ ٱللهِ إِذا عاهدْتُمْ وَلا تَنْقُضوا الأيمانَ بَعْدَ توْكيدِها ﴾ الآية). قال العماد ابن كثير : وهذا مما يأمر الله تعالى به وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَنقُضوا الأيْمانَ بَعْدَ تَوْكيدِها ﴾ .

قوله : ﴿ وَلا تَنقُضوا الأيْمانَ بَعْدَ تَوْكيدِها ﴾ هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق ، لا الأيمان الواردة على حث أو منع .

عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان إذا أَمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ، فقال : « اغْزُوا بِاسْمِ الله ، في سَبِيلِ الله ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بالله ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا ، وَلَا تُمَثِّلُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً ، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ الإِسْلَامِ ، فَإِنْ

قوله : (إن الله يعلم ما تفعلون) تهديد ووعيد .

قوله : « عن بريدة » هو ابن الحصيب الأسلمي ، وهذا الحديث من رواية ابنه سلمان عنه .

قوله : (كان رسولُ الله ﷺ إذا أمرَ أميراً عَلى جَيْشٍ أوْ سَرِيَّةٍ أوْصاهُ بِتقْوى اللهِ تعالى) فيه من الفقه تأمير الأمراء ووصيتهم . قال الحربي : السرية : الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها ، والجيش : ما كان أكثر من ذلك : وتقوى الله : التحرز من عقوبته بطاعته .

قوله : (وَمَنْ مَعهُ مِنَ المسلمينَ خَيراً) أي ووصاه بمن معه أن يفعل معهم خيراً من الرفق بهم والاحسان إليهم وخفض الجناح لهم وترك التعاظم عليهم .

قوله : (اغْزوا بِاسمِ اللهِ) أي اشرعوا في الغزو مستعينين بالله مخلصين له فتكون الباء في بسم الله للاستعانة بالله والتوكل عليه هنا .

قوله : (قاتِلوا مَنْ كفَر باللهِ) هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر المحاربين من أهل الكتاب وغيرهم ، واستثنى منهم من له عهد ، وكذلك الذراري والأولاد والنساء والرهبان فلا يقتلون .

قوله : (وَلا تَغُلُّوا وَلا تَغْدِرُوا وَلا تُمَثِّلوا) الغلول : الأخذ من الغنيمة من غير قسمتها ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بما غَلَّ يَوْمَ القِيامَةِ ﴾ والغدر : نقض العهد . والتمثيل هنا : التشويه بالقتل ، كقطع أنفه وأذنه والعبث به .

قوله : (وَإذا لقيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المشْرِكينَ فادْعُهُمْ إلى ثَلاثِ خِصالٍ - أَوْ خِلالٍ) الرواية بأو التي هي للشك والمعنى واحد .

قوله : (فَأَيَّتُهنَّ مَا أَجابوكَ فاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ) منصوب بأجابوا .

أَجَـابُوكَ فَـاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَىٰ التَّحَـوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَىٰ دَارِ الْمُهَاجِرِينَ ، وأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إنْ فَعَلُوا ذٰلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينْ ، وَعَلَيْهِمِ مَا عَلَىٰ الْمُهَـاجِرِينَ ، فَـإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَـوَّلُـوا مِنْهَـا أَخْبِـرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُـونُـونَ كَـأَعْـرَابِ الْمُسْلِمِينَ ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ تَعَالَىٰ الَّذِي يَجْرِي عَلَىٰ الْمُؤْمِنِين ، وَلَا يَكُونَ لَهُمْ فِي الغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، فإِنْ هُمْ أبوا فَسَلْهُمُ الجِزْيَةَ ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ، فَإِن أَبَوْا فَاسْتَعِن بالله وَقَاتِلْهُمْ . وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وذِمَّةَ نَبِيِّه ،

قوله : (ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الاسْلامِ) كذا وقعت الرواية في جميع نسخ كتاب مسلم ثم ادعهم بزيادة ثم .

قوله : (ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى التَّحَوُّلِ مِنْ دارِهِمْ إلى دارِ المهاجِرينَ) يعني المدينـة إذ ذاك ، وهذا يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن وهو في بلد الشرك ، وكذلك إذا ظهرت المعاصي في بلدة ، نص عليه الفقهاء في كتبهم .

قوله : (فان هم أبوا أن يتحولوا منها) يعني أن من أسلم ولم يجاهدِ ولم يهاجر من البداوة لم يعط من الخمس ولا من الفيء شيء .

قوله : (فَانْ هُمْ أَبَوْا فاسْأَلهُمُ الجِزْيَةَ) فيه حجة لمالك وأصحابه والأوزاعي في أخذ الجزية من كل كافر عربياً كان أو غيره ، كتابياً كان أو غيره ، وقد اختلف في القدر المفروض من الجزية ، فقال مالك : أربعة دنانير على أهـل الذهب ، وأربعـون درهماً على أهـل الوَرِق ، وقال الشافعي : دينار على الغني والفقير ، وقال أبو حنيفة : على الغني ثمـانية وأربعون درهماً ، والوسط أربعة وعشرون درهماً ، والفقير اثنا عشر درهماً ، وهو قول أحمد ابن حنبل ، وعند مالك وكافة العلماء على الرجال الأحرار البالغين دون غيرهم ، وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين لا ممن نأى بداره ، ويجب تحويل النائي الى بلاد المسلمين أو حربهم .

قوله : (وَإذا حَاصَرْتَ أهْلَ حِصْنٍ) إلى آخره . فيه حجة لمن يقول من الفقهاء وأهل الأصول : إن المصيب في مسائل الاجتهاد واحد ، وهو المعروف من مذهب مالك وغيره .

فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وذِمَّةَ نَبِيِّه ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وذِمَّةَ رَسُولِهِ ، وَإِذا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِكَ . فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي ، أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا ؟ » رواه مسلم[1] .

فيه مسائل :

الأولى : الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه ﷺ وذمة المسلمين .

الثانية : الارشاد إلى أقل الأمرين خطراً .

الثالثة : قوله : « اغزوا بسم الله في سبيل الله » .

الرابعة : قوله : « قاتلوا من كفر بالله » .

الخامسة : قوله : « استعن بالله » وحكم العلماء .

السابعة : كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا .

* * *

قوله : (وَإِذَا حاصَرْتَ أَهْلَ حصْنٍ فَأرادوكَ أَنْ تَجْعَل لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وذِمَّةَ نَبيِّهِ) الذمة : العهد ، وتخفر : تنقض ، يقال : أخفرت الرجل : نقضت عهده ، وخفرته : أجرته ، لأنه لا يؤمن على من أعطى ذمة أن يخفرها ، فخفر ذمته أهون من أن يخفر ذمة الله تعالى .

---

(١) رقم (١٧٣١) في الجهاد : باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ، وأبو داود رقم (٢٦١٢) و(١٦١٣) في الجهاد : باب في دعاء المشركين ، والترمذي رقم (١٦١٧) في السير : باب ما جاء في وصيته ﷺ في القتال ، ورقم (١٤٠٨) في الديات : باب ما جاء في النهي عن المثلة ، والدارمي رقم (٢٤٤٧) في السير : باب في الدعوة الى الاسلام قبل القتال ، وابن ماجه رقم (٤٨٥٨) في الجهاد : باب وصية الامام ، وأحمد في « المسند » ٣٥٢/٥ و٣٥٨ .

٦٤ - باب ما جاء في الإقسام على الله

عن جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « قَالَ رَجُـلٌ وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ ، فَقَـالَ اللهُ عَزَّ وَجَـلَّ : وَمَنْ ذَا الَّذِي يَتَـأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ » رواه مسلم[١] .

وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد ، قـال أبو هـريرة : تكلم بكلمة أوْ بَقَتْ دنياه وآخرته .

قوله : « (باب ما جاء في الأقسام على الله) ، ذكر المصنف فيه حديث جندب بن عبـد الله رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : الحديث .

قوله : (يَتَأَلَّى) أي يحلف ، والألية بالتشديـد : الحلف ، وصح من حـديث أبي هـريرة ، ورواه أبـو داود عن أبي هـريـرة قـال : سمعت رسـول الله ﷺ يقـول : « كـانَ رَجُـلانِ في بَني إِسْرائيل مُتواخِيَين فكانَ أَحَدُهُما يُذْنِبُ وَالآخرُ مُجتَهِدٌ في العِبادَةِ فكانَ لَايَزالُ المُجْتَهِدُ يَرى الآخرَ عَلى الذَّنْبِ فَيقولُ أَقْصِرْ فوَجَدَهُ يَوْماً على ذَنْبٍ فقالَ لهُ : أَقْصِرْ ، فقال : خَلِّني وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقيباً ؟ فقالَ : وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ وَلاَ يُدْخِلُكَ الجَنَّةَ . فَقَبَضَ أَرْواحَهُما فاجْتَمَعا عِنْدَ ربِّ العالمينَ فقالَ لهذا المُجتَهِدِ : أَكُنْتَ بِي عالماً أَوْ عَلى مَا في يَدي قادِراً ؟ وقال للمُذْنِبِ : اذْهَبْ فادْخُلِ الجَنَّةَ بِرَحْمتي وقالَ لِلآخرِ : اذْهَبوا بِهِ الى النَّارِ »[٢] .

قوله : (وفي حديث أبي هريـرة أن القائِـلَ رَجُلٌ عـابِدٌ) يشيـر الى قولـه في هذا الحديث : « إِنَّ أَحَدَهُما مُجْتَهِدٌ في العِبادَةِ » ، وفيه معنى قوله ﷺ : « إِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ آللهُ لهُ بِها سَخَطَهُ إِلى يَوْم يَلْقاهُ »[٣] .

---

(١) رقم (٢٦٢١) في البر والصلة والآداب : باب النهي عن تقنيط الانسان من رحمة الله تعالى .

(٢) أحمد في « المسند » ٢/٣٢٣ و٣٦٣ ، وأبو داود رقم (٤٩٠١) في الأدب : باب في النهي عن البغي ، واسناده حسن .

(٣) الترمذي رقم (٢٣٢٠) في الزهد : باب في قلقه الكلام ، و« الموطأ » ٢/٩٨٥ في الكلام : باب ما يؤمربه من التحفظ في الكلام ، وأحمد في « المسند » ٣/٤٦٩ ، وابن ماجه رقم (٣٩٦٩) في الفتن : باب كف اللسان من الفتنة ، وقال الترمذي : هـذا حديث حسن صحيح ، وهو كما قال . انـظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (٨٨٨) .

فيه مسائل :

الأولى : التحذير من التألي على الله .

الثانية : كون النار أقرب إلى أحدنا من شِراك نعله .

الثالثة : أن الجنة مثل ذلك .

الرابعة : فيه شاهد لقوله « إن الرجل ليتكلم بالكلمة » . . الخ .

الخامسة : أن الرجل قد يغفر له بسببٍ هو من أكره الأمور إليه .

* * *

٦٥ ـ باب لا يستشفع بالله على خلقه

عن جُبير بن مُطعِم قال : جاء أَعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! نُهِكَت الأنفس ، وجاع العيال ، وهَلكتِ الأموال ، فاستسق لنا ربك ، فإنا نستشفِعُ بالله عليك وبك على الله . فقال النبي ﷺ : « سُبْحَانَ الله سُبْحَانَ الله ! » فما زال يُسَبّح حتى عُرِف ذلك في وجوه أصحابه ؛ ثم قال النبي ﷺ : « وَيْحَكَ ، أَتدري مَا الله ؟ إنَّ شَأْنَ الله أَعْظَمَ مِنْ ذٰلِكَ ، إنَّهُ لا يُستَشْفَعُ بالله

قوله : (باب لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلى خَلْقِهِ) .

وذكر الحديث ، وسياق أبي داود أتم مما ذكره المصنف ولفظه : عن جبير بن محمد ابن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال: أتى النبي ﷺ أعرابيٌّ فقال : يا رَسُولَ ٱللهِ جَهِدَتِ الأَنفُسُ وَضاعَ العِيَالُ وَنُهِكَتِ الأموالُ فاسْتَسْقِ لنا فإنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلى ٱللهِ وَنَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ فقالَ النَّبي ﷺ : « وَيْحَك أَتَدْرِي ما تقولُ ؟ » وَسبَّح رسول الله ﷺ فما زال يسبِّح حتى عُرِفَ ذلكَ في وُجُوه أصحابِهِ ثم قال : « وَيْحَكَ إنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، وَيْحَكَ أَتَدْري مَا ٱللهُ ؟ إنَّ عَرْشَهُ عَلى سَماواتِهِ كَهٰكَذا وقالَ بِإِصْبعِهِ مِثْلَ القُبَّةِ وَإنَّهُ لَئِطّ بِهِ أَطيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ » قال ابن يسار في حديثه : « الله فَوْقَ عَرْشِهِ ، وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَماواتِهِ » .

قوله : (وَيْحَكَ) كلمة تقال للزجر .

قوله : (أَتَدْري ما الله) فيه إشارة إلى قلة علمه بعظمة الله وجلاله .

عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ »[1] وذكر الحديث . رواه أبو داود .

فيه مسائل :

الأولى : إنكاره على من قال : نستشفع بالله عليه .

الثانية : تغيره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة .

الثالثة : أنه لم ينكر عليه قوله : « نستشفع بك على الله » .

الرابعة : التنبيه على تفسير « سبحان الله » .

الخامسة : أن المسلمين يسألونه الاستسقاء .

* * *

٦٦ ـ باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك

عن عبد الله بن الشِّخِّير ، قال : انطلقت في وَفْد بني عامر إلى النبي ﷺ فقلنا : أنت سيدنا ، فقال : « السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ » . قلنا : وأفضلنا

....

قوله : (إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ) لأن الأمر كله بيده تعالى ليس في يد المخلوق منه شيء ، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع تعالى وتقدس ، وفي هذا الحديث الرد على الجهمية وإثبات العلو ، وهذا الحديث رواه أبو داود ورضيه على عادته فيما كان عنده صحيحاً أو حسناً وسكت عليه ، وأما الاستشفاع بالرسول في حياته ، فانما هو بدعائه ﷺ ودعاؤه مستجاب ، وأما بعد وفاته فلا يجوز الاستشفاع به كما تقدم تقريره في باب الشفاعة وما قبله ، والله تعالى نهى عن اتخاذ الشفعاء في مواضع كثيرة من القرآن ، ونفاها في حق من سألها من غير الله .

قوله : (باب ما جاء في حماية النبيِّ ﷺ حمى التَّوحيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ) حمايته ﷺ حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال التي يضمحل معها التوحيد أو ينقص ،

---

(١) رقم (٤٧٢٦) في السنة باب في الجهمية . واسناده ضعيف ، كما قال الألباني في « ضعيف الجامع » رقم (٦١٥٠) .

فضلاً ، وأعظمنا طولاً ؛ فقال : « قُولُوا بِقَوْلِكُمْ ، أَوْ بَعْض قَوْلِكُم ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ »[1] . رواه أبو داود بسند جيد .

وعن أنس رضي الله عنه ، أن ناساً قالوا : يا رسول الله ! يا خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا . فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ ، أَوْ بَعْض قَوْلِكُمْ ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُم الشَّيْطَانُ ، أَنَا مُحَمَّدٌ ، عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُه ، مَا أُحِبُّ أَنْ

....

وقد اشتمل هذا الكتاب ـ على اختصاره ـ على أكثر ذلك ، والنهي عما ينافي التوحيد أو يضعفه ، يعرف ذلك مَن تدبره وعرف ما تضمنه باباً باباً .

قوله في حديث أنس : (أَنَّ ناساً قالوا يا رَسولَ اللهِ يا خيرَنا وَابْنَ خيرَنا) الحديث ، كره ذلك لئلا يكون وسيلة الى الغلو فيه والاطراء كما تقدم في قوله : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله »[2] وهذا من كمال نصحه للأمة وشفقته عليهم ، حذرهم مما يكون ذريعة الى الغلو فيه .

وقوله : (أنا مُحمَّدٌ عبدُ اللهِ ورسولُهُ) فأعلى مراتب العبد هاتان الصفتان العبودية الخاصة والرسالة ، وللنبي ﷺ أكملها وقد أخبر تعالى أنه وملائكته يصلون عليه ، وأمر أمته أن يصلوا عليه ، وأثنى عليه بأحسن ثناء وأبلغه ، وشرح له صدره ، ووضع عنه وزره ، ورفع له ذكره ، فلا يذكر في الأذان والتشهد والخطب ، إلا ذكر معه صلوات الله وسلامه عليه .

وأما إطلاق السيد فقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في بدائع الفوائد ما نصه : اختلف العلماء في جواز إطلاق السيد على البشر ، فمنعه قوم ، ونقل عن مالك ، واحتجوا بقول النبي ﷺ لما قيل له : أنت سيِّدُنا ، فقال : « السَّيِّدُ الله » وجوزه قوم ، واحتجوا بقول النبي ﷺ للأنصار « قومُوا إلى سَيِّدِكُمْ »[3] وهذا أصح من الحديث الأول .

---

(١) رقم (٤٨٠٦) في الأدب : باب في كراهية التمادح ، وأحمد في « المسند » ٤/٢٥ ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » رقم (٢٤٥ ـ ٢٤٧) ، وابن السني رقم (٣٨٧) ، واسناده صحيح .

(٢) تقدم تخريجه ص (١٠٧) .

(٣) البخاري رقم (٣٠٤٣) في الجهاد : باب إذا نزل العدو على حكم رجل ، وفي كتب أخرى ومسلم رقم (١٧٦٨) فيه : باب جواز قتل من نقض العهد وأبو داود رقم (٥٢١٥ ـ ٥٢١٦) ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ »[1] رواه النسائي بسند جيد .

فيه مسائل :

الأولى : تحذير الناس من الغلوّ .

الثانية : ما ينبغي أن يقول من قيل له : أنت سيدنا .

الثالثة : قوله : « وَلَا يَسْتَجرِينَّكُمُ الشَّيْطَانُ » مع أنهم لم يقولوا إلا الحق .

الرابعة : قوله : « مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي » .

* * *

٦٧ - باب ما جاء في قول الله تعالى

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ الآية

[الزمر: ٦٧].

قال هؤلاء : السيد أحد ما يضاف إليه ، فلا يقال للتميمي : سيد كندة . ولا يقال للملك : سيد البشر ، قال : وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم ، وفي هذا نظر ، فان السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو في منزلة الملك والمولى والرب لا بمعنى الذي يطلق على المخلوق ، انتهى .

(قلت) : فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في معنى قول الله تعالى : ﴿ اللهُ الصَّمَدُ ﴾ : إنه السيد الذي كمل فيه جميع أنواع السؤدد . وقال أبو وائل : هو السيد الذي انتهى سؤدده .

قوله : (باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾) الآية . أي من الأحاديث والآثار في معنى هذه الآية . قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى : ما قدر المشركون الله حَقَّ قدره حتى عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذي لا أعظم منه ، القادر على كل شيء المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قهره وقدرته ، قال السدي : ما عظموه حق

---

(١) النسائي في « عمل اليوم والليلة » رقم (٢٤٨ و٢٤٩) ، وأحمد في « المسند » ١٥٣/٣ و٢٤١ وهو حديث صحيح .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ الله يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ ، وَالأَرْضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ ، والشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ ، وَالمَاءَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ ، وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ ، ثم يَقُولُ : أَنَا المَلِكُ ، فَضَحِكَ النَّبِي ﷺ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، تَصْدِيقاً لِقَوْلِ الحَبْرِ ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ الآية .

وفي رواية لمسلم : « وَالجِبَالَ والشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ ، فَيَقُولُ : أَنَا المَلِكُ ، أَنَا الله » .

وفي رواية للبخاري : « يَجْعَل السَّمَاوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ ، وَالمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ ؛ وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ »[1] أخرجاه .

عظمته . وقال محمد بن كعب : لو قدروه حق قدره ما كذبوه .

وقد وردت أحاديث كثيرة تتعلق بهذه الآية . الطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف .

قوله : (عن ابن مسعود قال : جاء حبر من الأحبار الى النبي ﷺ فقال يا مُحَمدُ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ آلله يَجعَلُ السَّمٰوات عَلى إِصْبَعٍ) الحديث . وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي من طرق عن الأعمش به ، وقال البخاري : حدثنا سعيد بن عفير قال : حدثنا الليث : حدثني عبد الرحمن بن مسافر عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَقْبِضُ آلله الأَرْضَ وَيَطْوي السَّماءَ بِيَمينِهِ فيَقولُ : أَنا الملِكُ ، أَيْنَ مُلوكُ الأرضِ ؟ » تفرد به من هذا الوجه .

---

(١) البخاري رقم (٤٨١١) في تفسير سورة الزمر : باب قوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ ، ورقم (٧٤١٤ ـ ٧٤١٥) في التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ ، ورقم (٧٤٥١) : باب قوله تعالى : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ ، ورقم (٧٥١٣) : باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ، ومسلم رقم (٢٧٨٦) في صفات المنافقين : باب صفة القيامة والجنة والنار ، وأحمد في « المسند » ١/٤٥٧ ، والترمذي رقم (٣٢٣٩) في تفسير سورة الزمر.

ولمسلم[1] عن ابن عمر مرفوعاً : « يَطْوِي الله السَّمَاوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا المَلِكُ ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ السَّبْعَ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا المَلِكُ ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ ؟ » .

وروي عن ابن عباس ، قال : مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ والأَرْضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمنِ إلاَّ كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ .

وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أنبأنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : حدثني أبي ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إلاَّ كَدَرَاهِم سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ »[2] .

قال : وقال أبو ذر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ إلاَّ كَحَلَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ » .

قوله : ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً « يطوي الله عز وجل السموات ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا المَلِكُ أَيْنَ الجَبَّارونَ ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرونَ ؟ ثمَّ يَطْوي الأَرِضَ بِشِمالِهِ ، ثمَّ يَقولُ أنا المَلِكُ ، أَيْنَ الجَبَّارونَ ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرونَ ؟ » كذا في رواية مسلم قال الحميدي : وهي أَتَمّ .

قلت : وهذه الأحاديث وما في معناها ـ وهي كثيرة جداً ـ تدل على عظمة الله وكماله وعظيم قدرته ، وفيها الرد على الجهمية والأشاعرة ونحوهم أيضاً ، وكل ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله يدل على كماله وعظمته وجلاله ، وأن العبادة لا تصلح إلا له سبحانه وبحمده ، لا يصلح منها شيء لملك مقرّب ولا نبي مرسل ولا لمن دونهما ، قال شيخ الاسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى : وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسوله ﷺ

---

(١) رقم (٢٧٨٨) في صفات المنافقين.

(٢) لقد ثبت في المرفوع عن أبي ذر الغفاري عن ابن جرير ، وابن أبي شيبة ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » بلفظ « ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة » . انظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٠٩).

وعن ابن مسعود قال : بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمَائَةِ عَـام ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمَائَةِ عَامٍ ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّـابِعَةِ وَالكُرْسِيِّ خَمْسُمَائَـةِ عَامٍ ، وَبَيْنَ الكُرسِيِّ وَالمَاءِ خَمْسُمَائَةِ عَامٍ ، وَالعَرْشُ فَوْقَ المَاءِ ، وَاللهُ فَوْقَ العَرْشِ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ . أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمـة ، عن عاصم ، عن زِرّ ، عن عبـد الله . ورواه بنحوه المسعـودي عن عاصم ، عن أبي وائل ، عن عبد الله ؛ قال الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى ، قال : وله طرق .

....

وكلام الصحابة والتابعين وكلام سائر الأئمة مملوء بما هو إمّا نص أو ظاهر أنّ الله تعالى فوق كل شيء ، وأنه فوق العرش فوق السموات مستو على عرشه ، وذكر ما يدل على ذلك من الكتاب والسنة . وقال الأوزاعي : كنا ـ والتابعون متوافرون ـ نقول : إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ ، فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة ، وقال أبو عمر الطلمنكي في كتـاب الأصول : أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله مستو على عرشه بذاته ، ذَكَرَه الذهبيُّ في كتاب العلو . وقال أبو عمرالطلمنكي في هذا الكتاب أيضاً : أجمع أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه بالحقيقة لا على المجاز ، ثم قال في هذا الكتاب : أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنما كنْتُم ﴾ ونحو ذلك من القرآن أن ذلك علمه وأن الله فوق السموات بذاته مستو على عرشه كيف شاء . هذا لفظه في كتابه ، وقال الحافظ الذهبي : وأول مقالة سمعت مقالة من أنكر أن الله تعالى فوق العرش هو الجعد بن درهم ، وكذلك أنكر جميع الصفات ، فقتله خالد بن عبد الله القسري وقصته مشهورة ، وأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية فأظهرها واحتج لها بالشبهات ، وكان ذلك في آخر عصر التابعين ، فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر مثل الأوزاعي وأبي حنيفة ومالك والليث ابن سعد والثوري وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وابن المبارك ومن بعدهم من أئمة الهدى كالامام أحمد وخَلْق من أهل السنة . قال الامام الشافعي : لله أسماء وصفات لا يسع أحداً ردها ، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر ، وأما قبل قيام الحجة فانه يعذر بالجهل ، ونثبت هذه الصفات وننفي عنه التشبيه كما نفي عن نفسه فقال : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِه شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ اهـ من فتح الباري .

قوله : (وعن العباس بن عبد المطلب) ساقه المصنف مختصراً والذي في سنن أبي

وعن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله ﷺ : « هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم قال : « بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسُمَائَةِ سَنَةٍ ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسُمَائَةِ سَنَةٍ ، وَكَثْفُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمَائَةِ سَنَةٍ ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ ذٰلِكَ ، وَلَيْسَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ » [1] . أخرجه أبو داود وغيره .

....

داود عن العباس بن عبد المطلب قال : كنت في البطحاءِ في عصابةٍ فيهم رسولُ الله ﷺ فمرَّتْ بهم سحابةٌ فنظر اليها فقال : « مَا تُسَمُّونَ هٰذِهِ ؟ » قالوا : السَّحَابَ قالَ : « وَالمُزْنَ » قالوا : وَالمُزْنَ قالَ : « وَالعَنَانَ » قالوا : وَالعَنَانَ ، قال أبو داود : وَلَمْ أُتْقِنِ العَنَانَ جِداً قال : « هَلْ تَدْرونَ مَا بُعْدُ ما بينَ السَّماءِ وَالأَرْضِ ؟ » قالوا : لا نَدْري قال : « إِنَّ بُعْدَ مَا بَيْنَهما إِمَّا واحِدَةٌ أَوْ ثِنْتَانِ أَوْ ثَلاثٌ وَسَبْعونَ سَنَةً ثمَّ السَّماءُ فَوْقَها كذلك ـ حَتَّى عدَد سَبع سمٰواتٍ ـ ثم فوق السَّابِعَةِ بَحرٌ بينَ أسْفَلِهِ وَأَعْلاه مِثْلَ مَا بينَ سَماءٍ إلى سماءٍ ، ثم فوقَ ذلكَ ثمانية أو عالٍ بينَ أَظْلافِهِمْ وَرُكَبِهِم مِثْلَ مَا بينَ سَماءٍ إلى سماءٍ ، ثمَّ على ظُهورهِم العَرشُ بينَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلاه مِثْل مَا بينَ سماءٍ إلى سماءٍ ، ثمَّ آلله تبارَكَ وتعالى فوقَ ذلكَ » قال الحافظ الذهبي رواه أبو داود باسناد حسن وروى الترمذي نحوه من حديث أبي هريرة وفيه : « بُعْدُ مَا بَينَ سَماءٍ إلى سَماءٍ خَمسُمائَةِ عَام » قال ولا منافاة بينهما لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام هو على سير القافلة مثلا ، ونيف وسبعون سنة على سير البريد.

(قلت) : وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما ، مع ما يدل عليه صريح القرآن ، فلا عبرة بقول من ضعفه.

وقد ابتدأ المصنِّف رحمه الله تعالى ، هذا المصنَّف العظيم ببيان توحيد الالهية لأن أكثر الأمة ممن تأخر قد جهلوا هذا التوحيد ، وأتوا بما ينافيه من الشرك والتنديد ، فقام ببيان

---

(١) رواه أبو داود رقم (٤٧٢٣) و(٤٧٢٤) و(٤٧٢٥) في السنة : باب في الجهمية ، والترمذي رقم (٣٣١٧) في تفسير سورة الحاقة ، وابن ماجه رقم (١٩٣) في المقدمة : باب فيما انكرت الجهمية ، وأحمد في « المسند » ١/٢٠٦ و٢٠٧ من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وفي سنده عبد الله بن عميرة ، قال الذهبي في « الميزان » فيه جهالة .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير قوله : ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُه يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ .

الثانية : أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأولوها .

الثالثة : أن الحبر لما ذكرها للنبي ﷺ ، صدَّقه ، ونزل القرآن بتقرير ذلك .

الرابعة : وقوع الضحك من رسول الله ﷺ عند ذكر الحبر هذا العلم العظيم .

التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونهوهم عما كانوا عليه من الشرك المنافي لهذا التوحيد . فالدعوة إلى ذلك هي أهم الأمور وأوجبها لمن وفقه الله لفهمه ، وأعطاه القدرة على الدعوة إليه والجهاد لمن خالفه ممن أشرك بالله في عبادته ، فقرر هذا التوحيد ، كما ترى في هذه الأبواب ، ثم ختم كتابه بتوحيد الأسماء والصفات ، لأن أكثر العامة لم يكن لهم التفات الى هذا العلم الذي خاض فيه من ينتسب إلى العلم ، وأما من ينتسب إلى العلم فهم أخذوا عمن خاض في هذه العلوم ، وأحسنوا الظن بأهل الكلام ، وظنوا أنهم على شيء ، فقبلوا ما وجدوه عنهم ، فقرروا مذهب الجهمية ، وألحدوا في توحيد الاسماء والصفات ، وخالفوا ما دلت عليه نصوصُ الكتاب والسنة ، وما عليه سلف الأمة ، وأئمة الحديث والتفسير من المتقدمين . وما زال أهل السنة متمسكين بذلك ، لكنهم قلّوا فهدى الله هذا الامام إلى معرفة أنواع التوحيد ، فقررها بأدلتها ، فلله الحمد على توفيقه وهدايته إلى الحق حين اشتدت غربة الاسلام ، فضلّ عنه من ضل من أهل القرى والأمصار وغيرهم ، وبالله التوفيق . فقد اجتمع في هذا المصنف أنواع التوحيد الثلاثة التي أشار إليها العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله :

والعلم أقسام ثلاث ما لها ... من رابع والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الاله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني

وصلى الله على سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الخامسة : التصريح بذكر اليدين : وأن السماوات في اليد اليمنى ، والأرضين في اليد الأخرى .

السادسة : التصريح بتسميتها الشمال .

السابعة : ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك .

الثامنة : قوله : « كخردلة في كف أحدكم » .

التاسعة : عظم الكرسي بالنسبة إلى السماوات .

العاشرة : عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي .

الحادية عشرة : أن العرش غير الكرسي والماء .

الثانية عشرة : كم بين كل سماء إلى سماء .

الثالثة عشرة : كم بين السماء السابعة والكرسي .

الرابعة عشرة : كم بين الكرسي والماء .

الخامسة عشرة : أن العرش فوق الماء .

السادسة عشرة : أن الله فوق العرش .

السابعة عشرة : كم بين السماء والأرض .

الثامنة عشرة : كثف كل سماء خمسمائة سنة .

التاسعة عشرة : أن البحر الذي فوق السماوات بين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة سنة . والله سبحانه وتعالى أعلم .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً كثيراً .

* * *

تم الكتاب

وقد كتب في آخره ما نصه :

تم نسخ ذلك في رجب سنة ١٣٤٥ بلغ مقابلة وتصحيحاً على المشايخ الكرام الشيخ محمد بن عبد اللطيف والشيخ سليمان بن سحمان والشيخ عبد الله المنقري .

فهرس الأحاديث والآثار النبوية

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وبعد: فهذا كتاب «قرة عيون الموحدين» للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، المتوفى سنة (١٢٨٥) هـ، وقد وضع فيه بعض الحواشي المفيدة على كتاب جده شيخ الإسلام في عصره الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي التميمي المتوفى سنة (١٢٠٦) هـ، الذي دعا إلى توحيد الله عز وجل وعدم الإشراك به، وقد تبعه في ذلك حفيده الشيخ عبد الرحمن، فوضع بعض الحواشي المختصرة في كتابه هذا الذي سماه (قرة عيون الموحدين)، وإنه بحق قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين، الذين دعوا إلى عبادة الله وحده وعدم الإشراك به، فبيَّن الشيخ عقيدة التوحيد، وحذر مما يعد من الشرك الذي تساهل الناس فيه في عصرنا الحاضر، كالتمائم، والتبرك بالأحجار والأشجار وغيرهما، وبيّن أنه لا تجوز العبادة إلا لله تعالى، وأن الذبح أيضاً لا يجوز إلا لله، وكذلك النذور لا تجوز إلا لله، وأن من الشرك أن يستغيث الإنسان بغير الله تعالى وأنه ينبغي أن لا يسأل غير الله تعالى، ولا يستعين إلا بالله، وقد قال رسول الله ﷺ: لابن عمه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: «وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» وقال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يردك بخير فلا راد لفضله، يصيب به من يشاء من عباده﴾.

وبيّن رحمه الله أن سبب كفر بني آدم، الغلو في الصالحين حتى صارت كالأوثان تعبد من دون الله، وحذر الناس من السحر والكهانة، والتطير والتنجيم والاستسقاء بالأنواء، وبيّن أن من الشرك الحلف بغير الله تعالى، وأن على المؤمن أن يسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، وبيّن أيضاً رحمه الله أن رسول الله ﷺ حمى التوحيد وسد طرق الشرك، ومن أراد في هذا شرحاً وافياً فعليه أيضاً بكتاب «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» الذي هو شرح أيضاً للمؤلف نفسه

على كتاب جده «التوحيد»، فإنه قد أجاد فيه، وأفاد، جزاه الله تعالى خيراً.

وإننا نقدم للناس هذه الرسالة في وقت أحوج ما نكون فيه إلى تصحيح عقائد المسلمين والرجوع بها إلى النبع الصافي من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، وهي تعطينا صورة صادقة لما كانت عليه عقيدة الأمة الإسلامية في قرونها الخيرة التي تلقوها عن أئمتهم، وهي عقيدة السلف الصالح، وهي العقيدة السليمة والطريقة المستقيمة التي ينبغي على كل مسلم أن يسلك سبيلها، وأن يسير على منهاجها، نسأل الله تبارك وتعالى أن يميتنا على عقيدة أهل السنة والجماعة، وأن يحشرنا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه خادم السنة النبوية

عبد القادر الأرناؤوط

مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا إله إلاّ هو وحده، والصلاة والسّلام على محمّد وآله وصحبه، وبعد،

اعتمدت في تحقيق كتاب «قرة عيون الموحدين» على طبعة الأستاذ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى، الذي هو حاشية على «كتاب التوحيد» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، المطبوعة بمطبعة المنار سنة ١٣٤٦ هـ، وقد رأينا أن الفائدة لا تتم من الكتاب إلا إذا كان مصدر بكتاب التوحيد كاملاً فكان عملنا:

١ ـ صدرت «كتاب التوحيد» في أعلى الصفحات.

٢ ـ جعلت «كتاب قرة عيون الموحدين» حاشية له وبحرف مغاير للأول.

خرجت أحاديث الكتابين، وذلك بالرجوع إلى كتب السنة المطهرة، وإلى كتب الشيخين محمد ناصر الدين الألباني وعبد القادر الأرناؤوط، وألحقت بالكتاب فهرساً لأطراف الحديث وآخر لموضوعات الكتاب.

وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب ويقر به عيون الموحدين، الذين يتبعون رسالاته ويخشونه ولا يخشون أحداً سواه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

بشير محمد عيون